العربة الذهبية لا تصعد إلى السماء

رواية

سلوى بكر


سينا للنشر

العربة الذهبية
لا تصعد إلى السماء

الناشر

سينا للنشر

المدير المسئول

راوية عبد العظيم

رئيس التحرير

مصطفى الحسينى

١٨ ش ضريح سعد - القصر العينى

القاهرة - ج . م . ع - ت : ٣٥٤٧١٧٨

العربة الذهبية لا تصعد إلى السماء

رواية : سلوى بكر

الطبعة الأولى: ١٩٩١

الغلاف للفنان : عماد حليم

رواية

سلوى بكر

العربة الذهبية لا تصعد إلى السماء



حيث صب البحر

أفاقت عزيزة الإسكندرانية من قيلولتها، التى تنامها عادة- عوضاً عن قيامها، الكثير من ساعات الليل، إلى وقت السحر- حتى أن تهدأ قليلاً حياة النهار، الصاخبة، فى سجن النساء، التى يختلط فيها الضحك، بالبكاء، بالشجار المعتاد بين نزيلاته على الحمام، وعلى ما يقدم لهن من طعام، إضافة إلى زعيق السجانات، الذى لا ينقطع، معظم الوقت، لردع الجميع، وحثهم على الامتثال للأوامر، والقواعد المقررة لتسيير الحياة بين جدرانه.

فتحت عينيها، وهى ما زالت ممددة على فراشها الأرضى، لم تغادره بعد، فاصطدم بصرها، عبر شباك الزنزانة، المفتوح، العالي، بنؤابات الأشجار، التى ضاع بعض من معالمها فى العتمة، بسبب إنطفاء الشمس، ورحيلها، الذى لم يكن قد مضى عليه غير وقت قليل، وظلت للحظات تستمع إلى معزوفة الوداع المسائية، التى تعزفها العصافير المستقرة على الغصون حتى ضياء صبح آخر، وهى المعزوفة، التى أنصتت إليها مرات ومرات، عند هذا الوقت، من كل مساء، منذ أن استقرت كنزيلة فى سجن النساء، والتى تختلط ألحانها، المزقزقة والمشقشقة، عادة بصوت الشيخ عبد الباسط، أو محمد رفعت، المرتل لتراتيل قرآنية جميلة، تنبعث من الراديو، الترانزستور، الذى تضعه، عادة، الحاجة أم عبد العزيز على

إفريز شباك عنبر العجزة، بعد أن تثبت مؤشره على محطة إذاعة القرآن الكريم.

تنهدت عزيزة بحرارة، عندما وصل المقرىء إلى قول العزيز الحكيم: "ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب" وكانت قد بدأت تشعر بضيق فى تنفسها، وبوطأة الجو الخانق على روحها، وبسماجة لزوجة عرق البلح، المنساب على رقبتها، وتحت إبطيها، بسبب الرطوبة الشديدة لشهر أغسطس، التى تنعم على القطن بتمام نضجه وتفتحه، وعلى البلح بمنتهى استوائه واحمراره فقامت وخلعت جلباب السجن، الميرى، الطويل، المصنوع من البفتة البيضاء، وتوجهت إلى ركن الحجرة، فحفنت بيديها حفنات من ماء الدلو، البلاستيكى، الأخضر، المركون فى ذلك الركن، ومسدت وجهها ورقبتها به، وغسلت تحت إبطيها، تاركة القطرات المتخلفة عن ذلك، تتساقط منها فى صفيحة الفضلات القديمة، والتى كانت بالأصل، صفيحة مسل صناعى ماركة الميزان، ثم أنها ملست، بيديها المبتلتين، على شعرها، لتكبح جماح الشعيرات الناعمة، التى نفرت من عقدته، المثبتة بمشابك ودبابيس، بسبب النوم، فلما انتهت من ذلك، راحت تتمشى قليلاً، فى الحجرة الواسعة، ذات الشباكين، اللذين يطل أحدهما على الدهليز، الطويل، الممتد، الواقعة عليه زنزانتها، وكل الزنازين الأخرى، فى هذا الجناح من السجن، المخصص للعجزة، والمستشفى، والحالات الخاصة، مثل حالتها، وتوجهت نحو الشباك الثانى، بعد أن ملّت التمشى، أملة أن تهب من ناحيته نسمات رقيقة، تنعش روحها، وتشعرها ببعض البرودة اللذيذة، إذ هى جففت ما غسلته بالماء فلما لم تجد أمامها غير الحائط العالى، المنتهى بحزام الأسلاك الشائكة، التى تحوطه، وهو الحائط الذى يفصل بين سجن النساء، وسجن الرجال، وذؤابات الأشجار، التى ضاعت معالمها أكثر فى ظلمة المساء، تنهدت بضيق، تاركة الشباك، بقضبانه الحديدية الرفيعة والمطل على ذلك المشهد، الذى حفظته عن ظهر

قلب منذ أن نقلتها الإدارة لهذه الزنزانة، وعادت إلى فرشتها مرة أخرى، فجلست عليها كالمعتاد، لتبدأ سهرتها الليلية، التى لم تنقطع عنها منذ سنوات طويلة، وهى أشبه بخلوة يومية، تختلى فيها بنفسها، تجتر، خلالها، ذكريات الأيام الخوالى، وتناجى روحها الوحيدة، المفعمة بالوحشة واليأس، وانقطاع كل رجاء يأتى من أهل الدنيا، أو من سنوات الحياة.

أشعلت لنفسها سيجارة كليوباترة، سحبت منها نفساً طويلاً، ابتلعته عميقاً، بمتعة مدخنة مخضرمة، أدمنت الدخان منذ مطلع شبابها، ثم تطلعت، ببصرها إلى نجمات قليلات، أطلت عليها من القطعة السماوية الصافية التى يسمح بها الشباك، وصبت لنفسها فى الكوب البلاستيكى المركون إلى جوار الإبريق الفخارى، الموضوع بجانب الفراش، قليلاً من الماء البارد نوعاً، فتجرعت منه جرعة، وراحت تحادث أم رجب، بصوت خفيض هادىء، بعد أن استدعتها - كما تفعل دائماً- بمخيلتها، من سريرها فى عنبر العجزة المجاور، لتجسدها جالسة قبالتها تحكى لها عن رأيها بوضوح، وصراحة فى تصرفاتها ورأيها الحقيقى فيها فقالت:

- يا أم رجب.. مشكلتك أنك حمارة.. من أول يوم شفتك هنا، قلت لنفسى: الولية العجوز، أم شعر أحمر، خشن مصبوغ لازم أن تكون غبية وحمارة، لأنى قدرت من ساعة شوفتى لك، أن عمرك عدّى وفات ستين سنة بالتأكيد، والحمار وحده، يدخل السجن لَما يصبح فوق الستين، ولما حكت لى محروسة السجانة عن سبب سجنك، قلت لها: فعلاً.. ولية حمارة، لأنك يا أم رجب محبوسة لأجل شىء تافه. ثلاث سنين، بسبب محفظة ما تساوى أن يبص لها الواحد أبداً، فيها تسعون جنيهاً أعمى يعنى كل ثلاثين جنيهاً بسنة من عمرك، والغريب أن تقرى فى تحقيق النيابة، وتعترفى، أنك طوال عمرك نشالة، لحم أكتافك، من الهبش، ويوصلك هبلك لحد الكلام، معهم عن طريقتك فى نشل الفلوس من جيوب ومحافظ الناس.

تصورت عزيزة، كعادتها، أن أم رجب تجلس أمامها فى هذه اللحظات،

بلحمها ودمها، شارعة فى البكاء والنشيج، إثر سماعها ذلك التوبيخ، بينما فتحة فمها الصغيرة، تلم وتفرد تجاعيد جلدها الكثيرة الدقيقة، المتجمعة، حول شفتيها، الرقيقتين فى حركات عصبية مرتعشة، لكن عزيزة كانت مدركة أن ذلك التوبيخ لم يكن إلا السبب الظاهرى لبكاء أم رجب، أما السبب الحقيقى العميق فهو كدرها على حالها بعد أن ماتت ابنتها وهى لا تملك سبيلاً لرؤيتها أو تشييعها إلى القبر، لذلك حاولت تهدئة الأم الثكلى، التى ما زالت تتصورها جالسة، أمامها فى زنزانتها الإنفرادية، رغم شخير أم رجب، بصوت، يشبه صوت مكبس مضخة المياه، كان يتعالى، حقيقياً، عالياً، آنذاك، من عنبر العجزة، عبر الشبابيك المفتوحة، عن آخرها، بسبب حرارة الجو، ويصل لمسامع عزيزة بمنتهى الوضوح، وذلك بعد أن نامت هذه العجوز مرهقة، خائرة القوى، إثر أزمة قلبية، كانت قد داهمتها قبل ذلك بساعات، وكادت أن تجهز على حياتها، لولا الحاجة أم عبد العزيز، التى أعطتها دواء القلب بسرعة، وظلت إلى جانبها، ترعاها وتمرضها حتى مرت الأزمة بسلام.

ملأت عزيزة كوبها بالماء، ورفعت يدها به، لأم رجب لتشرب، وتهدأ روحها قليلاً، وتتوقف عن البكاء، ثم قالت لها :

– خلاص بطلى النواح، لأن الدموع والبكاء أكلت نظرك، وصحتك فى النازل يوماً وراء يوم، ثم .... فكرى فى نفسك لأجل خاطر عيال المرحومة، لأنهم فى انتظار ساعة خروجك لتحوطيهم بحنانك ورعايتك، ثم أن قدامك هموم كثيرة، إلى أن يكبروا، ويصلب عودهم، ويقدروا أن يواجهوا الدنيا ومشاكلها.

كانت عزيزة تدرك جيداً أن حزن أم رجب لن ينقطع مهما كانت الأسباب وكلمات العزاء التى تقولها لها، لكنها كانت فقط تحاول كفها عن البكاء والعويل، لأن فجيعة أم رجب فى ابنتها الوحيدة، التى ترملت، قبل شهور قليلة من دخول أمها السجن، لا حدود لها، خصوصاً أنها تركت بعد

موتها ثلاثة أطفال صغار، أكبرهم فى العاشرة وذلك بعد أن فشلت كل محاولات إنقاذها عندما أمسكت بها نار موقد الغاز، وأتت عليها بسرعة، لأنها كانت ترتدى قميصاً للنوم، طويلاً، مصنوعاً من مادة النايلون سريعة الاشتعال، التصقت بجسدها، وحولته إلى كتلة سوداء متفحمة.

لذلك فعزيزة، منذ أن عرفت بمأساة أم رجب، غيرت من معاملتها لها، ومن نظرتها القديمة إليها باعتبارها شيطانة عجوز، لا تكف عن الشجار، وافتعال المشاكل مع كل من حولها، رغم جسدها النحيل، الضامر وقلبها الضعيف، المهدد بالتوقف فى أية لحظة، كما قال أطباء السجن والذى تلزمه جراحة، لتغيير صمامين من صماماته، وهذا ما لن يحدث بالطبع بسبب أن أم رجب لا أسود لديها ولا أبيض، لتدفعه لجراح متخصص فى مثل هذا النوع، من العمليات، يتقاضى مبلغاً خرافياً، بالنسبة لها، كما أن مستشفيات الحكومة، تفيض عن امكانياتها، طوابير أولئك المنتظرين أمام أبوابها، لإجراء مثل هذه الجراحات.

وضعت عزيزة الكوب، على الأرض، بعد أن تعبت من رفعه، دون أن تمتد يد أم رجب لتأخذه منها، أطفأت ما تبقى من سيجارتها التى كانت على وشك الانتهاء، ثم أنها زمّت عينيها قليلاً، فى نظرة متفحصة للمرأة، التى ما زالت تراها جالسة أمامها وقالت:

– عندى لك مفاجأة، يا أم رجب.. مفاجأة تخليك فى غاية الانبساط، والرضا، لكن طوال ما أنت عاملة لى مناحة يبقى سرها محفوظ عندى.. وأنت حرة.. نوحى على كيفك، إن شاءالله تنفلقى، وذنبك على جنبك.

ابتسمت عزيزة، ابتسامة عريضة، راضية، بانت معها أسنانها التى كانت لؤلؤية جميلة فى زمن غابر، والتى أصبحت الآن سوداء وسخة، بسبب الإهمال والتدخين المتواصل لصاحبتها، كانت منتشية، بذلك التهديد الذى واجهت به أم رجب، لتجعلها تكف عن البكاء وتستريح روحها المعذبة قليلاً لذلك رفعت كوب الماء، وعبت ما فيه عباً، على أساس أنه خمر معتق،

لذيذ وليس ماءً من الإبريق، الذى حرصت على ملئه، قبل إغلاق الزنزانة، عليها من الخارج، ليفى بحاجتها من الماء طوال الليل، وحتى صباح اليوم التالى، وبعد أن توهمت خدراً لذيذاً، أدار رأسها، الذى ما زال يحتفظ ببقايا من جمال قديم ضائع، ليكتمل تمثلها لكونها قد سكرت فعلاً، مثلما كانت تفعل كثيراً فى الماضى الجميل الذى عاشته، وما زال يعيش معها أشعلت لنفسها سيجارة أخرى راحت تحملق فى خيوط دخانها الأزرق، المتصاعد أمامها، بينما أخذها التفكير العميق الأسيان الذى طالما زارها، عندما تبقى وحيدة فى زنزانتها الإنفرادية، ليذهب بها بعيداً، بعيداً، إلى عالمها القديم الذى بات محتجباً عنها تفصل بينه وبينها قضبان وأسوار، وسنوات طويلة، من الوحدة فى تلك الزنزانة، الإنفرادية الموحشة، التى طالما حنتّ وهى جالسة فيها إلى رائحة البحر، وأصوات هدير أمواجه التى طالما سمعتها فى بيتها القديم تأتيها من بعد، وتطمئن روحها بأنها تحيا فى مدينتها التى طالما عشقتها، ونحتت معالمها الجميلة فى جدران ذاكرتها العتيقة.

كانت عزيزة بنت الإسكندرية، قد دخلت دنيا سجن النساء، قبل أن تبلغ الأربعين من عمرها كمحكومة بالسجن المؤبد، بعد أن قتلت زوج أمها، دونما سبب واضح تبديه للقضاء أثناء محاكمتها فلقد أصرت على ترديد قول واحد علت به أغتيالها له، بينما كان نائماً فى سريرة ذات ليلة، بأن أغمدت سكين مطبخ حادة فى صدره، أردته بعدها قتيلاً، قالت أنها لم تقتله، لكنها قتلت شخصاً أخر غيره، وجدته نائماً فى الفراش، ولم تزد على قولها هذا شيئاً، رغم كل المحاولات التى جرت لاستنطاقها، والحصول منها على أقوال أخرى، تفيد فى الحكم عليها حكماً لا يشوبه الظلم والجور، مع أنها حكت للمحكمة بالتفصيل، كيف أنها غرزت السكين فى قلبه القاسى، الذى ما قالت لأحد أبداً، أنه مزق قلبها وكسره، وأحرق كل ذكرياتها الجميلة معه، فأحرقت معها جميع سفنها، وباعت كل ما، من

مصاغ وأشياء ثمينة، تبرعت بثمنها لجمعية خيرية، مفترض أنها لرعاية مرضى الجذام، الذين يمكن مشاهدة بعضهم يتسول فى شوارع المدينة، كأكبر دليل على وجود هذه الرعاية، ثم أنها بعد أن قتلته وتأكدت من خروج نفسه الأخير، قامت بإشعال النار، ليس فى صوره، وصورهما المشتركة ومتعلقاته من أوراق وملابس وعصى خشبية وعاجية ثمينة كان يحملها عادة من باب الوجاهة، ولكنها أشعلت النار، أيضاً فى كل المحتويات الأخرى التى ضمنها المنزل القديم الجميل المحاط بحديقة واسعة غنّاء، طالما شهدت أوقاتاً سعيدة وذكريات رائعة لا تنسى أيام كان هذا المنزل عامراً، بسكانه الأحياء، وتفاصيل حياتهم المثيرة، السعيدة.

ظلت عزيزة وحتى لحظات جلوسها هذه فى السجن تجتر ذكرياتها القديمة، التى تجعلها لا تندم على ما فعلته أبداً، لأنها ما قتلت إلا لأجل الاحتفاظ بتلك الذكريات جميلة، صافية الحلاوة، لا تشوبها أية شائبة، تكدر صفاءها، لأن من قتلته، لم يكن هو الرجل الذى عرفته وخبزته، وربيت فى كنفه، منذ أن كانت طفلة صغيرة، لم تشب عن طوق البراءة بعد، وحتى صارت شابة جميلة مكتملة الجمال والتكوين، بل إنها قتلت رجلاً آخر له الملامح ذاتها والشكل ذاته، لكنه لم يكن له القلب نفسه، والروح نفسها اللذان طالما أحبتهما، وعشقتهما، وأخلصت لهما، منذ ذلك الزمن البعيد، وهكذا أيقنت أن ذلك الآخر الشبيه، هو المغتصب لجسدها الجميل منذ أن كانت صبية لم يتجاوز عمرها الثالثة عشر، بعد، وهو المجرم الخطير الذى سرق قلبها المحب وعواطفها الجياشة العميقة، التى طالما سفحتها لأجل عشقه، وهو فى النهاية قرين الشر المختبىء فى عالمه السفلى، والذى ظهر لها، فجأة، ليكدر سعادتها، ويحطم بنيان الوداد فى ذلك البيت القديم.

لقد فكرت قبل اغتياله فى طرق عديدة مبتكرة، لتميته الميتة المناسبة، التى تليق بكرامة ذلك الآخر- الأصل، الذى طالما أحبته، إذ لم يكن من المعقول، بالنسبة لها، أن تميت من هو جميل، رائع مثله بإسلوب فج خشن،

يفتقد إلى كل ذوق وأناقة لذلك اقترحت على نفسها ذات مرة أن تصب عليه كمية هائلة من الشيكولاتة، المغلية، السائلة، بعد أن تخدره بمخدر قوى، يفقده كل قدرة على الحركة، أو المقاومة، ليتسربل بذلك السائل داكن اللون، اللذيذ، ويتحول إلى قالب ضخم من الحلوى، التى قل من لا يقبل عليها، من الناس، ثم إنها قررت تزيينه بحبات الكرز المجفف، وشيكولاتة السمسم الدقيقة، والكريمة المخفوقة، الهشة، ليصبح جاهزاً للتقطيع قطعاً صغيرة بالشوكة والسكين، تضعها برفق وعناية، متراصة إلى جوار بعضها البعض، فى منظر بديع، ينمّ عن حس، وذوقٍ فى أطباق الحلوى المصنوعة من الخزف الصينى ذات الأطر الزرقاء المذهبة عند الحواف، لتوزعها على الجيران والاصدقاء، مستحوذة، لنفسها، على تلك القطعة التى يقع فى نطاقها القلب الشرير، الذى طالما عذبها، وحطمها يأساً وقنوطاً من الحياة.

ثم أنها فكرت مرة أخرى فى إسلوب آخر، ربما كان أكثر ملاءمة لقتله من وجهة نظرها، وهو الأسلوب الذى تفتق عنه ذهنها بعد كل تلك الليالى الطويلة، التى قضتها قبل أن تقتله، تفكر وحيدة، وهى فى ذلك البيت الكبير، الذى بات كئيباً موحشاً، بعد أن ماتت أمها، وتحول كمنزل من منازل الأشباح، فتخيلت وهى جالسة على المقعد الفوتيه، الكبير، أسفل شباك غرفتها، بينما كانت ترقب القمر ولا صوت يأتيها غير حفيف الأشجار، وذلك العزف الحزين، المنبعث من داخلها تخيلت أن تقتله قتلاً يعوضه عن رغبته فى الزواج، من تلك الأخرى التى بات يحبها، بدلاً منها، والتى قرر أن يمنحها قلبه الجديد، الذى ما اعتقدت أبداً أنه ذات القلب القديم، الذى طالما عشقها سنوات وسنوات، منذ أن كانت طفلة صغيرة لم تتفتح عيناها على مشاعر الحب بعد، ولم يكن الأسلوب الذى ابتدعته من نسيج خيالها، المطواع لرغبتها فى طريقة فريدة لإفنائه، إلا أن تخدره قبل أن ينام بمخدر قوى يفقده كل قدرة على الحركة، ثم تأتى بكميات هائلة من

الزهور النضرة الجميلة المقطوفة قطفاً حانياً في صباح اليوم الذى ستغتاله فيه عند المساء، والتى كانت قد قررت إبتياعها وبتوصية خاصة من أشهر محل لبيع الزهور فى المدينة، وهو محل "الذكرى الجميلة" الذى طالما أهداها ذلك الحبيب القديم زهوراً منه وبنفسجاً، ونرجساً وياسميناً، فى زمن الغرام المشبوب الذى ما كانت لتظن أنه منته أبداً لتقوم بتنسيقها تنسيقاً بديعاً يتوافق مع ما حوته من ألوان وأشكال حيث الياسمين الأبيض، وعصافير الجنة بعروقها الممتدة، وألوانها المتداخلة البهيجة والخزامى الحزين، والورد البلدى، الأثير إلى قلبها، والذى يكون بلون الدم حيناً، وبلون الكنارى حيناً آخر، وبلون خدهّ الجميل الذى طالما قبلته أحياناً أخرى، وبعد أن تنتهى من تنسيق تلك الزهور، تنسيقاً أنيقاً طالما برعت فيه- على جسده ورأسه وصدره وتحت قدميه، حتى يتغطى ويلتحف بها تماماً، ويتضوع برائحتها جسده الساجى الممدد بلا حراك لوقوعه تحت تأثير ما خدرته به، عندئذ، وعندما تتأكد تماماً من إغلاقها لنافذة الحجرة وبابها، إغلاقاً محكماً لا يسمح بدخول أقل الهواء، فإنها تتركه يموت موتاً بطيئاً جميلاً، وهو يتنسم العبير القاتل الذى طالما تنسمته بين يديه وهو يقدم لها تلك الزهور الرائعة فى الزمن الماضى.

لكن عزيزة، لم تطبق أياً من تلك الأفكار، التى جالت برأسها قبل أن تقتله، ولم تنفذ جزءاً واحداً مما كانت تضمره فى نفسها من قتل، جميل مبتكر، يختلف عن تلك الأساليب المتعارف عليها للقتل إذ كانت تخشى افتضاح أمرها وفشل خططها المبتكرة، للموت، لأى سبب من الأسباب يتعلق بعدم دقة التنفيذ أو كشف نواياها، قبل تنفيذها بالفعل، وهكذا عقدت عزمها على استخدام السكين، باعتبارها الوسيلة الأضمن والأسرع فى التنفيذ، بل والأكثر قدرة على إنجاز ما ترغب فى إنجازه وإحداث فعل المباغتة، الذى عاشته ذات يوم بعيد حين كانت ما تزال طفلة صبية بضفيرتين، ما عاشت زمن طفولتها، أبداً، بسبب ما رتبته لها الأيام من

تصاريف جعلتها مضطرة، دوماً لأن تكون سيدة بيت تتحمل ما تتحمله النساء عادة من تدبير شئون عالمهن الضيق، المحدود، بحدود الجدران فتنصرف إلى الطهو والتنظيف، والإشراف على كل ما يتصل بحياة مستقرة تشى بوجود إمرأة لقد بوغتت عزيزة ذات يوم بعيد فى زمن الطفولة، المسروقة تلك، وهو اليوم الذى لا يغيب عن ذاكراتها أبداً إذ كانت تقف في المطبخ لتعد الطعام الغذاء للأسرة الثلاثية الصغيرة المكونة منها ومن رابّها وأمها، التى كانت قد ذهبت آنذاك للمشاركة في العزاء المقام عند الجيران وبينما كانت الأم تبكى وتندب مشاركة أهل الميت مصيبتهم فى فقده باعتباره شاباً صغيراً ابتلعه البحر على حين غرة منه كانت ابنتها تدفع بمكبس موقد الكيروسين بكل ما تملك من قوة لتؤجج شعلة ناره تحت الحلة النحاسية المملؤة بقطع القلقاس الوردية التى لم تكن قد نضجت بعد، عندئذ ناداها زوج أمها، الذى كان يجلس فى هذه الأثناء على الكنبة الاستامبولى متكئاً بيده على مسندها المغطى بقماش الكيرتون الانجليزى الفاخر، بعد أن عاد من عمله عند الظهر وطلب منها أن تأتى لتخلع له حذاءه كما اعتادت أن تفعل دائماً وبينما هى آخذة فى فك رباط الجزمة المصنوعة من الجلد الاجلاسية، البنى الطرى بعد أن جاءته ملبية نداءه لها على وجه السرعة من المطبخ حملها فجأة بذراعيه وأخذها فى حضنه ليقبلها قبلات كثيرة اكتشفت بعد قليل أنها تختلف عن تلك القبلات التى اعتاد أن يطبعها على خدها إذ أنها انفعلت إنفعالات جديدة عليها لم تشعر بمثلها من قبل، سيطرت على كيانها وجسدها الصغير، الذى ما عاش، وما كان يجب أن يعيش تجربة من هذا النوع فى ذلك العمر المبكر، الذى لم يتعدّ دنيا البراءة، بعد.

لكنه، ومنذ تلك اللحظات البعيدة، الموغلة فى زمن الطفولة الأولى، ظل ذلك الرجل الكبير بالنسبة لها دائماً، وحتى بعد أن دست سكين المطبخ الحاد فى صدره، رجلاً جميلاً قوياً، آسراً، بل ظل بالنسبة لها قادراً على

إحداث هزة وتأثير فى النفس وشيىء غامض يشابه الخوف البسيط والرهبة عندما يكون المرء فى حضرته، سواء أكان رجلاً أم إمرأة، ولطالما لمست عزيزة، ذلك، بنفسها، من مراقبتها لتأثيره على الآخرين، وملاحظتها لكل أولئك الذين يتعاملون معه، سواء داخل البيت أو خارجه، من الرجال أم من النساء على الأغلب.

فى يوم القلقاس البعيد هذا، قال لها عندما كانت ما تزال فى حضنه، أنه يحبها حباً شديداً، لأنها صغيرة وجميلة، وكأنها حورية من حوريات البحر اللواتى لا يظهرن إلا أثناء الليل سراً، ثم أنه طلب منها أن تحبه مثلما يحبها، وتطيعه، وتنفذ كل ما يأمرها به، على الدوام، وقد كان له ما أراد، إذ ظلت عزيزة تطيعه، طاعة المسحورة بفعل سحر قوى لا فكاك من إساره، منذ تلك اللحظات القديمة، التى لم تفقد طزوجتها رغم مرور كل السنوات الطويلة عليها، إذ استقرت فى عمق الذاكرة، وحتى وقت اغتيالها له، إذ عشقته عشقاً نارياً، مستحيلاً، فى عطائه وإخلاصه، يصعب أن تمنحه أخرى، لرجل من الرجال، بل هو عشق يمكن أن يوزع على ألف إمرأة أخلصت فى غرامها، وأعطت له كل روحها وعميق كيانها، لأنها اعتبرت ذلك الحبيب المباغت ليس أقل من إله معبود، لا يرد له طلب أو أمر ولا يرتجى عشق من سواه، وهكذا منحته ولطوال سنوات طويلة لقب الرجل المعبود، وهو اللقب الذى ما كان يعرف سره غيره إلاها، باعتباره رجلاً لأمرأتين تربطهما رابطة الرحم، بينما كان ثلاثتهم يعيشون فى ذلك البيت القديم، الواسع الذى ورثته أمها عن أبيها المتوفى، الذى خرجت عزيزة من صلبه بالفعل، وقد ظل ذلك الغرام مصوناً لا يمس، ولا يفشى أمره، الذى ما أدركته الأم يوماً من الأيام، أو شعرت بجذوة اشتعاله، بين زوجها، وأبنتها، وما لاحظت تلك النظرات المشبوبة بالوجد، ولا الزفرات الحارقة الخارجة من مهجة القلب وكل تلك القبل المسكرة التى ذابت فيها الشفاه، بل ولا تلك الملامسات الجسدية الصاخبة بالصمت، ولم يكن ذلك الجهل

وغياب الإدراك بسبب بلادة الشعور أو قلة الفطنة، أو الجهل، لكن مبعثة فى الحقيقة، أن تلك الأم السعيدة المطمئنة، التى ما تصورت للحظة، حقيقة ما يدور حولها بين ابنتها الصغيرة وزوجها مكتمل الرجولة باعتبارها هى أيضاً، إمرأة مكتملة الفتنة والجمال، لم تكن إلا عمياء بالمولد، وإن كان العمى، الذى خصها به القدر، لم يقف عقبة تحول دون إقبال الرجال عليها، منذ أن كبرت، وصارت شابة مكتملة الأنوثة، بجسدها المرمرى، بديع التنسيق، وزرقة البحر المصبوبة صباً فى عينيها، اللتين لم يتسنى لهما النظر أبداً مما منح بملامح تقاطيع الوجه الدقيقة جمالاً، وفتنة، يظل اكتشاف المتأمل لها ولعمى صاحبتها، مسألة ذات طابع شاعرى، يضفى عليها مسحة إنسانية نبيلة، خصوصاً، عندما كانت تعقد ضفيرتيها الناعمتين الطويلتين، على رأسها، كما لو كانتا إكليلاً ذهبياً جميلاً، تبدو معه، وكأنها إمرأة تنتمى لعالم الأساطير، القديمة، التى خيمت بغموضها وسحرها، على تلك المدينة البحرية العتيقة منذ الزمن الغابر القديم،

تزوجت أم عزيزة، التى كانت تنتمى إلى أسرة ميسورة الحال، اشتغل رجالها بأعمال البحر، منذ سنوات بعيدة، من رجل غنى أضافت ثروته إلى ثروتها، بعد أن منحها عزيزة، وتوفى إثر إصابته بحمى التيفوئيد، مما أتاح لها فرصة أخرى لاختيار زوج عوضاً عنه، باعتبارها كانت لا تزال شابة صغيرة، لم تؤثر مسألة عماها فى الزواج، لأنها كانت تمتلك الكثير من المال، والجمال، فأقبل عليها عدد لا بأس به من رجال المدينة، يطلبون ودها، فاختارت منهم، ذلك الذى أصبح فيما بعد، رجلاً لها، ولابنتها، التى جاءت على صورتها، إلى حد كبير، ما عدا أن ألاعيب الطبيعة، تدخلت بلمسات قليلة، فالبشرة صارت سمراء، بعض الشىء، والعينان عسليتان تركهما الأب الراحل مبكراً، كتذكار حى، لم تره الأم أبداً، فتستطيع ملاحظة، تلك الطريقة، الناعسة، العميقة، فى النظر ذات الطابع الفطرى الغامض للغواية، التى طالما تمتعت بها عينا إلابنة الجميلة، فسحرت كل

من نظر إليها.

كان إلتقاء عزيزة، القدرى، المبكر، بالعشق، قد عجل بنحت معالم جسدها، وروحها، كأمرأة صغيرة، راحت تشارك أمها فى إغداق العواطف، على الرجل المحبوب، حباً مطلقاً، فى عالم المرأتين الضيق، المحدود، بحدود تمتد بين جدران البيت الواسع القديم، الذى كانتا تتشاركان فى تهيئته لاستقباله كل يوم عند عودته إليه، مثلما كانتا تتهيآن لملاقاته ذلك التهيؤ الذى يجعلها غاية فى الحسن والاكتمال، بحيث لا يقع نظره، إلا على كل جميل، لطيف، فيهما، فكانت عزيزة، تفعل مثلما تفعل أمها كل ليلة، إذ ترتدى قمصان النوم الأنيقة، التى تحيكها سونيا الأرمنية، أشطر وأمهر خياطة فى المدينة، والمصنوعة من الساتان دوشيس، والكريب دى شين، والحرير الأطلس اللامع، ثم تفك ضفيرتها، وتترك الخصلات اللعوب لشعرها تنسدل على كتفيها ووجنتها، ثم تسارع بخلع حذائه، بمجرد أن يأتى، ويستقر فى موقعه المعتاد، على الكنبة، بينما أمها، بالقرب منها، تبارك ذلك الاهتمام، بزوجها المحبوب، من جانب ابنتها الصغيرة، وتعتبره بمثابة توفيق حبتها به عين العناية الإلهية، التى طالما نظرت إليها بعين الشفقة والعطف، فعوضتها عن غياب نظرها، وباركت زواجها السعيد، بعد أن ترملت، وهى التى طالما فكرت فى الامتناع عن الزواج مرة أخرى، خوفاً من عدم الوفاق بين ابنتها وزوجها المختار، فتقع هى فى الحيرة، واختلاط المشاعر، وتنقلب حياتها، التى كانت تنشد فيها السكينة والرضا، إلى جحيم مقيم.

لكن، ها هى تتأكد بمرور الوقت، والأيام على زواجها السعيد من رجاحة عقل زوجها، فى تعامله، مع فتاتها الصغيرة، وفيض حنانه، وعظمة شفقته عليها، فهو لا يدخل البيت إلا ويتحدث إلى الإبنة، بكل الحب والعطف، ولا يبخل عليها بالثمين الغالى، من الهدايا، والأشياء الجميلة، الرقيقة، التى تبهج قلب كل فتاة، وكانت لفرط امتنانها لكرم أخلاقه تجاه

وحيدتها، تقول للناس، أنها لو كانت ابنته، بحق وخرجت من صلبه، فعلاً، ربما لم يكن ليعلمها بمثل هذه المعاملة اللينة، الودود وكلما مرت السنوات، على صفائها العائلى، دون ما يكدر قلوب الأسرة الصغيرة، ولمست بروحها، تنامى المشاعر المفعمة بالمحبة بين ابنتها وزوجها، أنشرح صدرها، وتعالى دعاؤها بطول العمر، وصلاح الحال للشيخ أبو المكارم، الذى ذهبت إليه فى سوق العطارين، فعمل لها حجاباً مسطوراً، ما زالت تضعه فى حرز أمين، بين ثيابها، لأنه جالب السعادة إلى قلبها، والوئام إلى بيتها.

الذى لم تعرفة الأم الضريرة، أبداً أن الوئام العائلى، كان يستمر وينمو، بفضل تمائم أخرى، غير تلك التميمة الحجاب الذى كتبه الشيخ أبو المكارم بقلم كوبيا، على ورق كراس، من كراريس وزارة المعارف العمومية، المصروفة مجاناً لأحد أبنائه، وهى التمائم، التى طالما سحر بها زوج الأم عشيقته الصبية، والمشكلة من ملابس داخلية، حريرية فاخرة لا ترتديها إلا ممثلات السينما عادة، ومشابك شعر عاجية مرصعة بفصوص من الماس الحقيقى، وجوارب رقيقة، مختلفة الأشكال، من الدانتيل والتول، لم يكن يجلب مثلها للأم أبداً، ناهيك عن ألعاب صغيرة، مسلية، يحضرها لاسترضاء الجانب الطفولى، فى الإبنة، الصغيرة، والذى لم يكن قد أشبع بما يكفى، نظراً للقفزة المبكرة، التى انتقلت بها إلى عالم المرأة الجديد، وقد تعلمت عزيزة، على ضوء نصائح العشيق الكبير، كيف تستطيع إخفاء تمائمها الغالية، بمهارة، دون أن تطولها يد أمها، أو تشعر بها، وربما كانت تلك الاشياء الصغيرة، المخفية، هى المبعث الوحيد للشعور بالخطيئة، الذى استشعرته عزيزة، بعد ذلك، تجاه أمها، فقد ظلت تشعر بتأنيب الضمير، حتى بعد أن ماتت هذه الأم، لأنها ما كان يتوجب عليها، أن تخفى عنها، مثل هذه الأشياء البسيطة، التى لم يكن ما يضير لو أنها شاركتها فى الفرح بها، والتمتع بمباهجها الصغيرة، لكنها بعدما كانت تتألم، بما يكفى، تلتمس لنفسها الأعذار، إذ كانت ما تزال صغيرة، تخاف ذلك الرجل،

القوي، الجميل، الذى لا تملك إلا الامتثال لأوامره ونواهيه.

استطاعت عزيزة، وعلى مدى تلك العلاقة، الطويلة، الممتدة، مع زوج أمها، أن تتخطى كل المصاعب والعثرات التى يمكن أن تعترض عشقاً محرماً من هذا النوع، فقد حصّنت نفسها، تحصيناً فطرياً، نابعاً منها، ضد كل سهام العشق، الخارجية، المصوبة إلى قلبها، والتى فاجأتها، وحاصرتها مراراً، منذ بداية تفتحها، بعد يوم القلقاس، كأنثى ناضرة، مشتهاة، فى مدينة طالما فتحت ذراعيها للعشق، منذ اليوم الذى ولدت به، فى أحضان البحر، داخلة إلى الدنيا من بوابته الزرقاء، على طول المدى، باعتبارها ومنذ نضوجها المبكر كجنية طالعة من البحر، واحدة من بنات المدينة المشار اليهن بالبنان، إذ تعاقب طالبوها من الشبان اليافعين، الحالمين بالعشق، ومن الرجال القادرين على دفع ثمنه، تحت مظلة ترتضيها كل الأطراف، وعقد مرهون إستمراره، بوفاء كل طرف من أطرافه بما ألزم به من سنة الله ورسوله، وعلى رؤوس الأشهاد، فعزيزة لا تذهب إلى مكان، بصحبة أمها، كزيارة أقرباء، أو أصدقاء، لها، فى المدينة، إلا ويكون هناك خاطب فى انتظارها، تسعى أمه، أو أخته، لمفاتحة أمها فى أمر زواج ابنتها منه، وإذا ما تصادف وخرجتا للتمشى فى الأمسيات الصيفية، الحارة، بالقرب من شاطىء البحر، فإن الخطوات الراغبة فى التقرب منها، والنظرات الناعسة، الهائمة بالإعجاب، تلاحقها وتتبعها، لكن عزيزة، كانت تواجه ذلك، بإحكام إيصاد باب القلب، وكأن ذلك العشيق، زوج الأم قد سلسله بحبال سرية، غير مرئية للآخرين، تمتد بينه وبينها فتعود إليه رغم كل الملاحقات والإغراءات، وكأنها محصنة، بفعل عقار سحرى غامض، ضد كل رغبات ليالى الصيف المحمومة، وإغواءات أمواج البحر المتلاطمة، التى تبذر بأصواتها الصاخبة حيناً، والناعمة حيناً آخر، بذور العشق النارية بين المحبين.

مرة واحدة، كادت عزيزة أن تقع فى شباك هوى رجل آخر، فقد ذهبت

ذات يوم، لتصحب أمها، إلى سوق الذهب بالمدينة، لشراء سلاسل ذهبية بدلايات، من الأحجار الثمينة، وبعدما طافتا فترة من الوقت، على المحلات والدكاكين، دون أن تستقرا على شيء بعينه، يعجبهما إلى حد شرائه، توقفتا عند محل كان يعرض مشغولات ذهبية جميلة، مرصعة بجواهر ودرر، على نحو خاص بديع، وبينما أخذت عزيزة تتفحص المعروضات، وتصف لأمها كل قطعة منها لتتخيلها وتبدى رأيها فيها، لمحت من خلال نافذة المحل الزجاجية، الموضوعة فيها المعروضات شاباً يقف خلف ميزان الذهب الحساس، يتناقش وعجوز جالسة أمامه، حول سوار ذهبى موضوع على الميزان؛ تأملت عزيزة الشاب للحظة، كانت كافية لأن يحط طائر العشق المجنون على روحها، ليخطف قلبها، الذى أخذ يخفق خفقاناً سريعاً، فتبعته، ساحبة أمها إلى داخل المحل، إذ أدركت أنها واقعة لا محالة فى غرام ذلك الفارع ذى الوجه الآسر، الواقف أمامها، إذ أنه كان من ذلك النوع من الرجال، الذى يمكن أن تعشقه أعداد لا حصر لها من النساء، إذا ما سنحت لهن الفرصة، ودون أى جهد يبذل من جانبه فى سبيل استمالتهن وعندما بدأت فى مطالبته بقطع ذهبية وسلاسل، لتجربها فى جيدها، وترى مدى ملاءمتها لشكلها، ظلت تتأمل كل قطعة بهدوء مصطنع، واصفة لأمها، كل قطعة يعرضها عليها، وتسأله عن مدى ملاءمتها لها وتتباطأ على نحو لم تجد أمها له تفسيراً، حتى عيل صبرها، لأنها انتظرت أكثر من نصف ساعة، دون أن يستقر رأى ابنتها على شراء شيء، فقالت لها بضيق، إنها دائماً لا يعجبها العجب، ولا حتى الصيام فى شهر رجب، لكن الفتاة، التى كانت لم تتجاوز آنذاك السادسة عشرة من عمرها، والتى لم تكن بعد، قد عرفت كيف تفتتح تجربة عشق، وقفت حائرة، لا تدرى ما تفعله، دون أن تعير لنفاذ صبر أمها انتباهاً، لكنها أخيراً وجدت الفرصة المواتية، إذ اقترح عليها مغناطيس الغرام الواقف أمامها، عقداً ذهبياً، كان رائعاً حقاً، إذ صنع بدقة وجمال متسريان، من

عهود المهارات اليدوية القديمة، على هيئة حية رصع رأسها الصغير، بفصوص دقيقة من الياقوت الأحمر الأصلى، وبينما اقترب منها ليساعدها على وضعه، حول جيدها الحريرى السامق، ويحكم القفل الذهبى الصغير، بما تستوجبه كياسة تاجر خبير، استقرت نظرات عزيزة فى نظراته طويلاً، من خلال المرآة الكبيرة المثبتة على الحائط أمامهما، وبينما كان رأس الحية الملتمع بأشعة خفيفة متكسرة، قد استقر بالقرب من فتحة صدر ثوبها، الصيفى الأزرق، الفاتح، طوحت برأسها قليلاً إلى الوراء حتى مست كتفه، وشعرت بسخونة الدم المتدفق سريعاً إلى وجهه الملوح بشمس الصيف السكندرى، فهبطت روحها إلى ركبتيها.

زفرت الأم من ذلك الصمت المبهم، وأعادت مجدداً إعلانها عن مللها الانتظار، وأن على الأبنة أن تقرر ابتياع شىء وإلا فعليهما الذهاب ومغادرة المحل، لكن الفتاة المغرمة، أعلنت بصوت رقيق ذائب فى العشق، أنها أحبت تلك الحية، فقال صاحبها أن قفلها بحاجة إلى إصلاح ويمكن أن تعود لتأخذها بعد يومين.

عادت عزيزة بعد يومين من الهيام، المجنون، بصاحب الحية الذهبية، إلى دكانه فى الصاغة وبمجرد أن رأته، وتصاعد نشاطها القلبى إلى ذروته، بادرها فوراً بمفاجأة وقعت عليها كالصاعقة، لتدخل الحادثة كلها، وبسرعة مدهشة إلى حيز الذكريات، فقد أخبرها، إذ كانا منفردين فى المحل، خلال ذلك الوقت الصباحى المبكر، من اليوم، لأن زبوناته المعتادات من نساء الطبقات الميسورة، المدجنات كن ما زلن يتقلبن بأجسادهن السمينة الرخوة فى أسرتهن الوثيرة، أخبرها، أنه أعجب بها إعجاباً لا حد له، منذ أن رآها واقفة أمام محله فى المرة الأولى، وأن إعجابه تزايد بعد أن دخلت وتحادث معها، وأنه سأل عن أهلها، وعرف مدى أصالتهم وطيبة سمعتهم، لذلك فقد قرر الزواج منها، علماً بأنه تاجر ذهب أباً عن جد، وعائلته ميسورة جداً، ولسوف يتقدم لها إن شاءت فى مساء اليوم

ذاته، مصطحباً معه أبيه وأخيه الأكبر وعمه، الذى لا يتم أى إتفاق إلا بموافقته باعتباره كبير العائلة وعميدها.

كلما خلت عزيزة لحالها، فى تلك الزنزانة الإنفرادية الكبيرة، التى خصصتها لها إدارة السجن، تحسباً لتهورها، واعتدائها على واحدة من السجينات إن هى احتكت بها، لو بقيت فى عنبر مشترك مع بعضهن راحت تسرد فى مخيلتها شريط حياتها الغريبة، الشبيهة بشريط سينمائى طويل، وتجسد أمام ناظريها، الأشخاص الذين عرفتهم وألقت بهم الأقدار فى طريقها، كانت عزيزة تشعر بالضيق والحرج، أمام نفسها، بل كان يتملكها شعور طاغ بالخجل، كلما تذكرت تلك اللحظات، التى وقفت خلالها تستمع لعرض الزواج الوحيد، الذى كان يمكن أن تتهور وتقبله فتندم على ذلك ما تبقى لها من عمر.

كان شعورها بالخجل والخزى كلما تذكرت تلك الواقعة، يجعلها تعض على شفتيها طويلاً حتى تؤلماها، وتشعر أنهما على وشك أن تدميا، وكان مبعث ذلك الشعور هو أنها سمحت لنفسها بالتدني والخيانة، وتجاوز ما لا يجب أن تتجاوزه من حدود، لعالمها السرى، وعشقها الفريد، إن وجدت أن الوقوع فى غرام رجل آخر إلى حد استماعها بأذنيها لعرض زواج وحيد، والانشغال بالتفكير فى ذلك الغرام لمدة يومين، بعيداً عن عشقها الأبدى الفريد، هو قمة الخيانة تجاه نفسها، وتجاه عالمها الأثير.

بعد أن عادت إلى البيت بعد لقاءها السريع مع ذلك الغرام السحابة، لم تكن تفكر فى العاشق الآخر الذى كان جالساً آنذاك فى ديوانه الحكومى، يمهر الأوراق بيده اليسرى، التى يتعامل بها دوماً.

حيث كان يعمل موظفاً كبيراً فى ذلك الديوان، ولا فكرت فى أمها التى تبرمت من عودة ابنتها خالية الوفاض دون أن تشترى الحية الذهبية ذات الرأس الياقوتية، وقد أيقنت يومها تماماً من مشكلة ابنتها الشابة المزمنة، الدائمة، وهى التردد، وعدم الحسم فى أية خطوة تخطوها حتى لو كانت

تتعلق بأمر بسيط، كشراء قطعة من الحلى الذهبية لكن عزيزة، كانت تفكر فى أمر واحد فقط، وهو أنها ظلت تنسج طوال اليومين التاليين للقائها بتاجر الذهب، قصة عشق أسطورية معه، عشق طويل المدى، تتخلله آلام وعذابات بسبب نيتها البوح له بسرها الغرامى مع زوج أمها، وقد ظلت لساعات طويلة، جالسة، تحت شباك غرفتها، المطل على الحديقة تتأمل شجرة النرجس، بزهورها البيضاء العبقة، برائحة عطرية رائعة وتجسد فى خيالها، حال ذلك الحبيب، الواقع حتى أخمص قدميه فى الغرام، عندما يلم بمعالم وتفاصيل تلك العلاقة المحرمة، فتراه يسقط منهاراً مرة، ساعياً إلى قتل نفسه والانتحار، وتراه فى صورة أخرى يهدد بقتل الرجل الذئب، وكانت قمة نشوتها المتخيلة، لحظة أن يقوم بقتلها ثم قتل نفسه، على الفور، ليسقطا صريعين إلى جوار بعضهما البعض، فتختلط دماؤهما، اختلاطاً أبدياً، كدليل على اختلاط روحيهما وامتزاجهما بعد الموت.

حين تتذكر عزيزة، فى زانزانتها، ذلك الماضى البعيد، حيث كانت تختلق كثيراً لأمها، ذرائع عديدة، لترفض أولئك المتقدمين للزواج منها، مثلما تذرعت لتاجر الذهب، بأنها مخطوبة، لقريب لها، عندما عرض عليها الزواج، فقد كانت تضع كل الحجج والعقبات، لرفض خُطابها، فهذا قبيح، وهذا كبير السن، وذاك لا يتناسب مع أسرتها، من الناحية الاجتماعية، وفى إحدى المرات، عندما تقدم لها شاب لا يمكن رفضه، لأنه كان ملائماً لها من الناحية النظرية على الأقل كزوج، مثالى، ربما لا تجد مثله مرة أخرى، تذرعت لأمها التى ظلت تلح عليها لتقبله، بأنها عرفت من جارة لها أنه شاذ جنسياً، غير سوى فى علاقته بالنساء، وقد فوجئت الأم، بعد مرور وقت قصير على هذا التصريح من ابنتها بأن الجارة الصغيرة التى كانت صديقة لابنتها تتزوجه فى عرس كبير ظلت المدينة تتحدث عنه لعدة أيام.

ولطالما اشترك الزوج العاشق فى إقناع الأم، برفض الرجال المتقدمين لابنتها الوحيدة، فقد كان يقول بضيق وتبرم، كلما فاتحته فى أمر عريس متقدم للزواج من ابنتها، أن لا ضرورة، ولا داع، للتعجل فى تزويجها، لأنها ما زالت صبية صغيرة، لم يفتها قطار الزواج، ثم أنها جميلة، ذلك الجمال الذى يزداد بمرور الأيام، مما يجعل فرصتها فى الارتباط، بإنسان ممتاز الصفات والامكانيات، واردة مع التأنى والانتظار ثم أنه يراها كالجوهرة النادرة النفيسة التى قلما يجود الزمان بمثلها فلماذا التعجل فى التفريط بها، وهى وردة البيت ومبعث الأنس والسعادة فيه وعند هذا الحد من الكلام كانت عزيزة تشاركه الرأى، وتقول أن أمها تريد تزويجها للتخلص منها، وليروق بالها لذلك فهى تريد أن تزوجها بأى طريقة والسلام فتقسم الأم بأنها لا ترغب فى تزويجها إلا للاطمئنان عليها وعلى مستقبلها، وأنها لو خيرت لأختارت أن تبقى، مهجة قلبها إلى جانبها طوال العمر.

لسنوات طويلة، بعد دخولها السجن، ظلت عزيزة لا تنس التفاصيل الصغيرة، لحياتها الغريبة، بذاكرة مدهشة فى قوتها، لا تضارعها، إلا دقة ذاكرة سمك الثعابين النيلى العارف بتفاصيل رحلته إلى المحيط الأطلسى، للتكاثر ووضع البيض لكن، بمرور الوقت أخذت تفاصيل كثيرة تسقط من نسيج الذاكرة التى أخذ يبليها الزمن، فهى لم تعد متيقنة، تماماً من شكل السكين الذى استخدمته فى القتل بل ومن لون مقبضه، وهل كان بنياً مصنوعاً من خشب الكافور أم أسود من مادة الفيبر، الأكثر من هذا أنها لم تعد تذكر، ماذ شربت مع ذلك الزوج المعشوق، فى تلك الليلة الشتوية العاصفة، من أيام النوة الكبرى، بينما كانت السماء تدر ماءها على المدينة المنكمشة على نفسها، فى هذا الوقت من السنة، والبحر يلطم شواطئها بأمواجه الهائجة المجنونة، هل كان النبيذ القديم، المعتق الذى جلبه بناء على رغبتها من عند كوستا، اليونانى، العجوز، الذى كان يصنعه، ويعتقه، بنفسه، ولا يبيعه إلا لقلة من زبائن محله الأثيرين، العارفين بقيمة الخمر،

ومذاقه البديع؟ أم كان ذلك النوع من الروم القوى الذى يبعث تيارات من الدفء المتواصل فى الجسد فى ليلة باردة كتلك الليلة البعيدة؟ لكن رغم ضياع تفاصيل من هذا النوع، وتفاصيل أخرى عديدة، طالما تشبثت بها عزيزة وخبأتها فى عمق الذاكرة، إلا أنها لم تنس أبداً، الحديث الذى دار بينهما، فى تلك الليلة، وقرارها الهادىء بقتله، الذى اتخذته فى التو، بعد سماعها لكلامه، وهو القتل الذى نفذته بعد ذلك بأيام قليلة.

بينما هما جالسان، يشربان كما يحدث لهما بين الحين والحين، بعد أن كانت أمها قد غادرت الدنيا منذ شهور معدودة، إثر إصابتها بحمى شوكية مفاجئة لم تصبها بأى عاهة مستديمة كالطرش أو العمى لأنها كانت عمياء بالفعل بل قضت عليها ولم تمهلها إلا ثلاثة أيام فى الحياة، وذلك بعد أن اختلطت اعراضها على الطبيب وظن أنها أعراض انفلونزا شائعة، يصاب بها الناس فى نهاية فصل الصيف وبداية الخريف.

بينما هما جالسان، يتحادثان فى أحوالهما، صارحها، بعد مقدمات طويلة أنه ينوى الزواج مرة أخرى، لأنه لا يستطيع أن يظل معها، تحت سقف واحد دون زواج أمام الناس، حتى لا تثار حولهما الأقاويل، ويصبحان نهباً للشائعات، لكن عزيزة، كانت مدركة تماماً للكذبة، ولتذرعه بثرثرة الآخرين وهذه لم تكن بالنسبة لها أكثر من حجة مكشوفة، تشبه واحدة من حججها العديدة، التى طالما اثارتها فى الماضى، بوجه أمها عندما كانت تلح عليها وتطالبها بالزواج فقد كانت تعرف حقيقة عشقه الجديد، وغرامه الذى وقع فيه ولم يعد قادراً على إخفائه، رغم الجهد الكبير، الذى يبذله فى سبيل ذلك، إلى إن بوصلتها الفطرية الكامنة بداخلها، لاكتشاف الجهة الموجة لها العشق والهيام كانت قد بصرتها بغرامه المشبوب، بنادرة إبنه صديقه الأثير عفت شاهين أحد أساطين صناعة العطور فى المدينة كانت. عزيزة تغار من نادرة غيرة لا حد لها، قائمة على أساس متين هو الذى جعل نادرة موضع غيرة نساء عديدات ،

غير عزيزة، لأنها تنتمى إلى ذلك النوع من النساء الذى يتعامل مع الحياة. باعتبارها لعبة كبرى، كل شىء فيها قابل للمغامرة والتجريب، والاكتشاف إبتداء من ارتداء بنطال الهيلانكا الضيق الذى كانت تسير به، عارضة مفاتنها فى شوارع المدينة، بأعتبارها من النساء القلائل اللواتى غامرن بارتدائه عند بداية ظهوره كأحدث صيحة فى عالم الأزياء العصرية وكذلك الرقص بطوق الهولاهوب، الذى كانت نادرة أول فتاة ترقص به فى مكان عام بالمدينة فلقد رقصت به فى نادى سبورتنج حيث تحلق حولها كم هائل من الشبان، بين معجب ومستنكر، والتقطت لها عدة صور، تباين الغرض منها بين الفضيحة والامتنان، وانتهاء بالدخول فى علاقات متكررة مع شبان ورجال كان اصغرهم يقل عمره عن عمرها تسع سنوات وأكبرهم زوج أم عزيزة الذى كان عمره ضعف عمرها عندما وقع فى غرامها وقد كانت نادرة من أولئك الذين ساهموا فى ساعات الاستماع لأغانى عبد الحليم حافظ، وفايزة أحمد اللذين لم يكونا قد اشتهرا بما يكفى آنذاك إذ كانت فرائسها الغرامية المحبطة كثيراً ما تجد عزاءها فى الاستماع إلى هذين المغنيين المعبرين بأدائهما الدافىء الصادق عن أرق مشاعر الحب والحنين التى يكنها كل عاشق لمعشوقه الأثير.

ومنذ أن حلمت عزيزة بنادرة ذات يوم من الأيام الخوالى فى ذلك الزمن القديم، أيقنت أن نهاية عشقها، السرى، المجنون، لزوج أمها، سوف تأتى عما قريب إذ رأت عزيزة نادرة، فى الحلم، تأتى اليها ضاحكة باشة الوجه بينما كانت ممددة على سريرها، لا تقوى على الحركة كما لو كانت جثة ميتة بالفعل، ثم أخذت تكفنها بقماش من الحرير الوردى الجميل، وتضع على رأسها أكليلاً من الشوك، آمرة أربعة من الرجال الطوال المسربلين بأردية سوداء طويلة، أن يحملوا عزيزة، بسريرها، ليلقونها فى البحر، عندئذ قامت عزيزة، صارخة فزعة من شدة الرعب والضيق، وبقيت فى سريرها، حتى مطلع فجر ذلك الليل، الذى داهمها فيه هذا الكابوس، تفكر

فى مغزاه، وفى نادرة مسترجعة تفاصيل العلاقة التى ربطتها بها، بعد وفاة أمها فلقد جاء عفت شاهين مع ابنته وأمها للعزاء وسرعان ما صادقتها نادرة صداقة شديدة، وأحاطتها برعايتها وحنانها كما لو كانت أختاً كبرى لها، وقد انجذبت عزيزة إلى نادرة بسبب بساطتها وسلاستها فى التعامل معها إضافة إلى قدرتها على تجنب أية مواطن لعدم الانسجام، تسارع النساء بتخليقها عادة فيما بينهن لإيجاد الذرائع المسببة لعدم إستمرار علاقات الصداقة بينهن، وهو الأمر الطبيعى المترتب على سنوات طويلة من غياب كينونتهن الإنسانية نظراً لعوالمهن التابعة لعالم الرجال، لكن نادرة كانت لا تفتأ، تشن على جمال عزيزة ورقتها خصوصاً، خلال مساءات الملل العائلى التى باتت تتكرر كثيراً ويجرى مواجهتها بلعب الورق إذ تتجمع أسرة عفت شاهين، والأسرة الحزينة بسبب فراق الأم لكن نادرة تمكنت فى النهاية من هدم ما بنته من وشائج مودة وصداقة جميلة بينها وبين عزيزة، لأنها دخلت منطقة قدس، الأقداس، المحرمة بل، وحرقت أقانيم العشق المبجلة، فى ذلك البيت المنزوى القديم الذى عاش كل ركن من أركانه تفصيلة من تفاصيل العشق، الذى نمت عزيزة وترعرعت فى كنفه ولم تعرف فى الدنيا عشقاً سواه، والذى طالما حفظت سره باحتراس، وحذر، فلم يفطن له حتى أقرب المقربين اليها بل وكان كل الناس، من أهل وأقارب وأصدقاء، يرون فى علاقتها المثالية، الظاهرة، لهم بزوج أمها، نموذجاً فريداً للسلام، والصفاء الإنسانى، والأبوة الممكنة لأبناء لا يخرجون من الصلب بالضرورة، وكانت عزيزة قد اعتادت أن تعايش الدورين بمهارة، حتى وكأنها خلقت لهما بالأصل، وهما دورا، الإبنة البارة بوالدها، المفترض، وأمها الضريرة الطيبة والعشيقة الفاتنة الغارقة حتى أدق ذرة فى خلاياها فى بحار العشق الواسعة، والأكثر من ذلك أنها ظلت طوال حياتها، وحتى بعد أن دخلت السجن، وباتت تجلس فى الزنزانة، كما تفعل الآن لم تشعر أبداً بغرابة الدورين،

وتناقضهما، بل إنها لم تجد في أي وقت من الأوقات أدنى غضاضة في أن تشترك وأمها في رجل واحد، إذ كانت تحب أمها حباً كثيراً، وتحنو عليها حين تساعدها على ارتداء ملابسها، وتصفيف شعرها بل كانت تختار لها بنفسها أجمل الملابس المناسبة للون بشرتها وطبيعة جسدها الذي يميل للامتلاء بعض الشيء، وظلت حتى آخر وقت في حياتها، تختار لها تسريحات الشعر العصرية، حتى أنها نصحتها بقصة الآجارسون وكانت لا تتكاسل عن اصطحابها إلى أشهر حلاق نسائي في المدينة بين فترة وأخرى، بعد أن أقنعتها أن زمن الضفائر قد أنتهى، وأن لوجهها جمالاً طاغياً بتلك التسريحات الجميلة الجديدة.

كذلك، لم تشعر عزيزة بنفور قط، من ذلك الذي اغتصبها، في ذلك الزمن البعيد، بل كانت الأيام وتراكمها الدائم، تزيدها اقتراباً منه، وتعلقاً به، وهي التي اعتادت عليه منذ أن كانت طفلة صغيرة بإعتباره الراعي لشؤونها والمهتم بها، الذي يحرص على تحميمها بالصابون النابلسي المصنوع من زيت الزيتون، لأن رغاويه قليلة، لا تضايقها في عينيها، كما كان يمشط شعرها، واضعاً فيه الشرائط الملونة، الجميلة، المتلائمة الألوان، مع ما ترتديه من ثياب، أنيقة، حرص على شرائها من أرقى محلات أزياء الأطفال بالمدينة، وقبل أن يواقعها في ذلك اليوم الذي لا تنساه أبداً، كانت قد اعتادت النوم في حضنه لفترات طويلة، وهو يحكي لها القصص والحكايات، وتأخذ أصابعها، الدودية، الرفيعة في تحسس ذقنه الخشنة غير الحليقة.

ستظل نادرة المرأة الوحيدة، التي كرهتها، وستكرهها عزيزة طوال حياتها، لأن نادرة برأيها، هي اللصة الزانية الكاذبة القاتلة لها، هادمة اللذات، بل أنها العاصفة، التي اجتاحت بشرها أعمدة السعادة السبعة التي ظلت تستند إليها عزيزة دوماً فلقد خطفت منها الزوج، والعشيق والحبيب والأخ والإبن والصديق وانتزعتها دونما ضمير أو رحمة من

الماضى، والحاضر، والمستقبل.

كانت نادرة أقل جمالاً من عزيزة بكل المقاييس فملامحها أقل تناسقاً وإتزاناً، مثل جسدها، الذى كان يعيبه اتساع كتفيها وارتفاع خصرها بعض الشىء، لكنها كانت ذات شخصية قوية، ناعمة، وقدرة على التأنق وإبراز كل ما هو جميل فيها، وإخفاء ما عداه من مواطن ضعف حُسنى، بحيث تبدو، فى النهاية، لكل من يراها وكأنها فاتنة تتألق أنوثة وفتنة، مما يثير الرغبة فى الرجل لامتلاكها، لا لشىء إلا لإنتزاعها من كل الرجال الآخرين، أولاً، وقبل أى شىء آخر وقد ساعد نادرة على تميزها، وقوة حضورها، الشخصى حصولها على قدر لا بأس به من التعليم إذا أنها التحقت بالجامعة لبعض الوقت، لكن الدراسة لم تستهوها كثيراً، فتركتها، على أمل أن تتعلم الرسم، وذلك على عكس عزيزة، التى أنهت دراستها الأولية بالكاد، وكانت محدودة الخبرة بالحياة، والمعارف الدينوية المكتسبة، لعزلتها الدائمة، فى ذلك البيت الواسع، مع أمها الضريرة، وغياب أشقاء لها تشاركهم تفاصيل يومية، لم يتسن لها معرفتها أبداً.

ولطالما لاحظت عزيزة الانطباع -الذى تحدثه نادرة، عند دخولها، أو وجودها، فى مكان من الأماكن فتشعر بالغيرة، والضيق، عندما يخصها الناس بالاهتمام والحديث دونها، أو يغير الرجال من زوايا جلوسهم للاستماع إليها، غير أن نادرة، كانت تتميز بذكاء ولباقة، فتمتص ما تعانيه عزيزة من ضيق، وتظل تمتدحها، على نحو لا يشوبه افتعال وتدير دفة الحديث بحيث يوجه جانب منه فى اتجاهها، لكنها فى أحد الأيام، اكتشفت عزيزة أن معشوقها واقع فى غرام تلك السمراء، اللطيفة، لأنها شعرت بأنه يلعب معها دوراً أبعد من دور المضيف الكريم، إذ كانوا ساهرين ذات ليلة فى البيت يلعبون الورق.

فظل العشيق الأرمل حريصا على تقديم الطعام لنادرة بنفسه متابعا لكل حركة من حركاتها المدروسة بدقة، للتعبير عن أنوثتها، بينما كان

يستمع بآذان كربونية حساسة الى كل ما تقوله، ويبادلها الكلام الذى شاركت فيه النظرات المتيمة بالغرام أيضا.

ظنت عزيزة، بعد ذلك، أن نادرة سوف تكون كسحابة صيف، عابرة فى سماء علاقتها، الصافية بزوج أمها ككل تلك السحابات، التى عبرت، ومرت من قبل طوال علاقته الطويلة بها، والتى شاركت فيها راقصات فى ملاهى، ومحلات المدينة، الليلية، وسيدة إيطالية جميلة، طالما نسى صورها، مبعثرة، ضمن أوراقه، على مكتبه بالبيت، وكانت تمنحه هدايا وتذكارات عديدة، ولم تعرف عزيزة أبداً أنه منحها بدوره طفلاً صغيراً، أخذته بعد تأميم مصنع أدوات التجميل، الذى كانت تعمل به وغادرت البلاد لكن ظنها خاب فى اللحظة التى فاتحها فيها برغبته فى الزواج من نادرة، رغم أنه كان قد صار على مشارف الستين من عمره تقريباً، وما كانت تظن هى، أبداً أنه يفكر فى الزواج، مرة أخرى لكن، احتفاظه بوسامته القديمة وقلة التجاعيد فى وجهه، التى لا تفصح عن عمره الحقيقى ربما كانت من العوامل التى شجعته على التفكير والإقدام على خطوة من هذا النوع، وخصوصاً أن نادرة، كانت تبدو له كفرصة سانحة لا تعوض، وعندما أيقنت أنه جاد فيما انتوى عليه، إذ أخذ فى اقناعها أن ذلك أفضل لها وله، وبدأ يناقشها فى التفاصيل العملية، لتلك الزيجة التى ينتويها، خصوصاً فيما يتعلق بالبيت وحجراته، ظلت عزيزة تحملق فيه، وهى تفكر فى الطريقة الملائمة لقتله، دون أن يطرف لها رمش.

كانت أعراض الجنون قد أخذت فى الظهور على عزيزة، شيئاً فشيئاً بعد سنوات قليلة من دخولها السجن، ففى بداية الأمر، شوهدت وهى تحادث نفسها بين الحين، والحين، بكلمات غير مفهومة المعنى لمن تسمعها من السجينات وهى الكلمات، اليونانية، القليلة التى كانت قد عرفتها من أم زخارى، جارتهم القبرصية، فى الشارع، الذى كان يقع فيه بيتهم، ثم لوحظ عليها بعد ذلك، أنها حطت كثيراً من شموخها، وترفعها، المعتاد فى

تعاملها مع كل اللواتي يتعاملن معها في السجن، بما في ذلك السجانات أنفسهن، اللواتي يتعاملن معها بتحفظ، أكثر، لأنها ظلت حريصة، دائماً، على ألا تضع نفسها في موضع يعرض كرامتها للإهانة منهن، بأي حال من الأحوال، ثم أنها أخذت توزع ملابسها، على كل من يحتاج، محتفظة بأقل القليل منها لنفسها، ثم أخيراً بدأت تضرب كل من تضايقها، أو تتعرض لها من السجينات، وكادت أن تضرب، ذات مرة، محروسة السجانة التي أوشكت على ضربها ضرباً شديداً، يمكن أن يجعلها ترقد على إثره ممددة كالجثة في فراشها، إلا أن طيبة قلب محروسة، وتذكرها لأن عزيزة أعطتها قميصاً داخلياً مصنوعاً من الدانتيل الأسود الفاخر، قبل ذلك بيومين، جعلاها تتراجع، وتأخذها إلى زنزانتها بالتحايل، واللين، لتهدأ، وتستريح لكنها، ذات يوم، عضت لولا القوادة، عضاً شديداً، بعد أن هجمت عليها، لأن لولا التقتها في دهليز السجن، وقالت لها أنها، كان يجب أن تلقاها خارج السجن قبل ذلك بعشر سنوات، ليصبح لها معها شأن آخر، أخيراً قررت إدارة السجن عرضها على الأطباء المتخصصين في الأمراض النفسية، والعصبية، بعد أن فشلت معها كل طرق العقاب، الممكنة، داخل السجن، دون أن ترتدع أو ترعوي، لكنها بدت في حضرة الطبيبين الشابين اللذين حضرا لمعاينة حالتها، وكتابة تقرير عنها، هادئة، رقيقة، تتحدث بثقة أميرة، من أميرات الأسرة العلوية المخلوعة، وبأسلوب متحضر يفصح مع مظهرها الراقي، عن حقيقة انتمائها الإجتماعي، مما جعلها موضع تقدير، واحترام، منهما، فقررا، في النهاية، وبعد حوار طويل أجرياه معها، أنها ليست مجنونة، على الإطلاق إلا أن قرارهما هذا ربما كان بالقياس إلى كمية الجنون التي طالما صادفاها، في حياتهما المهنية، بعيداً عن السجن.

لذلك، اكتفت إدارة السجن بعزل عزيزة، في زنزانة إنفرادية، داخل مستشفاه، بجوار عنبر الضعفاء والعجزة، وربما كان ذلك أسعد، وأجمل،

قرار أتخذ تجاهها، منذ أن حكم عليها بالسجن المؤبد، بعد أن قتلت زوج أمها، فقد أتيح لها، ولأول مرة منذ زمن طويل، تمضية أمسيات، طويلة، هادئة، تخلو فيها إلى نفسها، دون أى إزعاج، من أحد، يشاركها المكان، مثلما يحدث عادة فى العنابر المشتركة، وباتت تستطيع السهر، وحيدة، تتطلع إلى النجوم لأوقات طويلة، دون أن يطالبها أحد بأغلاق النوافذ الخشبية، لمنع تسلل القطط الضالة، والحشرات إلى العنبر، وها هى تمضى الليالى، تفكر بصفاء ودقة فى كل، أولئك اللواتى سوف تأخذهن معها، فى عربتها الذهبية الجميلة، ذات الأفراس البيضاء المجنحة، الصاعدة إلى السماء، واللاتى تحرص أن يكن من أفضل وأنبل نساء السجن، بل اللواتى هن، فى الحقيقة، ملائكة، بلا أجنحة، ضللن طريقهن إلى السماء، فجئن إلى هذا الموضع الموحش الكئيب، الذى ستصعد بهن منه، معيدة إياهن إلى موضعهن السماوى اللائق بهن، بواسطة تلك العربة، الرائعة، التى تفوق روعتها روعة عربة الملك فاروق، التى رأتها، ذات مرة، بأم عينها تجرى فى شوارع المدينة، عند الصباح، آتية من قصره البحرى فى المنتزة، وها هى تجلس الآن بعد أن فكرت كثيراً فى أمر أم رجب، فتقرر ضمها إلى الركب الملائكى الصاعد إلى السماء.

لم تكن عزيزة لترتاح قبل ذلك لأم رجب أبداً، فهى بنظرها السوقية المجسدة، والنصب، والاحتيال، بعينهما، إذا وقفا على أقدام ومنذ اليوم الأول الذى جاءت فيه أم رجب إلى السجن، محكومة بثلاث سنوات، بعد إثبات تهمة النشل عليها، كانت عزيزة تتجنب الاحتكاك بها، أو التعامل معها، لأنها كانت تكره منظرها الشيطانى، بوجهها العجوز الصغير، الذى رتعت فى كل موضع من جلده، التجاعيد الكثيرة، الدقيقة، وشعرها الأحمر، الأقرب للبرتقالى الفاتح، لكثرة صباغته بالحناء، والذى كان كثيفاً مجعداً منكوشاً، دائماً، بحيث يجعل رأسها يوحى، لمن يراه، بأن شعلة النار الأبدية قد أتخذته مستقراً لها، غير أن شعور عزيزة نحو هذا

الرأس، كان يأتي على نحو مختلف، غريب بعض الشيء، إذ كانت تشعر وكأنه شمامة صغيرة فاسدة، تعطنت قشرتها وباتت أكثر دكانة، وربما كان مصدر ذلك الشعور تلك الرائحة العطنة، الكريهة، الملازمة دوماً لأم رجب، والتي طالما اشتمتها عزيزة كلما مرت بجانبها، أو أقتربت منها، بالإضافة إلي ما لاحظته في أم رجب من نظرات حادة سريعة قلقة، لا تستقر أبداً، أشبه بنظرات ثعلب صغير، لم تستطع عزيزة أن تبلعها أو تستريح لها، أبداً، وقد كانت محقة في ذلك، لأنها كانت كتلك النظرات التي طالما تميز بها النشالون، دون سواهم من اللصوص، والتي دلت، أيضاً، إلي جانب أصابعها النحيلة للغاية، ويداها المعروقتان على كونها نشالة محترفة، طالما التقطت بمهارة وخفة، محافظ ونقوداً، وأشياء ثمينة، من أماكنها في جيوب، أو حقائب، الناس.

رغم أن أم رجب لم تكن سليلة أسرة نشالين محترفين، ورغم أنها لم تتلق طوال حياتها دروساً منظمة في النشل، إلا أنها كانت بارعة جداً، إلي ذلك الحد الذي جعلها تحترف النشل بسهولة، بعد أن طلقها زوجها، قبل انقضاء خمس شهور على زواجها فاضطرت لإعالة نفسها، بعد أن وضعت طفلة كانت قد حملتها منه، وأضطرت لمواجهة الحياة، بمفردها، والجري على لقمتها ولقمة ابنتها الصغيرة.

أما حكاية أم رجب، وهو الإسم الذي طلبت من جميع المسجونات مناداتها به، فكان مبعثها أنها كانت وما زالت تحلم بأن تكون أماً لطفل أخر ذكراً، تسميه رجب، وقد كانت هذه الأمنية، من الأمور القليلة، التي سعت إلي تحقيقها، في الحياة، قبل ذلك، خارج السجن، دون جدوى، إذ أنها حاولت الارتباط بأي رجل، آخر، يقبل الزواج بها مهما كانت ظروفه، ومهما بلغ فقره، وحاجته لكنها فشلت تماماً، حتى أنها ذات مرة استدرجت شحاذاً عجوزاً، كانت تراه يجوب الشوارع، زاحفاً على الأرض بسبب فقده لساقيه، دعته لأن تؤويه، في غرفتها الصغيرة، التي كانت تعيش فيها

مع ابنتها، ووافق الرجل، الذى كان بلا مأوى محدد فكان يبيت كيفما أتفق في الجوامع، أو عند بعض زملائه، من الشحاذين الميسورين، الذين يمتلكون مساكن تؤويهم مقابل أن يدفع لهم لأجل ذلك، وقد استبشرت أم رجب خيراً، بعد أن أنتقل الرجل إلى مسكنها، وشعرت أنها قاب قوسين أو أدنى من رجب، وكادت أن تفاتحه فى أمر الزواج، بعد أن أطمأنت لجانبه، وأغدقت عليه، فى حدود مستطاعها، مما كانت تجلبه، كل يوم من عمليات النشل، الذى برعت فيه إلى حد كبير، بسبب الظروف العامة المواتية، إذ كانت الحكومة قد عجزت عجزاً شبه تام، عن حل مشكلة المواصلات، بسبب سوء التخطيط الإدارى، وتكدس المدينة بسكانها الوافدين إليها، يوماً بعد يوم، من القرى، والمدن الصغيرة، المحرومة من معظم الخدمات الأساسية، مما أتاح الفرصة لأم رجب أن يتسع رزقها، ويكثر، فى ظل ذلك الإزدحام، وتكدس الناس فى المركبات العامة، والقطارات، وخصوصاً تلك القطارات التى تعمل بين مركز المدينة وضواحيها البعيدة، لكن أم رجب فوجئت، مفاجأة أذهلتها، إذ اكتشفت وجود صبى صغير ينام إلى جوار شحاذها العجوز، فى رضا، عندما عادت، ذات ليلة، متأخرة بعد يوم حافل بالنشاط النشلى، لأنة كان يوم وقفة عيد الفطر المبارك، وقد خرج معظم العاملين بالحكومة والقطاع العام، لشراء ملابس وأحذية جديدة لأفراد أسرهم، بعد أن حصلوا على منحه العيد، وقد أيقنت أم رجب على الفور، خيبة أملها المعقود، الذى كانت تعد له، للحصول على عزيز المنال رجب، عندئذ، وبدون أدنى مناقشة، طردته، شر طردة، من بيتها مسبوقاً بطفله الصغير، بعد أن جردته من أعز ما يملك، وهو چاكت نسائى كروازيه وطاقية من صوف الغنم، كانت قد اشترتهما خصيصاً لأجله، من بائع يبيع الملابس القديمة، دون أن تدرى بالطبع أن الچاكت مخصص للنساء، لأنه كان على طراز أوائل السبعينات، حيث شاع اسلوب الالبسة الرجالية فى أزياء النساء، ورغم توسلات الرجل لتتركه يبيت ليلته حتى الصباح، وتعهده

أن يدفع نصف الثمن الذى اشترت به الچاكت، إلا أنها رفضت رفضاً قاطعاً، ضاربة عرض الحائط، برغبة ابنتها، وطلبها، اللحوح، منها أن تترك الصبى يبيت ليلته معهما، حتى تلعب معه قليلاً.

ولعل فشل أم رجب فى تحقيق أمنيتها البسيطة المتواضعة، التى ترى عشرات النساء يحققنها كل يوم، هو الذى جعلها تشعر بعقدة نقص دائمة فى داخلها، وأن تظل، دائماً، مكسورة الخاطر، وذات قدرة فذة على تحويل أبسط العقبات إلى مصائب كبرى، كأن تنسى اللبن يفور على النار، أو يسقط من ابنتها كوب على الأرض، فتصرخ وتولول، كما لو أن ملمة كبرى قد ألمت بها، ثم أنها تحولت، بمرور الوقت، وبسبب رجب أيضاً، إلى انسانة حقود، ذات نزعة دونية تجاه الناس، وهى النزعة التى أهلتها لأن تكون جاسوسة، مثالية، للسجانات، اللواتى كانت تبالغ فى تملقهن والتودد إليهن، عبر إبلاغهن بكل تفصيلة تحدث فى عنابر النزيلات، سواء شاهدتها، أو سمعت بها، بل كانت لا تتورع عن الوشاية بأية سجينة تحاول مخالفة اللوائح الداخلية للسجن، كأن تحتفظ بمرآة أو ببعض من أدوات التجميل البسيطة، أو بأى من الملابس الملونة، التى تخفى، عادة، بعناية، وترتدى أثناء الليل، حيث لا تبقى إلا سجانة واحدة، أو اثنتين على الأكثر، تغطان فى نوم عميق، خلال هذه الأثناء، غير أن كل ذلك لم يتعارض مع أن أم رجب، كانت تقوم وكلما سنحت لها الفرصة بممارسة نشاطها، الذى جاءت بسببه إلى السجن، والذى طالما عرضها إلى مشكلات عندما كانت فى خارجة، أيضاً. وقد تصادمت معها عزيزة لأول مرة، عندما لمحتها تحاول سرقة بيضة مسلوقة، كانت قد وضعتها، إلى جانب بضعة زيتونات، على رغيف فوق إفريز الشباك، استعداداً لأن تفطر بهم، وكانت عندئذ تقف خارج الحجرة مادة يدها إليهما، عندما، أمسكت عزيزة بيدها، بينما كانت واقفة داخل الحجرة تغسل حبة طماطم، لتبلغ بها الأكل، وانقضت عليها، بعضة قوية، كادت أن تقتطع جزءاً من لحم

يدها، لولا صراخ أم رجب، الذى تجمعت على إثره عدة مسجونات، قمن بتخليص يدها من أسنان عزيزة، التى ظلت تسبّ وتشتم بغيظ، ثم بدلاً من أن تلتهم البيضة والزيتون بالرغيف، طوحت، بهم جميعاً، فى فناء السجن، لأنها أنفت من تناول طعام اشتهته أم رجب إلى حد السرقة، لكن عزيزة كانت تحمل سبباً أعمق من هذا، لكراهية أم رجب، فقد اكتشفت أنها تكاد أن تخاصم الماء والصابون، وربما كان ذلك سبب رائحتها الزنخة، الكريهة التى تهب على كل من يقترب منها، ورغم أن السجانات، كن يجبرن أم رجب على الاستحمام بين الحين والحين، إلا أن فطريات الصيف، كانت تنتعش، أكثر، عقب كل مرة تستحم فيها، فتتكاثر بين أصابع قدميها ويديها وتحت إبطيها، وبين ثنيات جلدها المتخضن، دالة على ازدهارها بتلك الرائحة التى لا تطاق.

لكن فى يوم مشهود، لم ير سجن النساء مثله، تغيرت رؤية عزيزة لأم رجب، تغيراً، يعادل رؤية جاليليو، لنظرية بطليموس فى دوران الشمس والأرض، فقد هبت عزيزة ذات يوم من قيلولتها المعتادة، على صراخ ونحيب أم رجب، التى كانت قد أخبرت للتو، من قبل إدارة السجن بوفاة ابنتها، بعد أن شب حريق هائل، فى البيت، الذى كانت ما تزال تقطن إحدى حجراته، والذى كان يؤجره صاحبه، كحجرات مشتركة أو منفردة لأولئك الذين لا يقوون على دفع إيجار سكن مستقل، من فقراء المدينة، وقد ظلت أم رجب تبكى وتندب ابنتها، التى راحت دون بناتها الثلاث، فى الحريق الذى شب بسبب انفجار أنبوبة غاز، كان صاحب عربة فشار، يقطن الحجرة المقابلة لها، يحاول ملئها، ففشل، وانفجرت لينتشر الغاز فى كل أرجاء البيت، ويشتعل.

كانت المحروقة واقفة بحجرتها تقلى باذنجاناً وبطاطس لبناتها اللواتى كن يلعبن، حتى ذلك الوقت من منتصف النهار، الحجلة فى الشارع، وقد كان شعور أم رجب بالمصيبة يتزايد، كلما تذكرت مصير هؤلاء البنات

الصغيرات، اللواتى كن قد فقدن أباهن، منذ شهور، بعد أن داهمته نوبة من نوبات مرض السكر، الذى كان مزمناً لديه، بعد أن تناول، بنهم، خارطتين كبيرتين من الكنافة.

لذلك ظلت أم رجب تلطم، وتصرخ، لساعات طويلة، وقد وانتها طاقة هائلة على ذلك، وانتفخ خداها الضامران، إنتفاخاً واضحاً، غارت خلفه فتحتا عينيها الضيقتين الشبيهتين بعيون الثعالب، ولما لم تعد قادرة على بذل المزيد، من مشاعر الغم والنكد، سقطت مغشياً عليها.

ظلت عزيزة تتابع، من مكانها، على فرشتها، بالزنزانة، معاناة أم رجب، وحزنها الذى شعرت بمدى عظمته، من كل ذلك النواح، واللطم والعديد، الذى كان يصل إليها، عبر الشباك المفتوح بزنزانتها، من عنبر العجزة، وقد تفتحت عينا عزيزة لأول مرة، على حقيقة كون أم رجب، أشد الناس الذين عرفتهم إبتئاساً، ومسكنة، وأنها امرأة أكلها الغلب، من كل جانب، فها هى لا تستطيع حتى أن ترى أبنتها، عندما ماتت، ولا أن تودعها الوداع الأخير إلى قبرها، ناهيك عن طاقة الألم، الهائلة، التى سوف تلتهم روحها، كلما فكرت فى الصغيرات الثلاث اللواتى بتن بلا أم أو أب يحنو عليهن، وهى بعيدة، لا تملك أمراً لهن، ولا تستطيع دفع شر يحيق بهن.

بكت عزيزة عندئذ بدموع حقيقية، لفرط تعاطفها مع أم رجب، والتمست لها العذر، فى هذه اللحظات فى كونها لصة نشالة، فأم رجب ما حققت شيئاً، خلال حياتها من النشل، وما صنعت من ورائه مجداً، ولا مدخراً ينفعها فى أيام العوز والشدة، بل طالما سرقت، ونشلت، لتعيش وتأكل، ولعلها لو وجدت فرصة أفضل للعيش، ما كانت بسارقة فى يوم من الأيام.

لكن عزيزة شعرت بعدئذ أنها تمادت فى تعاطفها مع أم رجب، لأن اللصوص، برأيها، لصوص مهما كان الأمر، ويجب أن تنالوا عقاباً على

لصوصيتهم وسرقتهم للناس لكنها عند ذلك الحد من التفكير وتقليب الأمر مع نفسها، تذكرت زوج أمها، وتذكرت نادرة، وأيقنت أن العدالة، رغم كل شئ، قاصرة، ولا يمكن أن تتحقق، كما يجب، بين الناس، على الأرض، ولو قدر لها أن تمسك بميزان العدالة، لوضعت نادرة فى موضع أم رجب، ووضعت زوج أمها فى موضعها، فثمة جرائم للضمير لا تكفى قوانين البشر لإدانتها ومواجهتها، فها هى أم رجب محكومة بالسجن، لكنها فى الحقيقة، والواقع، كالمحكومة بالموت، ولاتستطيع حتى أن تنظر إلى أبنتها وهى راقدة رقدة الموت ولن تتمكن، أبدا، من احتضانها، والبكاء على صدرها، ومن طبع قبلة الودا ع الأخيرة على وجنتها.

بكت عزيزة أكثر لأجل أم رجب، وشعرت كم أنها كانت قاسية عليها عنيفة معها، وداخلها ندم شديد، لأنها لم تتركها تسرق البيضة والزيتون بالرغيف، بل عضتها، حتى رسمت بأسنانها على معصمها ما يشبه ساعة مستديرة، زرقاء، ظلت آثارها باقية على لحمها لأيام طويلة، ثم أن عزيزة قامت وتمشت فى الحجرة بعد أن أشعلت لنفسها سيجارة، وظلت تقدح ذهنها بشدة، لأنها أدركت كم ستكون متهورة لو أنها لم تأخذ أم رجب، معها فى العربة الذهبية الصاعدة إلى السماء، لأنها قبل هذه الواقعة، التى هزتها من أعماق نفسها، كانت تعتبر مجرد التفكير فى أن تلمس أم رجب بيدها الدنسة، تلك العربة السماوية المقدسة، ضرباً من ضروب المستحيل، باعتبارها العربة البديعة، التى رسمتها عزيزة فى خيالها، كصورة طبق الأصل من العربة الملكية المذهبة، التى رأتها ذات يوم بعيد، لآخر ملوك مصر فى القرن العشرين، مع تعديل بسيط أدخلته عليها وهو مجموعة من الأجنحة القوية، الممتدة، التى تساعد أفراسها الجميلة، البيضاء، الستة، على الصعود إلى السماء، وشق عباب السحاب.

لم يكن هذا الحادث هو العامل المرجح، فقط، لتراجع عزيزة عن قرارها، فى عدم إلحاق أم رجب بالعربة الذهبية الصاعدة الى السماء، بل

كانت هناك حيثيات أخرى، جعلت عزيزة تحسم الأمر حسما نهائيا لا رجعة فيه، وهى حيثيات، وإن لم تكن قوية من حيث المنطق والعقل، إلا أنها، على أية حال، كانت مقنعة تماماً بالنسبة لعزيزة، التى طالما أستندت إلى مشاعرها الصادقة، التى تثق بها عادة، لأنها حيثيات نبعت حقا من عمق انفعالها لما جرى لأم رجب وتعاطفها العميق معها، فرغم أن أم رجب كانت نشالة محترفة، إلا أنها، وكما أعترفت لعزيزة فيما بعد، لم تسرق أبداً إلا تحت ضغط الحاجة، بعد أن ضاقت السبل بها، فقد حاولت بعد أن تركها زوجها، أن تعمل أى عمل يسدّ جوعها وجوع ابنتها، فاشتغلت مرة فى مدبغة لدبغ الجلود، وكانت مهمتها تنظيف جلود الجاموس والبقر من الشعر، وقد حصلت من عملها الشاق هذا، الذى كان يمتد طوال النهار، على أجر زهيد، كان يكفى بالكاد لأود حياتها هى وصغيرتها، بالإضافة الى ماحصلت عليه من إصابة فطرية مزمنة، لم يكن من الصعب علاجها، لو تمكنت أم رجب، من ذلك، وسنحت لها الظروف التى كانت تضن عليها بأى فائض مالى بسيط، يجعلها تواجه هذه الفطريات اللعينة بأى مرهم أو عقار طبى يمكن شراؤه من أى صيدلية صغيرة، ثم أنها عملت كموزعة لأكياس غزل البنات، التى كانت تحصل عليها من بائع يقوم بتصنيعها، لتنال نسبة ربح بسيطة مقابل هذا، لكن المشكلة كانت أنها تضطر لأكل ما تبقى منها، فى نهاية اليوم، إذ تكون قدماها قد تعبتا من اللف والدوران، وبطنها الخاوية قد نهشها الجوع، ثم عملت بائعة بالونات، وذرة مشوية، وظلت لفترات طويلة تشتغل كحمالة فى سوق الخضار، تشيل أجولة البطاطس والطماطم الثقيلة، حتى أصيبت، ذات يوم بإنزلاق غضروفى أقعدها عن العمل، ولولا بعض حبات البطاطس، التى كانت تختلسها من الجوالات الكبيرة، بين الحين والحين، لكانت نفقت جوعا، هى وابنتها، كما تنفق الحيوانات، لذلك احترفت النشل أخيراً، رغم أن ذلك جاء بالصدفة المحضة، إذ كانت تقف ذات يوم أمام جمعية تعاونية

مزدحمة، لإبتياع كيس من الأرز، عندما وقع نظرها على حقيبة مفتوحة، لسيدة واقفة، أمامها في الطابور، يبدو من هيئتها أنها موظفة من موظفات الحكومة، اللواتي يضطررن لقضاء حاجاتهن المنزلية، بعد انتهاء يوم عملهن، وقد كان بالحقيبة كيس جلدى صغير، مدت أم رجب أصابعها الرشيقة، الرفيعة، والتقطته، بهدوء، لتدسه في صدرها وتنسحب متسللة من الطابور، صحيح أنها لم تجد فيه غير ثلاثة جنيهات، إلا أن فرحتها بها كانت بلا حدود، إذ اشترت يومها علبة حلاوة طحنية تغدت بنصفها مع ابنتها، وكيلو يوسف أفندى، وكيلو مكرونة، لمواجهة يوم أو يومين آخرين، وقد شكلت الجنيهات الثلاثة فتحا مبينا، بالنسبة لأم رجب في عالم النشل، الذى ظلت فيه مستقلة طوال حياتها المهنية، إذ رفضت الانتماء الى أية عصابة، أو جماعة من جماعات النشل المتخصصة، المنتشرة، في أنحاء المدينة، وقد اعترفت أم رجب لعزيزة بعد أن صار بينهما أخذ، وعطاء في كلام، بأنها ضعفت ذات مرة، وكادت أن تنتمى الى عصابة، منظمة، تمارس نشاطها، على نطاق واسع في سيارات نقل الركاب، بين القاهرة والأقاليم الأخرى، إلا أنها تراجعت، بعد أن فكرت جيداً وأدركت أن النشل الإنفرادى أفضل لها، ألف مرة، لأن من المحتمل، لو وقع أحد أفراد العصابة، في يد البوليس، أن يعترف على بقية زملائه. لكن ذلك التفرد، طالما كلف أم رجب الكثير، لأنها كانت مضطرة دائما لتوخى الحذر، ليس فقط من العصابات، التى طالما اختلست هى، العمل في مناطق نفوذها، ولكن من أعين الشرطة أيضا، ثم حكت لعزيزة أنها كادت أن تقتل في مرة من المرات، من قبل أفراد عصابة، طالما ألحوا عليها في الإنضمام اليهم وظلت ترفض طلبهم على الدوام، لكنهم اكتشفوا، بعد فترة أنها تقوم بالنشل داخل الحدود الخاصة بعصابتهم والمتفق عليها مع العصابات الأخرى، فقامت هذه العصابة بخطفها، إلى مكان بعيد عن العمران، وشرع أفراد منهم في خنقها، لكنها توسلت اليهم توسلاً شديدا ليتركوها تعود

إلى ابنتها الوحيدة، التى تحتاج لرعايتها، فاكتفوا بضربها ضربا مبرحا، كان من آثاره عاهه مستديمة، فوق حاجبها الأيسر، قلما تُلحظ بسبب كثرة تجاعيد وجهها.

كانت النهاية المأساوية التى ألقت بأم رجب فى السجن، والتى عرفتها عزيزة منها بالتفصيل بعد فترة من المصالحة بينهما، هى العامل الأخير الذى رجح ترجيحاً مطلقاً انضمامها إلى زمرة أهل العربة السماوية المذهبة لأن عزيزة، التى طالما خبرت القدر، وفهمت ألاعيبه أدركت بعد تفكير وتمحيص لحالة أم رجب، أنه لم يلعب لعبته معها، على هذا النحو، إلا ليجيء بها، لتكون ضمن اللواتى سيصعدن إلى السماء، فرغم دقة أم رجب فى تأدية عملها، وحرصها الشديد، وموهبتها الفائقة فى النشل، إلا أن الحكومة أمسكت بها، بطريقة الصدفة القدرية، فبينما كانت تعمل ذات يوم فى مترو مصر الجديدة، الذى طالما اعتبر بالنسبة لها، واحداً من أفضل حقول استخراج النقود من محافظ ركابه الصابرين على، عدم دقة مواعيده، وبطء سيره، وبعد أن نجحت فى سحب كيس نقود خرزى ملون، من ذلك النوع المصنوع فى تايوان، الذى تتهافت عليه النساء وشاع إنتشاره بعد سفر المصريين إلى الخليج، الذى طالما فتح صدره على الرحب والسعة، لكل منتجات الاستهلاكية، من مثل هذا النوع، وغيره كالبلوزة المحاكة من الحرير الصناعى، المشغولة بالخرز على الصدر، والتى كانت ترتديها صاحبة الكيس، الشابة، الذى كانت تضعه دون حرص فى حقيبة يدها، التى فتحتها أم رجب فى منتهى اليسر بمهارة خبيرة متمرسة على النشل لمدة تزيد عن ثلاثين عاماً، بينما كانت الشابة مشغولة بترتيب خصلات شعرها بأناملها المطلية أظافرها، ورغم أن العملية تمت بنجاح، واستدارت أم رجب، بعد أن خبأت الكيس، بسرعة، فى كيس بلاستيكى به بعض الخضار، والخبز، ثم أخذت تستعد للنزول بسلام فى المحطة التالية، التى كان سيتوقف فيها المترو إلا أن طفلاً رضيعاً التقط، ببراءة رغيفاً

من الخبز، بأصابعه الرقيقة، كاشفاً عن الكيس، الذى تحته. ولسوء حظ أم رجب، لمحته صاحبته بسرعة، إذ كانت قد استدارت هى الآخرى، لتقف خلف أم رجب إستعداداً للنزول فى المحطة ذاتها التى كانت أم رجب ستنزل فيها.

كانت كومة من نفايات السجائر قد تجمعت أمام عزيزة، بينما عاودتها آلام الرأس والصداع، الذى كان يداهمها، بين الحين والحين، بسبب إصابتها بضغط الدم المرتفع، وكانت قد فكرت بما يكفى، وقلبت مسألة أم رجب على كل جانب من جوانبها، فقامت لتتمشى قليلاً ولتعد لنفسها شيئاً تأكله، لأنها كانت قد بدأت تشعر بالجوع، تأملت سقف الحجرة العالى، الذى عشش العنكبوت، فى كل زاوية من زواياه، رفعت يمناها محيية إياه تحية المساء، قائلة له أنها تراه أحسن منها، وأفضل حالاً، لأنه أتى إلى هذا المكان بإرادته، ثم أنها سألته أن يسدى لها خدمة بسيطة، لكنها هامة جداً وسرية للغاية، وهى أن يذهب بهدوء إلى أم رجب، ويوشوشها فى أذنها قائلاً لها:

- عزيزة قالت لى أن أقول لك... خلاص.. هى ناوية أن تطلعك لهناك إن كان لها عمر، بإذن واحد أحد.

فصل الخطاب في تآخي الأضداد

ظلت الأسباب الحقيقية، الكامنة وراء قتل حنة العجوز لزوجها، الذى يكبرها بحوالى أربع سنوات، سراً مجهولاً، لكل الناس، بما فيهم أولادها الثلاثة، وهيئة المحكمة، التى أصرت حنة أمامها على كل الأقوال، التى كانت قد أدلت بها، قبل ذلك، للنيابة، فلم تزد عن أن وعاء الماء، الذى كانت قد وضعته على موقد الغاز، قد غلى وفار، بعد أن نسيته ونامت وزوجها فى المساء، وأنها عندما أفاقت فى صبيحة اليوم التالى، لذلك المساء، وجدت نفسها وكأنها مخدرة، لا تقوى على الحركة أو حتى التنفس الطبيعى، فلما نادت زوجها، ليساعدها على النهوض من الفراش، لم يرد عليها، رغم أنها كررت نداءها له عدة مرات، ثم أنها شمت رائحة غاز قوية تملأ البيت، فتذكرت حينئذ الوعاء، الذى كانت قد وضعته على النار قبل نومها مما جعلها تتحامل على نفسها وتجرى إلى المطبخ، لتكتشف تسرب الغاز من الشعلة، التى كانت قد انطفأت قبل ذلك، بوقت طويل، لكن هيئة المحكمة استمعت إلى أقوال حنة، بقدر عالٍ من الاستخفاف، وعدم الجدية، وهو ما كانت النيابة قد فعلته أيضاً، بسبب ثغرات عديدة، تثبت سبق الإصرار، والترصد، ليس فى هذه الأقوال فقط، ولكن فى الشواهد، والأدلة الكثيرة التى توصلت إليها النيابة أثناء التحقيق، وحكمت عليها بالسجن عشر سنوات بعد أن وجهت إليها تهمة القتل العمد، مع سبق

الإصرار والترصد، وبعد أن فشلت كل الجهود المبذولة من محاميها، الذى كلفه أبناؤها بالترافع عنها، وباءت بالخيبة توسلاته لها تنطق وتقول أن زوجها كان يضربها ويعذبها ويقتر فى الانفاق عليها، مما جعل السبل تضيق بها، وتظلم الدنيا فى عينيها، فتقتله فى لحظة غضب، وأنها، الآن، نادمة كل الندم على فعلتها الشنعاء التى قامت بها ضد أقرب الناس إليها، وتلتمس من هيئة المحكمة، أن تنظر بعين العطف والرحمة إليها بعد أن أقرت بجريمتها، وبات الندم والحسرة ينهشان قلبها، ويحطمان روحها، بسببها، لكن حنة ظلت مصرة على أقوالها الأولى، لا تعير أذنيها لنصائح المحامى، الذى اعتبرت تدخله فى هذا الموضوع، نوعاً من السخف، وعتهاً من أبنائها، الذين اعتادوا إنفاق فلوسهم فيما لا يفيد، وآثرت إطباق شفتيها الرفيعتين إطباقاً تاماً فى بؤرة ضيقة صغيرة، اختفت بداخلها نهايات الخطوط، والتجاعيد الدقيقة للمنطقة المحيطة بهما، مما جعل القاضى الذى ظل يتثاءب، بملل، أثناء المرافعة الإنشائية الطويلة، لممثل النيابة، يقرر حكمه، الذى بدا متساهلاً بعض الشىء، إذا أنه لم يحكم عليها بالسجن المؤبد، أو الإعدام، كما هو شائع فى مثل هذه الحالات، مستنداً فى هذا إلى شيخوختها وإلى تقرير طبى، ضمه المحامى إلى أوراق قضيتها، يؤكد معاناتها من ضعف فى عضلة القلب، وارتفاع فى ضغط الدم، فاعتبرها قاب قوسين أو أدنى من الموت، وآثر ترك مهمة إعدامها لعزرائيل، الذى تشير كل الدلائل إلى أنه ليس بعيداً عنها، وهو ما أثبتت الأيام عكسه، إذ عاشت حنة حتى أمضت نصف مدة عقوبتها، وخرجت إلى الدنيا، مرة أخرى بعد أن صدر قرار عفو جمهورى شملها وسجينات أخريات، بمناسبة عيد الثورة، وربما كان شعورها المتفائل، لحظة سماعها الحكم، وراء تلك الإبتسامة الخفيفة التى انفرجت عنها شفتاها، وأغاظت ممثل النيابة، الذى ظل، قبل ذلك بوقت طويل، يصفها بأبشع الصفات، وأحطها.

جرى إيداع حنة سجن النساء، حيث استقر بها المقام فى عنبر العجائز، والضعفاء، بالقرب من الزنزانة الانفرادية المخصصة لعزيزة الإسكندرية، التى سرعان ما حظيت حنة بمحبتها ورضاها، بعد أن التقتها، فى اليوم التالى لإيداعها السجن، فى دورة المياة، أمام حوض غسيل الوجه، وكانت حنة تشب بقدميها محاولة الوصول إلى صنبور الحوض العالى وفتحه دون أن يساعدها جسدها القصير، قصراً شديداً، على ذلك، فقامت عزيزة بمساعدتها، وفتحته لها، فشكرتها حنة، وهى تضحك ساخرة، من قصرها، الذى طالما جلب لها المتاعب، فى تعاملاتها مع الناس، وجعلها موضع تندرهم، على الدوام، بل وكان يجعل زوجها يأنف من السير إلى جانبها فى الطريق، إذ كانت قامته تميل إلى الطول، فتضطر لأن تسير خلفه بخطوات، حتى المكان الذى يذهبان إليه.

ثم أن عزيزة استلطفتها جداً، ودعتها لتناول الإفطار، معها فى زنزانتها الإنفرادية، فلما جاءت حنة، وجلست المرأتان تأكلان، ما جادت به الأيام على عزيزة من طعام، كان عبارة عن بقايا مكرونة مقصوصة، كانت جمالات الحرامية، قد أعدتها لعزيزة فى اليوم الفائت، بعد أن سرقت علبة صلصة صغيرة من مطبخ السجن، بينما ظلت المرأتان تدفعان، بملعقتين، حبات المكرونة إلى فميها، وتقضمان البصل الأخضر، بشهية ونهم، بعد أن غسلته جمالات، التى كانت واقفة، آنذاك، فى ركن الحجرة تنتظر غليان الماء، الموضوع فى كوز صغير، على السخان الكهربائى الرخيص، ذى الاسلاك اللولبية، لتعد الشاى الكشرى، الذى تفضله عزيزة، ولا ينفعها، من وجع الدماغ، عند الصباح، سواه، وبينما كانتا تأكلان برضا وانشراح، حكت حنة لعزيزة ببساطة، وسلاسة، شديدتين، وكأنها تحكى قصة فيلم سينمائى ممتع، شاهدته منذ وقت قريب، حكايتها مع زوجها، التى قادتها فى النهاية، إلى سجن النساء، وذلك دون أن تداخلها لحظة ضيق، أو شعور واضح بالندم، بل أنها بدت، وهى تقص تفاصيل هذه الحكاية، كما لو

كانت سعيدة جداً، إذ ظلت تبتسم بين الحين والحين، كاشفة عن أسنانها المتراصة البيضاء، الجميلة، ليس بسبب أى شىء سوى أنها أسنان صناعية، تحمل إبنها الصغير نفقات صنعها عند واحد من أشهر معامل تصنيع الأسنان فى الجمهورية كلها، وقد استطاعت حنة أن تشد عزيزة إلى حكايتها المثيرة، وكذلك جمالات، التى كانت تستمع إليها بشغف شديد، لأنها تستحق ذلك أولاً، ثم لتحفظ تفاصيلها فتحكيها لصديقاتها، فى عنبر الجرب، بعد ذلك، لتزجية الوقت، وصرع الملل، كانت جمالات منتبهة إلى كلام حنة، سارحة بفكرها فيه، لدرجة أن الماء غلى غلياناً شديداً، ولم تنتبه إليه إلا عندما سال وانسكب على السخان الصغير، محدثاً صوتاً واضحاً، لتبخره السريع، بفعل الحرارة الشديدة، التى كانت عليها الأسلاك اللولبية الرفيعة، التى وصلت إلى حد التوهج بالأحمرار.

اكتشفت حنة، وهى تحكى حكايتها لعزيزة، التى تعتبر أول إنسان باحت له بها، منذ أن قتلت زوجها، حقيقةً لم تفطن إليها، طوال سنوات عمرها الطويلة، وهى أنه كان يجب عليها التخلص من ذلك الزوج، الذى عاشرته حوالى خمساً وأربعين سنة، قبل أن تقدم على قتله، ولعل من محاسن الصدف- التى لم تدركها أبداً- بالنسبة لها، أن اكتشافها، لهذه الحقيقة، تم بعد أن كانت قد بلغت من الكبر عتياً، فلو أنها قتلت زوجها فى سن أبكر كثيراً، من العمر الذى هى فيه، فإن هيئة المحكمة، التى راعت إعتبار السن بالنسبة لحالتها، لم تكن لتوكل مهمة إعدامها لعزرائيل، لأنها، كانت، على الأغلب، سوف تحكم عليها بالإعدام، أو على الأقل، بالسجن المؤبد، كما يحدث فى هذا النوع من الجرائم.

كانت حنة مستعدة لقص حكايتها، ليس على عزيزة فقط، ولكن على أية امرأة أخرى، غيرها، إذا ما طلبت منها ذلك، حتى لو لم تكن على علاقة حميمة بها، أو ارتاحت لها، وحاولت التعرف عليها، مثل عزيزة، لكنها لم تكن على أقل استعداد لأن تتكلم مع أى رجل، مهما كان قريباً منها، فى

هذا الموضوع، حتى لو كان واحداً من ابنائها، أو محاميها الخاص، أو قاضى المحكمة نفسه، حتى لو قرر أن يحكم عليها بتقطيعها قطعاً صغيرة، ورميها للكلاب فى الشارع، لأنه من المستحيل بالنسبة لها أن تحكي واحدة مثلها، تربت تربية مهذبة، فاضلة، عن أمور خاصة، سرية، تتعلق بما يحدث بين الرجال والنساء، عادة، فى غرف النوم، وحتى مع النساء أنفسهن، ما كانت بمستعدة أن تفتح فمها بكلمة واحدة فى هذا النوع من المسائل، مع أية واحدة منهن، قبل قيامها. بحادثة القتل، مهما بلغ الأمر بها من ضيق وزهق، ورغبة فى الفضفضة عما بداخل النفس، أما الآن، وبعد أن انتهى كل شىء، وأخذ كل نصيبه من الدنيا، فانتهى زوجها نهايته المكتوبة، والمقدرة له عند الرب، وبات مستقرها فى ذلك السجن النسوى بعالمه الغريب، فقد تساوى كل شىء بالنسبة لها، وهى لا تجد ما يمنع من قص حكايتها، من طق طق لسلام عليكم، لكل واحدة تسأل عنها، لأنها لن تخجل ولن تستحي من امرأة مثلها، لديها بجسدها ما بجسد حنة ذاته، ولها مشاعر لا تختلف عن مشاعرها كثيراً، فتستطيع أن تفهم وتحس وتقدر ما عانته فى حياتها، ولم تستطع التعبير عنه، قط، فى حياة عين زوجها الراحل.

حكت حنة لعزيزة عن شراهة زوجها لجنس النساء، التى اكتشفتها، منذ ذلك اليوم البعيد، الذى زُفت فيه إليه، وهى الشراهة المجنونة، التى دفعته لأن يضاجعها فى ليلتها الأولى معه، تسع مرات متواليات، رغم الآلام الفظيعة التى عانتها، فجعلتها تتوسل إليه أن يكف عن ذلك الفعل المؤلم، الذى يجعلها تشعر أنها على وشك الاحتضار، لكنه، بدلاً من الإستجابة لتوسلاتها المعذبة، واصل إغارته عليها، مرة تلو أخرى، حتى طلع فجر تلك الليلة، بينما كانت آلامها قد وصلت إلى درجة اضطرتها لتمضية ساعة كاملة جالسة فى وعاء واسع مملوء بالماء الدافىء، بعد أن أضافت إليه نصف ملعقة من الملح، حتى تخفف من شعورها بالألم، الذى

أمتزج برغبة حادة في النوم، تغلبت عليها، فسقط رأسها، على صدرها، وراحت في سبات عميق، وهي جالسة في ذلك الوعاء، دون أن تشعر.

في ظهيرة اليوم التالي، عندما جاءت أمها وأبوها، مصطحبين إخوتها الصغار، لتهنئتها بحلول نهار اليوم الأول على استقرارها في منزل الزوجية السعيد، فقد ودت أن تبصق عليهم جميعاً، وأن تضرب أمها التي اعتبرتها، آنذاك، المسؤولة الأولى عن أكبر جريمة عرفتها البشرية، إذ كانت وراء تزويجها من ذلك الفحل المعجزة، الذي هو بحاجة، ليس إلى امرأة واحدة فقط، بل إلى قطيع من الإناث، ليقفز عليهن طيلة الوقت، مثل الديك وسط الدجاجات في الحظيرة، لكنها، عوضاً عن فكرة البصق والضرب، التي ربما كانت قد أتتها تحت تأثير كؤوس الخمر، التي أجبرها الزوج المفاجأة على تجرعها، غصباً عنها، وما زال تأثيرها يفعل فعله في رأسها، عوضاً عن ذلك الأسلوب غير المهذب، الذي أوشكت على الوقوع فيه، مع أهلها، الذين هم أقرب إليها من حبل الوريد، وأمها التي حملتها في بطنها تسعة أشهر، تماسكت وكظمت غيظها، دون أن تعفو عنهم، وراحت ترسم، على شفتيها، إبتسامة فرح، كاذبة، تليق بمعاناة عروس في مثل حالتها عند النهار الأول لزواجها، إذ كانت قد أيقنت أن الفأس وقع في الرأس، وأنها أصبحت أمام الناس، وعند الدولة، وبمعرفة أهلها زوجة لذلك الرجل، الذي يطفح وجهه بشراً وسعادة وهو يستقبل عائلتها بترحاب ومودة، باعتباره زوجاً لابنتهم، يستقبلهم في بيته الزوجي للمرة الأولى.

تحاملت حنة على نفسها، وأعدت مائدة الغذاء، الذي كانت أمها قد طبخته لها بنفسها، وأحضرته معها حرصاً على راحتها، وعلى عدم إزعاج الزوج الجديد، لكن وبينما كان الجميع يستمعون إلى تمثيلية من التمثيليات الشيقة، التي كانت تبثها الإذاعة آنذاك، قام زوجها، من بينهم، ودخل غرفة النوم، ثم نادى على حنة منها، فلما ذهبت إليه، أغلق دونهما الباب، وباغتها بجولة سريعة، اقتنصها من وقت الضيوف، الذين كانوا ما يزالون منصتين

إلى التمثيلية، لكنهم سرعان ما تنبهوا لغياب الزوجين، فى غرفة نومهما، فأحسوا بثقل وجودهم، الذى بدا، فى نظرهم، غير مرغوب فيه، وهبوا راحلين، بعد أن أرسلوا بتحياتهم وتمنياتهم الطيبة للزوجين السعيدين، وتركوا مبلغاً من النقود فى مظروف ورقى صغير، فوق المذياع، الذى نسوا أن يغلقوه، وذلك كهدية بسيطة للعزيزين فى صبيحة زواجهما.

منذ ذلك الزمن البعيد، وطوال سنين طويلة، ظلت حنة، مطية تحت الطلب لزوجها، آناء الليل، وأطراف النهار، فقد كان يباغتها، أحياناً بعودته من العمل، مبكراً عن الوقت المعتاد لرجوعه، كل يوم، عندئذ، وكان عليها أن تترك، على وجه السرعة، ما بيدها من أعمال منزلية، أيا كانت وتتوجه إلى الفراش، لذلك طالما احترق طعام، كانت تعده لوجبة العذاء، فى قدرة على النار، وسقطت رغماً عنها قطع غسيل صغيرة، كانت تلمها أو تنشرها على الحبال بعد غسلها، لارتباكها وعجلتها، لتلحق به فى السرير، ورغم أنها ما لبثت أن أنجبت له ثلاثة صبيان، النظرة فى الواحد منهم تشرح القلب الحزين، إلا أن ذلك لم يصرفه عن طلب المتعة المنشودة، فى جسد حنة الضعيف، فكانت تترك رضيعها يصرخ طالباً الرضاع منها، بينما هى مشغولة بأبيه، الذى هو بحاجة لتلبية رغباته أيضاً، والمشكلة أن ذلك الأمر، كان يلتهم ساعات يوم حنة، التى أصبح شعارها، كشعار أى تلميذ فى فريق الكشافة:

"كن مستعداً"، لأنها كان يتوجب عليها أن تؤهل نفسها، التأهيل المناسب، لذلك النوع من المطالب الزوجية، فتستحم، وتتزين واضعة الكحل فى عينيها، والمساحيق على وجهها، كاشفة عن أكبر مساحات ممكنة، من ذراعيها وصدرها الذى كان عليها أن تترك شعرها الأسود الجميل يتهدل عليه ليضفى عليها شكلاً يجعلها أشبه بمهرة صغيرة، ولدت منذ زمن قصير، كل ذلك لتبدو، كما يريد أن يراها دائماً، مثيرة للرغبة، وعلى حال تبدو معه وكأنها واحدة من بائعات الهوى فى علبة من علب الليل المنتشرة

بالمدينة، وليست زوجة من ربات الخدور، وأماً فاضلة لا تغفل عينها عن أبنائها، إلا عندما تكون مضطرة للإنشغال بذلك الزوج المشكلة.

أدى كل ذلك فى النهاية، إلى أن تضرب حنة عرض الحائط، بكل التعليمات والنصائح الأمومية، التى تلقتها قبل الزواج، وبعده بشأن العناية بالبيت، والحفاظ على جماله، وهى النصائح التى طالما تمنت أن يسنح لها الوقت لاتباعها، مما جعل الشقة، فى النهاية، تتحول إلى ما يشبه نزلاً للعابرين، بدلاً من أن تكون بيتاً، للإقامة العائلية المريحة.

ثم أنها كانت تحرص دوماً على ألا تكون مجهدة، أو ملطخة بالأتربة والأوساخ، إذا ما قامت بعمليات الكنس والتنظيف، وقد كان أى زائر عابر للبيت، يلحظ التناقض الغريب بين عناية امرأته بزينتها، ونظافتها الشخصية، وبين تلك الكميات المتراكمة من الأتربة على المرآة البلجيكية الصنع، ذات الإطار الذهبى، الجميل، الذى ضاعت تفاصيل نقوشه الدقيقة، لكثرة ما استقر عليه من أوساخ، وعفار غطى كل شىء بالحجرة، حتى ريشات الطاووس الخمس، فى مزهرية الصينى، الكحلية، الموضوعة على المنضدة ذات السطح الرخامى، والأرجل المذهبية، المنتهية بإطار على شاكلتها، يحوط ذلك السطح، أما المطبخ، فقد كانت عناكب السقف، والصراصير المستوطنة لشقوق دواليبه الخشبية، استيطاناً مطمئناً، لا تكدر صفوة غارات نظافة دورية، أو مبيدات حشرية قاتلة، تشهد على مدى قلة اهتمام ربة المنزل بذلك المكان، وعلى وضعه فى مؤخرة أولويات مهامها العملية، التى كان على رأس قائمتها، تمكين الزوج منها وتهيئة الظروف المناسبة لمارسة نشاطه اليومى، المعتاد، فى أى وقت من الأوقات.

لقد حاولت حنة فى حدود استطاعتها، الإقلال من إندفاع الزوج فى شهوته الطاغية، بأساليب مختلفة، فعندما كان أولادها صغاراً كانت تصحبهم فى زيارات طويلة إلى بيت أمها، تمتد من أول النهار وحتى حلول المساء، على أمل أن تقتل الوقت بعيداً عن حصانها الجامح، لكنه عندما

كان يجدها، قد غابت نهاراً بكامله، وهو أكثر مما يمكن احتماله، من وجهة نظره، كان يلاحقها إلى حيث تكون، ويعود بها إلى البيت، بسرعة بل أنه فى إحدى المرات لم يطق صبراً، بانتظار عودتهما إلى بيتهما، فسحبها إلى حمام بيت أمها وأغلقه عليهما دون أدنى شعور بالحرج من أطفاله، الذين ظلوا يصرخون خلف الباب لفرط انزعاجهم من دخول والديهما إلى ذلك المكان سوياً، وهو ما لم يعتادوه قبل ذلك، ولحسن الحظ فإن أمها كانت خارج البيت انذاك، وإلا لكانت حنة قد تعرضت لحرج شديد وفى محاولة أخرى، قررت حنة تلهيته بلعب الورق، أو النرد، فى الأمسيات التى كان يحرص على تمضيتها إلى جوارها فى البيت، لكنها فشلت فى ذلك ايضا فشلاً ذريعا، إذ أنه كان يفضل قتل الوقت بلعبته الأساسية المفضلة، ثم أنه لما كبر الأولاد، وزادت مطالب الحياه، التى لم يعد من الممكن مواجهتها براتبه الصغير فقط، ابتاعت ماكينة تريكو بالتقسيط، وظلت تتذرع بانشغالها بها ليلاً، عندما كان يطلبها فى الفراش، لكنه فى لحظة من لحظات غضبه، وحنقه الجامح عليها، بسبب انصرافها عنه إلى الماكينة - الفريم، قام بتحطيم تلك الماكينة التى كانت للأسف، صناعة يابانية ضعيفة، من ذلك النوع، الرخيص، الذى اكتسحت به اليابان أسواق البلدان المتخلفة، ونجحت فى سحب السجادة من تحت أقدام الخواجة سنجروشركاه.

ومثلما فشلت خططها فى لعب الورق والنرد، وماكينة التريكو، الذين استعاض عنهم، جميعا، بالفرجة على مجلات جنسية فاضحة، حتى يتمكن من تجريب، وابتكار، أساليب مضاجعة جديدة، مع حسنائه الكبيرة فشلت أيضا محاولتها فى تقليل مرات إتصاله بها، عن طريق وضع أقراص منومه له فى كوب اللبن المحلى بعسل النحل، والذى كان حريصاً على شربه كل مساء، فرغم أنه كان يرقد بعد ذلك كجثة هامدة، حتى صباح اليوم التالى، إلا أنه كان بمجرد أن يفيق ويعى الدنيا حوله، وقبل أن ينطق، حتى

بتحية الصباح، كانت يده تمتد لتتحسس جسدها، شارعاً فى الإنقضاض عليها، مستفيداً من ساعات نومه العميق، وجسده المستريح، المسترخى، طيلة الليل.

المرة الوحيدة، التى شعرت فيها حنة أن مشكلتها مع هذا الزوج قابلة الحل، ولو إلى حين كانت عندما جرى نقله من عمله إلى مدينة ساحلية بعيدة، تفصلها عن القاهرة، عدة ساعات بالقطار، ولكن سرعان ما خاب ظنها، إذ أنها بعد أسبوع واحد فقط، من النوم الليلى الهادئ، الذى لا تنغصه هجمات مفاجئة، عادة حنة لمعاناتها الأولى، فلقد نجح الزوج فى العودة إلى مقره الأول، فى العمل بعد أن دفع رشوة، كانت تشكل نصف ما أدخرته طوال سنتين لشراء تلفزيون، كسائر الجيران، لأنها الوحيدة فى العمارة، التى يسكنون بها، التى لم يكن بشقتها تلفزيون.

بعد ذلك، أيقنت حنة أن لا فائدة، واعتبرت حالة زوجها ميؤوس منها، بل هى المقدر والمكتوب، على لوحها المحفوظ فى السماء، قبل أن توضع بذرتها فى رحم أمها، لأن لكل مخلوق - كما قالت لها أمها ذات يوم، لوح محفوظ عند الله، مكتوب فيه، كل ما كانه، وما سيكونه، منذ ابتداء خلقه، وحتى مماته. ورغم أنها كانت تتمنى حدوث معجزة، تجعل زوجها - يمرض مرضاً يقعده عن واجبه الزوجى الزائد عن الحد، أو يصاب بعاهة مستديمة تجعله يكف عنها، إلا أنها كانت أحيانا تحاول مواساة نفسها، لأن مصيبتها كانت ستكون أكبر وأشد، لو أن زوجها كان من ذلك النوع من الرجال، الذى يلجأ إلى نساء، غيرها، فهو موظف صغير، محدود الدخل، ولولا قدرتها على التدبير والاقتصاد، لما سارت بأسرتها عجلة الحياة براتبه الضئيل، ولعله لو كان عيل إلى معرفة أمرأة غيرها، لكان ولابد سيقتطع جزءاً من دخله، للإنفاق على هذه المرأة، سواء فيما يتعلق بالهدايا، أو الخروج والدخول معها، مما كان سيشكل خطراً، يهدد استقرار حياتها العائلية الآمنة.

في النهاية، يئست حنة، بعد أن اقتنعت أن مشكلتها من ذلك النوع الذي لا يحله إلا الزمن، لكنها عندما تجاوزت الخمسين، أدركت خيبة ظنها، فرغم بلوغها هذه السن، التي وضعتها على أعتاب الشيخوخة، وزواج أبنائها الثلاثة، ومغادرتهم البيت إلى بيوت الزوجية، فإن آية الاعجاز الحسي – هذا – التي هبطت على حنة، زادت مطالبة الزوجية، على اعتبار أنه انتهى من هم العيال، وبات متفرغا لعلاقته بها، من جديد، الأكثر من هذا أنه أصبح يجلب لها مساحيق التجميل، والعطور، وقمصان النوم العارية، التي تليق ببنت بنوت ليلة زفافها، طالبا منها إرتداءها طيلة الوقت، مستفيداً بذلك من الزيادة، التي تطرأ على مرتبة بين الحين والحين، وتخففه من عبء الإنفاق على أولاده، بعد أن كبروا وباتوا متحملين لمسؤولية أنفسهم، وكان ما يزيد من غيظها منه، وحنقها عليه، هو مطالبته، اللحوح، لها أن تترك شعرها منسدلاً لأعلى كتفيها، ماعدا غرة صغيرة منه، تجعلها على جنبيها، لتبرز فتنة وجهها. ولما كان شعر حنة، قد بات خفيفاً منحولاً، بسبب الحمل والرضاع، ومرور الأيام وكثرة الصباغ والشد على لفائف، منذ أن أصبحت شابة تطلب للزواج، فقد حاولت إقناع زوجها، بأنه لا داعي للغرة، بل من الأفضل والاريح، لها أن تقصه عند حلاق النساء، بطريقة مناسبة تتلاءم مع الطبيعة الحالية لهذا الشعر، وظروف سنها، لكنه أبى ذلك بشدة، مدعياً أنه سيشترى لها، من عند عطار كبير معروف بشطارته، مجموعة زيوت مقوية لجذور الشعر. الأكثر من هذا، أنه رفض رفضاً قاطعا، أن تخلع عند النوم أسنانها الصناعيه، التي كانت قد أستعاضت بها عن أسنانها الطبيعية، بسبب نخر السوس والالتهاب المزمن الذى عانت منه منذ، طفولتها فى لثتها فقد كان ذلك الزوج النواقة، لا يحب أن يقبل فماً خاوياً من الاسنان، إذا ما رغب فى ذلك فى أى وقت من أوقات الليل، مما جعل حنة تنام نوما متقطعاً قلقاً، بسبب مخاوفها من أن تغيب فى النوم فتبتلع فكاً من فكيها أثناء ذلك، أما المسألة التى باتت تثير

حقدها عليه بالفعل فهى أسراره الدائم على مضاجعتها، وهى عارية تماماً، حتى فى أقسى ليالى الشتاء برودة، خلال شهر طوبة، وكان أقصى ما يسمح به لها، بعد توسلها الشديد هو أن ترتدى جورباً من جواربه القديمة فى قدميها، لتدفئ أصابعها التى تكاد أن تتيبس من شدة البرد.

تحملت حنه كل هذه السخافات، والمضايقات الزوجية، الشنيعة، لأنها لم تجد ما تفعله إزاءها، بل وكانت لا تستطيع أن تحكى عنها لأى مخلوق آنذاك، لأنها كانت مستوعبة جيداً لدرس الحياة الزوجية الأول، الذى لقنتها إياه أمها قبل الزواج، وهو أنه لايجوز مهما كانت الأسباب، الكلام عما يدور داخل حجرة النوم، خارج جدرانها، حتى لأقرب المقربين للإنسان، بما فيهم، الأم، ذاتها، لذلك، فإن حنة، طوال حياتها الزوجية الطويلة، لم تناقش متاعبها الزوجية الخاصة، مع أى كائن كان، بما فى ذلك أختيها، وأمها نفسها، بل وكانت فيما بعد تتحمل على مضض همزات ولمزات وتعليقات زوجات أبنائها المبطنة بالسخرية، عندما كن يأتين لزيارتها، وتقع عيونهن بالصدفة على ملابسها الداخلية، الوردية، والحمراء، أو على تلك القمصان الحريرية الناعمة المخصصة للنوم، والتى تكشف كامل الذراعين، والجزء الأكبر من الصدر عند ارتدائها، لأنهن كن على الأغلب، ورغم كونهن شابات فى عز شبابهن، يكتفين بارتداء تلك الأنواع القطنية، ذات الطابع البسيط، العملى الاستخدام، والتى تنحو نحو التحفظ والاحتشام.

بعد أن بلغت حنة الستين، بدأت فى حركة تمرد وعصيان لمطالب هذا الزوج، الذى لا يهدأ أبداً، لأنها كانت ترى أن الحكومة نفسها، وهى التى لا تعرف الرحمة أبداً، تحيل الموظف أو العامل إلى التقاعد عند بلوغه هذا العمر، وأنه يحق لكل إنسان أن يحيا بسلام وهدوء، فى هذه المرحلة المتقدمة من حياته، ثم أن الحكومة تعطى معاشاً لمن تركها فى هذه السن، أما هى فلا ترغب فى أى شىء، سوى أن يتركها ذلك الزوج فى حالها، فتستمتع بنوم هادئ أثناء الليل، وترتدى ما تشاء من ملابس تريحها، دون

التقيد برغباته صيفاً وشتاءاً، ليلاً ونهاراً، ثم أنها تريد أن تريح نفسها وترحم وجهها، الذى أصبح جلده عجوزاً مكرمشاً، فتقلع عن وضع المساحيق التى باتت، وبسبب رعشة يديها، المستجدة عليها، لاتقوى على استخدامها بشكل متقن جميل، مثلما كانت تفعل فى الماضى لتزيد وجهها فتنة وإشراقاً، وخصوصاً، مع تزايد حالة الضعف التى ألمت ببصرها، فجعلتها تضع الكحل بعيداً عن خط الجفن الداخلى للعين، فيبدو منظرها بعد ذلك غريبا مضحكاً، حتى أن زوجة أبنها الأكبر، لفتت نظرها إلى ذلك، ونصحتها بالامتناع عن استخدام الماكياج، عموما، والكحل، خصوصا، لكن فى كل مرة، كانت تناقش هذا الأمر مع زوجها، كان يرفض رفضاً تاماً، إحجامها عما افترض أنه عناية واجبة، بنفسها، وحق من حقوقه الشرعية عليها، بل واعتبر فى إحدى المرات التى كررت فيها رغبتها فى التوقف عن استخدام المساحيق، أن هذا نوع من الدلال والمناورة منها، حتى تحصل على المزيد من الرعاية والاهتمام منه، لذلك راح يغدق عليها الكثير من العطور، والملابس الداخلية، وكل تلك الأشياء النسائية، التى لا لزوم لمعظمها، كطلاء الأظافر، وكريمات الأيدى والوجه، وزيوت الشعر، وهى الأشياء التى يمكن أن تفتن بها ، عادة، شابة صغيرة مازالت فى بداية حياتها الزوجية.

فى احدى المرات، أحضر لها ملبناً محشواً بالجوز، باعتباره النوع الأثير، من الحلوى، لديها، على أمل أن ينال رضاها، ولقاءها فى الفراش، لكنها رفضت ذلك بشدة، وظلت متشددة فى موقفها، دون أن تقرب الملبن بالجوز، الذى كانت تتلمظ عليه، وبقيت فى مكانها جالسة تتشمس على كنبة الصالون، فى ذلك اليوم الشتوى الدافئ، وراحت تقنعه إنهما صارا جدان لعشرة أطفال، هم حصيلة زيجات أبنائها الثلاثة، الذين تكفى النظرة إلى الواحد منهم، لغمر القلب بالسعادة والفرح، وأنه من الأجدى، لمن فى مثل سنه، أن يتقرب إلى الله بالصلاة والصيام والشكر على تلك

السنين الراضية الهنية، التى عاشها، والصحة الموفورة التى يتمتع بها، والنسل المبارك الذى منَّ به عليه، ثم أنها دعت له بالتوفيق وصلاح الحال، وسألته أن يسأل الله النهاية السهلة المستورة، والمثوى الطيب فى الآخره، لكن الزوج الطائش اشتعل غضباً عند سماعه هذا الكلام، وقال لها أنه كلام يقصف العمر، ويغم النفس، ويجعله يشعر بأنه يجب أن يسارع بتجهيز تربته، وأنها تريد أن تحرم ما أحله الله له، ثم أنها جاحدة، لا تقدر النعمة، التى خصها الله بها دون سائر النساء، اللواتى تتمنى الواحدة منهن، أن يكون لها زوج مثله. لذلك فإنها ولابد، ستحشر فى نار جهنم، لتذوق فيها عذاباً أليماً، لكونها لا تطيعه الطاعه الواجبة له، والتى هى من طاعة الله، بل وتدفعه بتمنعها، وابتعادها عنه إلى الانحراف، والسير فى طريق الفسق والفجور.

غير أن حنة، ظلت مصرة على موقفها، رافضة الاستجابة لمطلبه الخاص بمرافقته فى الفراش، بل وراحت تهدده بأنها ستشرب سماً، وتقتل نفسها، إن هو حاول الاقتراب منها، والحقيقة أن الدافع الأكبر لموقفها، هذا، كان سبباً طبيعياً دفعها إلى رفض حدوث ذلك الأمر بينها وبين زوجها تماما، إذ أن جسدها القصير، الضئيل، أصلاً، انكمش كثيرا، وبات أكثر ضآلة، فى سنوات شيخوختها الأخيرة، ولم يعد قادرا على تحمل ثقل سبعة وثمانين كيلو جراما من اللحم البشرى، هى ما آل اليه وزن الزوج، آنذاك، وعندما كانت تواجهه بهذه الحقيقة أيضاً، كان يتحول غضبه إلى بكاء مرير، متهماً إياها بأنها باتت تكرهه، وتعيره بما أصبح عليه حال جسده من سمنة وترهل، بعد أن كان رشيقا، ممشوقاً، قوياً، كعود الخيرزان، ثم أنه كان يأخذ عندئذ فى نعى حظه العاثر، الذى أوقعه فى زوجة مثلها، لم ير معها يوماً واحداً حلواً فى حياته، فهى نكدة، معقدة، خالية من الأنوثة، كان الأليق بها ألا تتزوج وأن تلتحق بدير من الأديرة مدى الحياة.

ولما صارت حنة فى كل مرة تحدث بينهما مثل هذه المشاحنات، تبدو كصخرة لاتتزحزح من مكانها، ولا ترجع فى قرارها العنيد، الذى لايضعف حتى عند سقوط دموعه الحاره، ابتدع أسلوبا جديداً للضغط عليها، فأخذ يشتكيها لأبنائها، قائلا لهم أنها تتفنن فى إيلامه وتعذيبه، وأنها باتت تهمله ولاترعاه، وتمضى معظم وقتها فى الاسترخاء والنوم، ولم يتطرق بالطبع إلى علاقتهما الخاصة لأنه كان، كحنة، قد استمع جيداً إلى دروس أبيه فى هذا الجانب، أيضاً، مكتفياً بأن يفهم أبناؤه ما بين السطور، فى كلامه لهم، لكن الأبناء، لم يفهموا ما قصده أبوهم، أبداً، لأن عقولهم كانت منصرفة عن مثل هذه الأمور، باعتبارهم يقومون بالكاد بواجباتهم الزوجية، المتعلقة بالجزء السفلى من الجسد، بسبب الإرهاق الذى يعانون منه كغيرهم، فى مواصلات المدينة، وكافة جوانب حياتهم اليومية المنهكة للقوى، مما يجعلهم يعودون إلى بيوتهن، آخر كل نهار، متعبين، إلى الحد الذى لا يتمنون معه إلا الدخول الى السرير، للنوم، وإراحة أجسامهم المكدودة، ثم لأنهم كانوا يظنون أن علاقة أبيهم الخاصة، بأمهم، فى هذا الجانب، قد انقطعت منذ زمن طويل.

بعد أن جرب الزوج كل وسيلة تجعل حنة ترعوى وتثوب إلى رشدها، فتلبى مطالبه الزوجيه، وأيقن أنه لاجدوى معها أبداً، بالأساليب السلمية، التى صدت كل باب فى وجهها، والتى كان منها أنه اصطحبها إلى حديقة الحيوان مرة، ومرة أخرى الى السيرك القومى، الذى لم تكن قد رأته على الطبيعة أبداً، ثم أنه دعاها للعشاء على فته كوارع بالحسين، وبعد أن عدم كل طريقة من الطرق الممكنة، التى تجعله مقبولاً، مرغوباً، من وجهة نظرها، أضطر للجوء إلى الجفاء والقسوة، وخصوصا وأنها تجاهلت جهده فى الاعتناء بهندامه وصبغ شعره الأبيض بالأسود، وحرصه على حلاقه ذقنه وتهذيب شاربه، ورش نفسه عند كل خروج، ودخول، بكولونيات "ثلاث خمسات" التى يمكن استخدامها لتطهير الجروح، لإحتوائها على نسبة

مرتفعة، جداً، من الكحول الأبيض النقي، وبات يشتمها ويثور في وجهها لأسباب بسيطة، وعادات هي سيئة في الحقيقة، لكنها لا تستحق كل هذا التجريح، مثل كونها تعيد عيدان الكبريت، بعد إشعالها، إلى العلبة مرة أخرى، أو أن تصر على شرب الحلبة الحصى المغلية وهي جالسة في السرير واللحاف فوقها، صحيح أنه لم يضربها أبداً مثلما يفعل أزواج كثيرون مع زوجاتهم، لكن تلك الإهانات التي باتت تسمعها حنه موجهة لها، صارت تؤلمها وتؤذي مشاعرها إلى أقصى حد، بل إنها صارت تستفز وترد عليه وهي التي لا تحب ذلك أبداً، لأن احترام الزوج واجب، غير أن كيلها طفح، خصوصا عندما، أصبح يسخر منها ويقول لها أنها قصيرة كيد الهاون، ويحاول إغاظتها أمام أحفادها الصغار، عندما يأتون لزيارتهما، فيحكي لهم حكاية السيدة القصيرة، التي لديها مقشة بيد قصيرة، وسريرها بأرجل قصيرة، وناموسيته قصيرة، وحنفيتها بخرطوم قصير، وكيف اشتكت للقاضي ذات يوم، وهو جالس يحكم بين الناس، من ذبابة ضايقتها وسقطت في طبق العسل، الذي كانت قد وضعته لتأكل منه، فما كان منه إلا أن أعطاها منشة، ذات يد طويلة، وقال لها : كلما رأيت ذبابة نشيها، وبينما هي جالسة أمامه تنظر اليه، إذ رأت على عمامته البيضاء الضخمة ذبابة تقف في اطمئنان، فما كان منها إلا أن سارعت برفع المنشة، وهوت بها على رأسه، فغضب منها غضباً شديداً، لأنها آلمته، وجعلت الحاضرين يضحكون عليه، فأمر بمدها في الفلقة، وضربها على قدميها عشرين ضربة، حتى لا تفعل ذلك مرة أخرى، وتكون عبرة لكل من لا يعتبر.

الشئ الذي لم تتصور حنة أن يصدر في حقها من زوجها، في أي يوم من الأيام، كان اتهامه لها ذات مرة، بأنها تبتسم في دلال لبائع الفول المدمس الجوال، الذي يتعاملان معه منذ زمن بعيد، وقال أنه كان، ولابد، يغازلها وهي تستجيب لغزله بتلك الابتسامات الناعمة التي رآها على وجهها

بنفسه، فلما شرحت له أن البائع، كان يقص عليها حكاية الولد الصغير، الذى خدعه، وأعطاه عملة ليبية على أنها مصرية، من فئة العشرة قروش، فابتسمت لشقاوة الولد، وقالت الفوال يعوض الله عليك، لكن الزوج لم يصدقها وتوعدها بقطع يدها، إن رآها تمتد، مرة أخرى، بأى طبق لبائع الفول، مهما كان الأمر، مفضلاً، بذلك، تحمل مشقة الذهاب إلى مطعم بعيد عن شارعهما لشراء الفول كل صباح.

ثم أنه بعد ذلك امتنع نهائيا عن شراء الملبن بالجوز، الذى تحبه حنه، ومنع عنها المصروف الشخصى، باعتبارها زوجة متمردة سادرة فى غيها، دونما شفقة أو رحمة، منها تجاهه، فباتت تجد صعوبة فى شراء الحلوى الرخيصة، والهدايا الصغيرة، التى كانت تشتريها لأحفادها، من ذلك المصروف المقرر لها شهرياً، وفى السنتين الأخرتين اللتين سبقتا قتلها له، بدأ الزوج فى عزف نغمة جديدة على حنه تماما، وهى أنه بصدد البحث عن إمرأة أخرى بدلاً منها، وأنه سوف يقوم بطردها من البيت.

لم تكن فكرة المرأة الجديدة هى التى أرعبت حنه، رغم ضيقها الشديد منها، ولكن رعبها كان مبعثه فكرة الطرد، لأنها لم تكن تعرف مكاناً آخر يمكنها العيش فيه غير بيتها، الذى عاشت بين جدرانه على الحلوة والمرة خمساً وأربعين سنة، ولأنها لا يمكن أن تلجأ لأحد ابنائها للعيش عنده، فالأكبر منهم، يقيم فى شقة صغيرة مكونة من غرفتين ومنافعهما، ولديه ولدان وبنتان، يكفيهم المكان بالكاد، إضافة إلى أمهم، وأبيهم، الذى اضطر لتحويل الشرفة الملحقة بغرفة نومه مع زوجته، إلى مكان لنوم البنتين، لأن الحجرة الأخرى كانت مخصصة لنوم الولدين. أما الأوسط، فهو يعيش مع زوجته فى إحدى الغرف ببيت أهل هذه الزوجة، وحياته، باتت جحيماً، بسبب تلك المعيشة، المشتركة، إذ تتدخل حماته فى كل كبيرة وصغيرة، من تفاصيل حياة ابنتها، وترصد دوماً كل ما يدور بينها وبين زوجها، الذى يبذل جهداً كبيراً لئلا تفسد الحماة ما بينه وبين أمرأته، فيضطر لفراقها.

أما الصغير، فزوجته لا تطاق وهى لاتطيق أهله، كذلك، ثم إنها متكبرة، تعامله بإستعلاء، لأنها، هي التى حلت مشكلة المسكن، وأنفقت على تأثيث شقة الزوجية، الشطر الأكبر، من النفقات، من مدخراتها الخاصة، بالإضافة إلى إسهامها بشكل رئيسى فى دخل الأسرة، بسبب اشتغالها فى فندق سياحى، بينما زوجها ليس إلا مهندساً مغموراً فى إحدى المصالح الحكومية. كل هذه الأسباب، كانت تجعل إمكانية لجوء حنة إلى أى واحد من أبنائها، وإقامتها عنده ضرباً من المستحيل.

فى الاسابيع الأخيرة، التى سبقت قتل حنة لزوجها، باتت شبه مجنونة، يلتهمها القلق، فقد أصبح الزوج العجوز يتغيب كثيراً عن البيت خلافاً لعادته، وعندما يظهر، يحادثها فى أضيق الحدود، وبجفاء واضح، كما أنه امتنع عن مشاركتها الطعام، أو الجلوس للفرجة على مسلسل السابعة والربع فى التليفزيون، فلم تكن المسألة كما ظنت بحاجة إلى ذكاء كبير، لتستنتج أن زوجها لا بد وأن يكون قد ارتبط بإمرأة أخرى، وبالتالى، فإن مسألة بقائها فى البيت، أصبحت مسألة وقت، فقط، لا غير لكن الحقيقة أن حنة، التى لم تكن قد درست أبداً نظرية الاحتمالات، لأن تعليمها توقف عند السنة الخامسة الإبتدائية، لم تعرف، أبداً، أن الزوج، كان يمضى جُلّ وقته خارج منزله، فى الفرجة على أفلام جنسية فاضحة، عبر جهاز ڤيديو، عند صديق تعرف عليه فى المقهى، وذلك مقابل خدمات صغيرة، أو هدايا محدودة، كان يقدمها لذلك الصديق.

غير أن الترجيح المطلق لمسألة المرأة الأخرى عند حنة، كان كفيلاً باستعار نار حامية فى صدرها، وتصاعد قلق حطّم أعصابها، لأن ذلك كان معناه الإلقاء بها فى الطريق، بمجرد وصول هذه المرأة، إلى البيت لتحل محلها.

فى أحد الأيام، وبينما هى تفتش جيوب أحد بناطيله لتخليها مما بها، قبل أن تغسله، عثرت على صورة امرأة محجبة، لا يتعدى عمرها الأربعين،

ذات عينين جميلتين، لا تخلو نظراتهما من جرأة وشقاوة وفم شهوانى لا يلزمه الطلاء باللون الأحمر لإحداث المزيد من الإثارة، وبمجرد أن تأملت الصورة، ارتمت منهارة على السرير، ولم تنتبه لدبوس المشبك، المفتوح، الذى شكها فى يدها، وهو واحد من دبابيس كثيرة، تجدها عادة فى جيوبه، قبل تنظيف ملابسه، كان يشتريها فى الأتوبيسات، من الباعة الجائلين، الذين يصعدون إليها، ضمن ما يشتريه منهم، من باغات ليافات قمصانه، وأمواس حلاقة، وبلى النفتالين وإبر خياطة، ومطاط لدكك ألبسته الداخلية، وأشياء أخرى عديدة يعود بها إليها، باعتباره من هواة الشراء من هؤلاء الباعة دون سواهم، لا لشىء إلا لاستمتاعه بطريقة نداءهم، لترويج بضائعهم، وهى الطريقة التى تتخللها، أحياناً، قصص مأساوية مؤثرة يحكونها بسرعة قبل سير الأتوبيس، وكذلك أغنيات قصيرة على غرار أشعر الأغنيات، التى تبث دون كلل ولا ملل، من المبنى الضخم الواقع على ضفة النيل، مع تعديل بسيط فيها، وهو أنها أقل تسبباً فى وجع الدماغ، لقصرها النسبى وعدم جنوحها للإطالة بحكم ضيق الوقت المتاح لها.

استدعت تلك الواقعة، التى هى، بمثابة، سابقة خطيرة للزوج، أن تفكر حنة على نحو جدى، فيما سوف تفعله لتواجه المصيبة وشيكة الحدوث، لها، فلقد أيقنت تماماً، أن موضوع المرأة أصبح حقيقة لا شك فيها، لذلك فكرت، فى البداية، أن تقتل نفسها، وتستريح، لكن فكرة الإنتحار كانت صعبة التحقيق، بالنسبة لها، لأن روحها صعبت عليها، ثم لأنها لم تفعل شيئاً، آثماً، تستحق عليه ذلك، لهذا، فكرت فى ضرورة التخلص من الزوج، إذ ليس أمامها غير ذلك، على أن يتم الأمر دون علم أى انسان، غيرها، ودون أن يشعر هو بذلك أولاً وقبل كل شىء.

بعد اتخاذها لهذا القرار الخطير، بدت حنة إنسانة مرحة، تتصرف مع زوجها بهدوء، وتقابل شتائمه لها دون أدنى مبالاة، كما كان يحدث عادة،

صحيح أنها ظلت، على حالها، لا تسمح له بالإقتراب منها، لكنها كانت تعامله برقة الحريص على صحته، المهتم بشؤونه، خشية أن يكتشف ما تنوى أن تفعله به،

فى إحدى الأمسيات الشتوية الباردة، قامت حنة بوضع وعاء مملوء بالماء على موقد الغاز، بعد أن استمعت جيداً إلى شخيره المستمر الشبيه بنقيق ضفدع، والذى طالما تعودته بعد أن ينام، مما أكد لها دخوله فى سابع نومة، وفتحت أنبوبة الغاز عن آخرها، وأحكمت إغلاق نوافذ الشقة، ثم تسللت لتقضى بقية الليل فى شرفة الصالة، بعد أن تلحفت ببطانية، سميكة، وجلست مستندة بظهرها إلى الباب الذى أغلقته، من الخارج، حتى تضمن ألا يُفتح، فيسمح بدخول الهواء إلى الشقة، وباتت ليلتها على هذا الوضع حتى طلوع النهار.

لم يصدق البوليس- كما قلنا من قبل- حكاية وفاة الزوج قضاءاً وقدراً، متأثراً باستنشاق الغاز حتى الاختناق، لأنه عندما ما وصل إلى الشقة، إثر استدعاء عاجل، من جيران حنة، على ضوء صراخها ولطمها، كانت هى بصحة جيدة، ولا تعانى من أية أعراض للإختناق كالإعياء وضعف التنفس، بل، وكانت تبدو متماسكة، ولم يلحظ رجال البوليس عليها سوى أنها كانت تكح كحة متقطعة، لسبب لم يكن واضحاً لهم، بالطبع، وهو أنها باتت طوال تلك الليلة الباردة فى الهواء الطلق. لكنها كانت أيضاً، تبكى بكاءاً صادقاً، لشعورها بالحزن، بعد أن فقدت رفيق عشرة لخمسة وأربعين سنة بالتمام والكمال، ولما واجهتها النيابة، بعد ذلك، فى التحقيق الذى أجرته معها، بالمفارقة المتمثلة فى حالتها الصحية السليمة واختناق زوجها، رغم وجودها، فى الوقت ذاته، بالبيت أثناء وقوع الحادث، ادّعت حنة أنها نامت ليلتها فى الصالة التى تبعد عن المطبخ، لأن الزوج الميت، كانت تزعجه كحتها المستمرة، وكاد البوليس أن يصدق هذه الحكاية، لولا أكتشاف النيابة المعاينة للحادث لخطأ ساذج ارتكبته حنة وهو تركها

مفتاحى شعلتين من شعلات الغاز مفتوحين بدلاً من مفتاح شعلة واحدة كان موضوعاً فوقها قدر الماء، لأنها على ما يبدو كانت متلهفة على تسريب الغاز بأكبر كمية ممكنة بحيث تكفى للموت فى أقل وقت، خشية أن يفيق الزوج، وينتبه، لرائحة الغاز المنتشرة فى البيت.

كان من السهل بعد ذلك توجيه تهمة القتل العمد لحنة، لوجود أدلة أخرى عديدة، على ذلك، لم تكن مفاتيح الغاز إلا مفتاحاً بسيطاً لها، لكن حنة، ظلت طوال الوقت مصرة على أقوالها، التى أدلت بها أول مرة، لا تحيد عنها، رغم تضييق الخناق عليها بالأسئلة، والطريف أنها كانت تبدو وكأنها مصدقة تماماً لروايتها، بل وتغضب بشدة كلما واجهتها النيابة بتهمة القتل، وكأنها تتبلى عليها بشىء لم تفعله قط، وهكذا ظلت طوال فترة التحقيق، معها، ومحاكمتها، فى حالة شديدة من الضيق لشعورها بظلم صارخ، واقع عليها، ولغيظها من النيابة، التى ظل ممثلها، أثناء ذلك، يعيد ويزيد فى التهم التى كالها لها، مصوراً إياها على أنها وحش بشرى عجوز افترس ولى نعمته وأقرب الناس إليه، مخالفاً بذلك كل النواميس الأخلاقية، والشرائع السماوية المقدسة، التى تنص عليها كافة الأديان.

لكن حنة بمجرد صدور الحكم، شعرت بارتياح من ألقى حملاً كان يثقل ظهره، وأخذت من خلف القضبان تهدىء روع أبناءها الذين شرعوا فى البكاء، مطمئنة إياهم بأنها سوف تكون بخير، بل وأخذت توصيهم على الأشياء التى يجب أن يوافوها بها، عند زيارتهم لها، فى السجن، ومن ضمنها ملبن محشو بالجوز، وإبرة كيروشيه معقوفة الطرف، وخيوط قطنية من ذلك النوع المستخدم فى التنجيد.

كانت اللحظة السعيدة، الحقيقية، التى شعرت بها حنة منذ مقتل زوجها، هى لحظة استقرارها فى عنبر الضعفاء مع عجائز أخريات أصابهن الضعف والوهن، فلقد اطمأنت إلى أن هناك مأوى يؤويها فى أمان، خلال، البقية الباقية من أيامها فى الدنيا، لأنها كانت ترجح الموت،

على الحياة، خلال السنين العشر، التى حُكم أن تقضيها فى هذا المكان، لكن ذلك لم يمنعها من الحلم بحياة أفضل إذا ما عاشت بعد انتهاء فترة السجن، فكانت تراودها أحلام يقظة بأن تعيد تنظيم أثاث الشقة وفقاً لذوقها ورغبتها خلافاً لما كانت قد تركته عليه من وضع وترتيب وفقاً لذوق زوجها، كما أنها فكرت فى ضرورة تأجير الحجرة، التى مات فيها، مفروشة، باعتبارها أوسع حجرات البيت، لطالبة أو اثنتين، من اللواتى يأتين من الأقاليم للدراسة فى الجامعة، كما تفعل جارتها، التى تسكن فى الطابق السفلى بالعمارة، ثم أنها ستأكل كما تشاء وفقاً لذوقها وخيارها فى الطعام، بل وستعود من جديد إلى طبخ السبانخ التى توقفت عن طبخها لأن زوجها مُنع من أكلها بسبب الألتهاب الكلوى الخفيف الذى كان يعانى منه، الأكثر من ذلك، هو أنها سوف تشترى لحافاً جديداً، بدلاً من ذلك القديم المهترىء الذى يعود تاريخه إلى زمن الزواج القديم، وهو اللحاف الذى ترجت الزوج مراراً أن يعيد تنجيده وتجديد كسوته، دون جدوى.

أثناء ذلك، كانت عزيزة تضع خطة أخرى لحنة، خطة أجمل وأعظم من خططها الدينوية الصغيرة، فهى ستصحبها معها إلى السماء، ستضمها إلى العربة الذهبية ذات الأفرس البيضاء السحرية المجنحة، التى ستطير وتعلو، بينما تعزف لها آلهة الموسيقى والطرب، ألحاناً كتلك الألحان التى سمعتها ذات يوم بعيد تعزفها فرقة الجيش الموسيقية بمدينتها، وهزت أعطافها، وعندما تصبح العربة وسط السحاب، وتتهادى على صفحات الأثير، سوف تنسى حنة السبانخ واللحاف والزوج الذى قتلها ألف مرة طوال خمس وأربعين سنة، ولم تقتله إلا مرة، واحدة، وستعرف وقتها كم تحبها عزيزة وتقدرها، وتسعى لأن تجعلها تحظى بكل سعادة، وتكريم يليق بها وتستحقه، باعتبارها واحدة من أولئك المظلومات بسجن النساء، بل، الأكثر، إنها سوف تجلسهما إلى جوار عظيمة الطويلة، التى هى أنبل

وأطول امرأة عرفتها عزيزة طوال فترة إقامتها فى هذا السجن.

للوهلة الأولى، تحدث لأى إنسان تقع عيناه على عظيمة الطويلة صدمة مفاجئة نظراً لغرابة منظرها، حتى أن مأمور سجن النساء ارتبك عندما رآها للمرة الأولى، بينما كان يستلمها لتصبح إحدى نزيلات السجن المسئول عنه، بل أنه خرج عن تحفظه الوظيفى وراح يسألها عن سر طولها الغريب.

وبالطبع لم تجب عظيمة إجابة شافية، لأنها لم تعرف أبداً سر طولها الغريب، فهى طفرة طولية بين النساء، إذ تجاوز طولها المترين، متجاوزة بذلك قامة أبيها بمقدار ربع المتر، رغم أنه كان يعتبر طويلاً بين الناس.

كانت عظيمة، حتى الثانية عشر من عمرها طفلة عادية، تبدو طويلة بعض الشيء بالنسبة لأقرانها من البنات، لكن طولها لم يكن ملحوظاً إلى حد يقلق أهلها، الذين كانوا يُعدونها للزواج، مثل بقية أخواتها، اللواتى يكبرنها، كفتاة عادية الشكل، سوف تجد رجلاً يُقبلُ عليها، ذات يوم، ويتزوجها، وقد تأكدت هذه الحقيقة بعد أن فشلت عظيمة فى الحصول على شهادة إتمام الدراسة الإبتدائية، مثل معظم تلاميذ تلك المرحلة، بسبب الفشل المزمن للسياسة التعليمية، وأصبحت متفرغة تماماً لإتمام تعلم الشؤون المنزلية، والمهام التى يتطلبها الزواج.

لكن مشكلة عظيمة بدأت فى الظهور بعد ذلك بقليل، إذ أخذ جسدها يتمدد تمدداً رأسياً على نحو مذهل السرعة، وبشكل واضح ساعد على وضوحه نحافتها الملحوظة، وغياب التناسق بين أعضائها، إذ كان نصفها الأسفل طويلاً، ممتداً، يتناقض مع قصر نصفها الأعلى وطول رقبتها، المنتهية برأس صغير ذى عينين واسعتين لا تخلوان من جحوظ، حتى أن الناظر إليها يظن أنها كانت فى الأصل مشروع زرافة ضلت طريقها لتصبح من النوع البشرى، وعندما بلغ عمرها السادسة عشرة، كان طولها قد وصل إلى حد تبدو معه أطول من أى إنسان موجود بالمكان، الذى هى

فيه، بفارق كبير، مما أدى إلى تعرضها لكميات هائلة من السخرية، سواء وهى سائرة، فى الطريق، أو حتى داخل البيت، فباتت تعانى معاناة نفسية فظيعة، لا بد أن تعانيها فتاة فى عمر المراهقة، إذا ما تعرضت لذلك، لأن هاجسها، فى عمر كهذا، أن تكون محبوبة مقبولة من الناس عموماً والجنس الآخر خصوصاً، وقد وصلت تلك المرارة النفسية بها إلى حد الإقدام على محاولة انتحار، فشلت، لأنها عندما ألقت بنفسها من شرفة بيت أهلها، الواقع فى الدور الرابع، بإحدى العمارات سقطت بالصدفة على عربة إسمنت كانت تعبر الطريق، فلم يصبها سوى كسر أحد قواطعها الأمامية، لأنه اصطدم بجانب من الجوانب الحديدية للسيارة التى مضت بها حتى نهاية الشارع، وظل ذلك الكسر تذكاراً، أبدياً، صغيراً، شاهداً على ذلك الحادث البسيط.

وإذا كانت تلك الواقعة لم تترك بصماتها، بما يكفى، على حياة عظيمة، فإن واقعة أخرى حولت مجرى حياتها تحويلاً كاملاً، فبعد ذلك بشهور قليلة، مات عم لها فى ريعان شبابه، ميتة مأسوية، اهتزت لها مشاعر كل من سمع تفاصيلها، إذ أنه بعد أن أنقذ أمه وأباه، وشقيقاته الثلاث من موت محقق، بعدما بدأ المنزل الذى يقطنون فيه بالإنهيار، بشكل مفاجىء، أثناء الليل، توسلت إليه جارة لهم، أن ينقذ أمها المشلولة، من الموت، فسارع الشاب بحمل العجوز، التى كانت قد زحفت حتى وصلت إلى إحدى الشرفات، وألقى بها إلى الحشد المنتظر ليتلقفها منه أسفل المبنى، لكن قطعة ضخمة من الحجر سقطت، فور وصول العجوز سالمة، على رأس الشاب فحطمته، على الفور تماماً.

عندئذ شهد الحى، الذى جرت فيه الواقعة، مأتماً لذلك الشاب الشهيد، لم يحدث مثله منذ أيام مأتم شهداء ثورة ١٩١٩، حيث تشارك الناس فى نصب أكبر شادر عزاء ممكن، وجلبوا أفضل مقرىء للقرأن تصل إليه فلوسهم، لتلاوة ما تيسر من أى الذكر الحكيم، بعد أن شيعته، حشود

كبيرة، حتى مقره الأبدى، فى مشهد مهيب شارك فيه طوب الأرض، وأدى إلى تعطيل المرور فى شارع محمد على، المتجه إلى القلعة لمدة نصف ساعة، زادت إلى ساعتين، بعد ذلك، رغم انتهاء مرور الجنازة، لأن السيارات كانت قد زحفت على شريط الترام القديم، بينما كان العسكرى المنظم للمرور مشغولاً بتناول شقتى رغيف بطعمية، لأنه ظل على لحم بطنه، ولم يذق طعاماً منذ بداية اليوم، حتى الظهر، وقت مرور الجنازة.

بعد تشييع الجنازة، كانت النساء قد تجمعن، فى ساحة صغيرة، أمام بيت الأسرة المنكوبة الجديد، الذى لم يكن إلا بيت أهل عظيمة، حيث سالت دموع تكفى لغسل ميت آخر غير الفقيد، ولفرط التأثر والإنفعال، سقطت عدة نساء، كن قد بذلن جهداً جباراً فى الصراخ واللطم، فى حالة إغماء، وكانت منهن أم المتوفى، وخطيبته خائبة الرجاء، التى شاركت تلك التى لم تصر حماتها فى التعبير عن الألم.

عندئذ، تفتقت مواهب عظيمة، على نحو لم يحدث من قبل، عن شاعرة ندابة، قادرة على قول كلمات رثاء بليغة، شديدة التأثير فى النفوس، عبر صور حافلة بالجناس والطباق والتشبيه والاستعارة، وكل ألوان البديع الأخرى، مستندة، فى ذلك، إلى خيال جامح، اكتشفت وجوده آنذاك، ونفس شعرى طويل، مشابه لطولها الجسدى، وقد ساعدها فى ذلك، إضافة إلى الدور البطولى للفقيد، أنه كان على جانب غير قليل من الوسامة، أتاح لها التغزل فى محاسنه الجسدية، التى لم ينقض على مواراتها الرديم إلا وقت قصير، مما زاد شعور خطيبته بفداحة مصابها فى الفقيد الذى قد لا توفق فى الإرتباط بمثله، مرة أخرى.

منذ ذلك اليوم، باتت عظيمة هى الندابة المعتمدة فى الحى، وامتد نشاطها، بمرور الوقت، إلى الأحياء المجاورة الأخرى، فصارت تقصد، عند حدوث أية نازلة تلم بعائلة من العائلات. عبر ذلك، اكتشفت عظيمة طريقها، فى الحياة، وهو الطريق الذى جعلها قادرة على التكيف مع محيط كان،

قبل ذلك، يعرضها دائماً لأبشع الآلام النفسية، التي يمكن أن تعيشها فتاة، بسبب السخرية الدائمة منها، ومن طولها الذي لا يتلائم مع معايير الأنوثة، التي وضعت منذ أزمان بعيدة، المتطلبة لتوافق طول المرأة مع وظيفتها المقررة لها، كمطية للمتعة الذكورية، ووسيلة لإنتاج النوع البشري.

لذلك، تضاءل الهاجس الذي طالما أرق عظيمة، والذي أيقن أهلها باستحالة تحققه، على أرض الواقع، وهو هاجس الإرتباط، عبر الزواج، بكائن من الجنس الآخر، وقررت أن تهب حياتها لدنيا الندب، التي وجدت تحققها الكبير فيها، وباتت، ذات حيثية، في محيطها الإجتماعي من خلالها، وكان ذلك يتطلب، بالضرورة، أن تبدو عظيمة في مظهر، وقور يليق بهذه المهمة الحزينة، يختلف عما كان عليه مظهرها، قبل ذلك، فصارت حريصة على إرتداء الملابس السوداء، الطويلة، عند الخروج، وكان ذلك ملائماً لها، من أجل إخفاء ساقيها العظميتين عن النظر، كما أنها صارت لا تظهر، في أي مكان بدون طرحة، من الشيفون الخفيف، على رأسها، تقمطها بقماط أسود من الحرير الصناعي، الشيء الوحيد الذي ظلت عظيمة تحافظ عليه من زينة النساء هو الكحل الأسود، الذي تضعه، في عينيها، بمجرد أن تفيق، في الصباح، وتغسل وجهها، والذي لم يمنح عينيها غير المزيد من الإتساع والحزن، مما يجعلها تبدو وكأنها امرأة لم تخلق إلا للهم والأسى.

بمرور الوقت، اكتسبت عظيمة خبرات فائقة في مجالها، فقد باتت تختار المراثي الملائمة لحالة كل فقيد، يحرص أهله على رثائه، بحيث تتماشى مع سنه وملابسات موته، وصفاته الجسدية، فإذا كان طويلاً عريضاً يسد الباب، كأنور وجدي في أفلام الأربعينات والخمسينات، فإنها تقول: طول بعرض، تحضنه الأرض، وإذا كان نحيلاً رقيقاً تقول: عصفور محني، خطفه الموت مني، وكانت تبدع وتتألق إذا كان الميت شاباً، أو فتاة جميلة لم تفقد عذريتها، بعلم الدولة في سجلات الزواج الرسمية، فتجعل

قلوب السامعين تتفجر بالأسى والحزن، وقد وصلت شدة تأثيرها عبر الكلمات المنظومة، وقدرتها على التشبيب الحزين، إلى حد تعرضها، أحياناً، لمشاكل من أقارب الميت، أنفسهم، ففى إحدى المرات هددها شقيق أحد المرثيين بالضرب، إن لم تكف، عن الندب، وتغادر المكان فوراً، لأن أمه فاجأتها أزمة قلبية، حادة، لشدة انفعالها، وفرط حزنها، على ابنها المتوفى، وهو الحزن الذى كانت تؤجج ناره المرثية، الرجزية، المطولة، التى أتقنت عظيمة إلقاءها فى مأتم ذكراه السنوية الأولى.

بالإضافة لذلك، واستكمالاً لإجادة دورها، الذى باتت تتلقى عليه أجراً، ويدر دخلاً كافياً لمواجهة متطلبات الحياة، أخذت عظيمة تطالع بعض المواعظ، والخطب الدينية، لتلقيها فى المآتم، وحفظت حفظاً متقناً لا يشوبه لحن، سورة الرحمن، إلى جانب بعض قصار السور، التى كانت قد ترسبت فى ذاكرتها منذ أيام المدرسة الإبتدائية، فأصبحت تتلوها بصوت حرصت أن يكون رخيماً، قدر مستطاع حنجرتها، التى لم تكن تلبى متطلبات عملها كقريحتها المتوقدة، أما فى فترات الإستراحة، حيث كانت تلين صوتها باليانسون أو الجنزبيل، الذى يقدمه لها أهل المتوفى، أو عند الجلوس لطاولة الغذاء لالتهام اللحم المسلوق والثريد، فإنها كانت تقوم بتفسير الأحلام على ضوء منهج إبن سيرين، بتصرف كبير، إذ كان خيالها يمدها بحلول سعيدة، ترضى صاحبة الحلم وتشرح صدرها.

لم يشكل إنتشار، ورواج، عادة إستخدام شرائط الكاسيت، المسجلة عليها سور بأصوات كبار، ومشاهير، مقرئى القرآن، المعتمدين من الأزهر، والإذاعة، أية مشكلة لعظيمة، التى لم تجد فى ذلك منافسة حقيقية تخشى منها كساد عملها، ولم تخش تأثير الجماعات الإسلامية، التى تحرم ندب المتوفى، ورثاءه، لأنه يتنافيان وتعاليم الدين الحنيف، فالإقبال عليها كان يتزايد مع مرور الأيام، لسبب لم تعرفه، أبداً، كان يعود إلى كونها تلقى بنوع من النظم يلبى حاجة مفتقدة، عند الناس، بسبب كلمات الأغانى

السخيفة، التى يفتعلها شعراء العامية، والمفروضة عليهم ليل نهار فى أجهزة الإذاعة والتليفزيون، وتلك الأشعار الغامضة، التى تنشر فى الصحف والمجلات، بين الحين والحين ولا تعبر عن أية قضية تخصهم أو تخاطب مشاعرهم، ويكتبها شعراء يصفون أنفسهم بالحداثة، أو آخرون، عفا الزمن عليهم، يصرون على ضلفتين من الشعر ينسجون بها، نسيجاً اهترأت خيوطه، على غرار قدماء الشعراء، حيث الفروسية لم تعد موجودة، لأن الناس لم يعودوا يتعاملون مع الأفراس فى حياتهم اليومية الصعبة، التى غابت عنها كل ملامح النبالة الأخلاقية فى خضم الصراع الشرس من أجل البقاء.

بعد ذلك بسنوات، حيث تنصبت، بين الناس، كندابة بارعة معترف بها، لا يرقى إلى مستواها وحذقها شك، سلكت عظيمة طريقاً أخرى، إضافية، أضافت رصيداً جديداً، إلى رصيدها المالى، الذى كانت تؤثر الإحتفاظ به، فى يديها وعلىَ جيدها وصدرها، على هيئة حلى ذهبية، بدلاً من وضعه فى بنك من البنوك، فأخذت تشارك فى الموالد والإحتفالات الدينية، بمواويل ومدائح دينية، لاقت ذيوعاً وانتشاراً، مستفيدة بذلك من إنجازات العلم الحديث، الذى ابتكر جهاز الميكروفون القادر على منح الأصوات الضعيفة قوة، سحرية، مبهرة، لأن عظيمة لم تتمتع بصوت متميز قط، لكن، بما أن كل من هب ودب بات يغنى، ليس فى الموالد فقط، ولكن فى الإذاعة والتليفزيون وشرائط الكاسيت، المنتشرة، انتشار النار فى الهشيم، من أعلى نقطة، بشمال البلاد، حتى اسفل نقطة، فى جنوبها، فإن عظيمة دخلت حلبة الغناء، من أعظم أبوابها، فى نظر الجماهير العريضة، من محبى الغناء، وهو باب الموال الدينى، الذى تفننت فى نظم كلماته، وبذلت جهداً صادقاً، ليخرج صوتها، المدعم بالقوة الكهربية، قوياً رخيماً بقدر المستطاع، مستفيدة بذلك من البحة التاريخية المكتسبة بفضل سنوات طويلة من الندب، وهى البحة التى طالما حظيت بإعجاب الجموع، التى

كانت تحتشد للإستماع إليها فى الموالد، والتى تجعلها جرعات، لا بأس بها من أنواع المخدرات المختلفة، تغالى فى تثمين ذلك الصوت، ذى البحة الحزينة، المغازلة للشعور، الكامن فى أعماق الوجدان، بالإنكسار والقهر وانقطاع الرجاء، باعتبارها قدر أبدى، لأسباب سماوية ربانية، لا تمت بصلة للبؤس المقيم، الذى تعيش فيه تلك الجموع.

لم تمض سنوات أخرى، إلا وكان لعظيمة، فرقة موسيقية خاصة، تصاحبها فى إحياء ليالى الموالد القاهرية، الشهيرة، كمولد الحسين، ومولد السيدة زينب وكذلك مولد السيد البدوى فى مدينة طنطا، ونظراً لتزايد انتشارها الغنائى، فقد باتت تلبى حاجة سامعيها ومحبى فنها، باعتبارها مطربة الموال الأولى، فتطبع مواويلها على شرائط مسجلة يحمل غلافها صورتها وهى تبتسم إبتسامة عريضة، لا تظهر على نحو الدقة، الأضراس الذهبية الثلاث التى فى فمها، وقد كُتب فوقها اسمها وتحتها مطربة الموال الأولى، وهو اللقب الذى منحته لنفسها على غرار الألقاب، التى باتت شائعة فى كل المجالات، لتضفى على أصحابها صفة التميز والتفوق، وقد حظيت عظيمة بإقبال جماهيرى من خلال هذه الشرائط، بسبب جنوحها فيها، إلى وصفية دينوية واضحة لحالات العشق والغزل فى شعرها، وهو جنوح تغطى بغطاء دينى، متخذاً شكل المديح فى صاحب البيت النبوى الشريف وأهله الكرام، سائرة بذلك على درب كل المداحين الشعبين، السائرين على درب جهابذة الصوفية، وعظمائها فى القرون الوسطى، وقد أجادت عظيمة فى هذا الجانب، إجادة حاذقة، بعد أن طعمت مواويلها بمقتطفات لم تخل من تصرف منها، من أشعار كبار أهل التصوف كابن الفارض، الذى طالما صعدت إلى جامعه بجبل المقطم، للدعاء والتبرك، وإبن عربى، وذى النون المصرى، وغيرهم من أهل الطريق الواصلين، هذه الاشعار، كانت عظيمه تحصل عليها مطبوعه طبعات شعبيه رخيصة من باعه الكتب، المنتشرين علي ارصفه ميدان الحسين او السيده زينب.

استدعى المجال الفنى لعظيمه، ان تستبدل ملابس المآتم السوداء، التى طالما ارتدتها فى الماضى، بأثواب ملونة حريرية طويلة، مشغولة بالخرز والترتر، من باب الاناقة، وطرحة تتناسب ولون الثوب، الذى ترتديه معها، ومع قماط الرأس، الموشى، بخيوط ذهبية أو فضية، حسب الأموال، ثم أنها اكتشفت أن الكحل الحجرى الأزرق، الشائع بين فلاحات الدلتا، يلائم عينيها، على نحو أفضل من ذلك النوع الأسود، المصنوع من هباب قطنة، مشتعلة، بعد غمسها فى الزيت، وقد كان ذلك كله، لأجل جمهورها الحبيب، الذى حرصت على أن يطالعها وهى فى أجمل صورة، ممكنة، بالنسبة لامكانياتها المحدودة، فى هذا الجانب، وهو الجمهور الذى أصبحت تتخلى عن الندب، تدريجياً، ليس لأجله فقط، ولكن لأنها اغتمت طوال سنوات شبابها بما يكفى، وباتت لا تذهب إلى المآتم، إلا فى حالات نادرة للغاية، يكون فيها العائد المالى مجزياً، يستحق عناء النكد والغم.

غير أن حادثاً ثالثاً، تلاعب بسيروة حياة عظيمة، الطويلة، وهو الحادث الذى لو لم يقع، لاختلف مصيرها تماماً، إذ كان من المحتمل، أن يكتشف مواهبها، فنان عاشق للفن الشعبى، كزكريا الحجاوى، أو أن تنضم إى أولئك المطربين الشعبيين، الذين تجلبهم الثقافة الجماهيرية، وتضعهم على المسارح كالفجل بطينه، ليستريح ضمير الدولة، من ناحية الإهتمام بالثقافة الشعبية ورعايتها.

ولم يكن ذلك الحادث من الحوادث البسيطة العابرة فى حياة شاعرة موهوبة، مرهفة، مأساتها أنها لم تأت فى زمن كالزمن الذى جاءت فيه الغناءة "ساڤو" لكن مواهبها تفتقت، فى زمن يضع الثقافة فى نهاية جدول أعماله، لا لشىء إلا لكى لا تغيب عن قاموسه اللغوى، فبعد أن بلغت عظيمة الأربعين وقعت فيما لم تقع فيه من قبل أبداً، إذ دخلت فى شباك الهوى والعشق، كحمامة بريئة تتعلم الطيران لأول مرة فأوقع بها صياد ماهر، لم يكن إلا أحد أفراد فرقتها الموسيقية، مما بدّل حالها، وأمد روحها بقصائد

عشق مجنونة، جن بها الناس، كانت موجهة لسيدنا الحسين دون سواه من أهل البيت النبوى الشريف لأن حبيب الغفلة كان أسمه حسين، أيضاً، وهو ناياتي غير بارع العزف، انضم إلى فرقتها عن طريق عازف الربابة الأول، فى الفرقة نفسها، والذى كانت قدماه قد حفيتا بحثاً عن ناياتى جيد المستوى، دون جدوى، لأن معظم الآلاتية باتوا يفضلون العمل فى فرق شارع الهرم، والملاهى الليلية بالمدينة، دون الانضمام إلى الفرق الشعبية، المرتبط عملها بمواسم الموالد والأعياد.

وكان ذلك الحسين من، أولئك، الذين يعرفون كيف يضعون أيديهم على كتف المرأة، فبعد أن تفحص بنظراته جسد عظيمة، موقناً أن به مالا يستحق التقدير، سوى الذهب الوفير، المستريح، على ذراعيها، وحول جيدها، وفى أذنيها، أخذ يرميها بنظرات الغرام والوله، بعد أن ساعدته خبرته الطويلة، فى الغرام والعشق، على اكتشاف حاجتها، الحقيقية، إلى رجل، ليس، فقط كجسد ظامىء بحاجة إلى الإرتواء، ولكن كروح شاعرة تنشد العشق والجمال.

أمد العشق عظيمة بطاقات أخرى، تفجرت ليس بروحها، فقط، بل، بجسدها، أيضاً، فأخذ فى الامتلاء، لأول مرة طوال تاريخها، صحيح أنها باتت تشبه ساتراً من السواتر الطوبية، التى كان يجرى بناؤها، أمام مداخل البنايات، أثناء كل حرب من الحروب، التى خاضها جيشنا ضد إسرائيل، لكن شكلها على أية حال، بدا أفضل، بعد أن استدار وجهها، الذى امتلأ باللحم، فاندس أنفها المطوط، داخله، وباتت تعيش، كحقيقة واقعة، حلم عمرها المستحيل: أن تسمع كلمات حب رقيقة، من رجل فى هذه الدنيا، فأغدقت عظيمة على عاشقها كل ما يمكن أن تغدقه امرأة متفانية فى عشقها لرجل، إبتداءً من حرٍّ مالها، الذى جلبته بفنها، وجمعته من جيوب عشاقها، ومحبيها، من فلاحى القرى البعيدة، فى الريف، وفقراء المدينة، الذين كانوا يحجون إليها، طالبين طربها، وانتهاء بجسدها

الضخم محدود الخير الأنثوى.

لم تمض فترة إلا وكان النایاتی، سید روحها، وسید فرقتها الموسيقية، أيضاً، بعد أن تقهقر عازف الربابة الأول إلى الموقع الثانى، وأصبح العشيق، الذى كان يعرف، جيداً، كيف يركب الموجة، آخر الأمر، مديراً لأعمالها، والمتحكم فى كل مسألة تتعلق بحياتها، والأمر الناهى صاحب الكلمة النافذة عليها.

كانت عظيمة تضع عشقها فى كفة، وكل ذلك فى الكفة الأخرى، فكانت مستعدة لبذل المزيد من مالها وروحها، وكل ما ملكت يدها، فى هذه الدنيا، لهذا الجيب، الذى جاد الزمان عليها به، شريطة أن يتزوجها زواجا شرعيا، فتكون علاقتهما فى النور بالحلال، الذى تتمنى أن تكون ذريتها الممكنة، من هذا الرجل - اللقية، به أيضا، فلما صارحته، دون أية مواربة، أو لف أو دوران فى الكلام، برغبتها فى الزواج منه بسرعة، الأمر الذى لن يكلفه أى شيئ، وكانت تظن أنه منتهى أمله وسعادته، وكمال مراده، فوجئت بتهربه من إجابة مطلبها، لأنها لم تدرك أبداً، أن النایاتی العليم بخبايا وبواطن، قلوب النساء، كان يرى أن أفضل طريقة للاحتفاظ بقلب المرأة، هى ألا يتزوج المرء منها أبداً، وقد رفض عرضها للزواج، الذى لم يكن مفاجأة بالنسبة له على أية حال، فلقد توقع حدوثه يوماً، وتلقاه بمنتهى الهدوء، بينما كان جالساً إلى جانبها على الكنبة الوثيرة فى صالة منزلها، يدخنان تدخينهما الصباحى المعتاد للنرجلية ويشربان قهوة بعد الفطور، فقال لها وهو يتحسس أصابعها الطويلة، المنتهية بأظافر مشذبة، ومطلية بلون أحمر فاقع، أنه يحبها حباً لا حدود له، ويعشق كل جزء من أجزاء جسدها الجميل، وخصوصاً رقبتها الطويلة، الملفوفة، البيضاء وكأنها كوز من الفضة، لكنه لا يمكن أن يتزوجها أبداً، وهو على ما هو عليه من حال، إذ أنه يعمل عندها كأجير، لا طاقة له على تحمل تكلفة الزواج، ومواجهة الإنفاق عليها، وعلى بيت الزوجية، لذلك فهو يفضل تأجيل الزواج، حتى

تتحسن ظروفه المالية، ويكون جديراً بالتجرؤ على طلب يدها، على سنة الله ورسوله، ويتزوجها على رؤوس الأشهاد.

عند هذا الحد من الكلام، تأثرت عظيمة جداً، وخفق قلبها بشدة، إذ كانت ترى أنه صادق فى كل كلمة قالها لها، لأنه كان، فى هذه اللحظات، يضع عينيه فى عينيها، ويذيب مشاعرها بنظراته المتأججة بنار الحب، التى أججت نار قلبها أكثر فأكثر، لذلك وافقت على ما قاله، ثم أقترحت عليه، أن تبيع مصحفاً ذهبياً كبيراً، وزنه حوالى أونصة-سواراً مشغولاً، كانت قد اشترته، من عدة أعوام، بحوالى خمسة آلاف من الجنيهات، ربما يصل ثمنه، عند البيع إلى ما يزيد على ذلك بألفين من الجنيهات، وأن تعطيه حصيلة ذلك، ليخطبها، ويقدمها لها كمقدم الصداق عند عقد القرآن، لكن الناياتى، الذى كان يتأمل وجهها وهى تتكلم، ويتفحص فمها، وأضراسها الذهبية اللامعة، كلما تمكن من ذلك لم يقع فى الفك المفترس، ولا بات مزنوقاً فى خانة اليك، إذ أقسم بالله العظيم، ثلاثاً، ودعاه وهو يرفع يديه بالدعاء، أن يحرقه بالنار، ويحوله إلى مثل جمرات النرجيلة المشتعلة أمامهما، إن هو مدّيده وأخذ منها الفلوس، أو أقدم على أية خطوة للزواج منها، لا تكون بفلوسه المجلوبة من عرق جبينه، المتصبب من كثرة النفخ فى الناى بالطبع.

لم تستطيع عظيمة إبتلاع الحجج الواهية للعشيق المداهن بسهولة، لأنها كانت غير مقبولة شكلاً ولا مضموناً، إذ أنه كان يغترف حتى هذه اللحظات من أموالها كيفما شاء، ويقبل، بكل الرضا، ما تقدمه له، ليكون رجلاً ملء هدومه، إبتداءاً من الجنيهات النقدية، التى تدسها فى يده، بين الحين والحين، وانتهاء بسيارة المرسيدس، الخاصة بها، الموضوعة تحت تصرفه، وقتما يشاء، ومن الناحية العملية، لن يتحقق ما تذرع به من حجج أبداً، لأنه لو ظل مائة سنة، وباض كما تبيض الدجاجة، فى القفص، فإنه لن يستطيع جمع المال اللازم للزواج منها، فهو لا يملك شروى نقير.

لذلك وجعتها كرامتها، وآثرت الإنسحاب من العلاقة، التى لم يكن من الممكن استمرارها فى الحرام، بالنسبة لها أبداً، خصوصا أن رائحتها بدأت تفوح، وتلفت الأنظار اليها وأكتشفت بإيصاد باب قلبها بالضبة والمفتاح على عشقها الكبير، ليبقى بداخله، كشجرة يانعة للذكرى، ولأيام غرام، جميل، عبرت حياتها كحلم أفاقت منه، سريعاً، دون اكتمال تفاصيله السعيدة، لكن الناياتى لم يقبل بأنقطاع ما أتصل بينه وبينها، لذلك راح يبتز مشاعرها من جديد، بالمزيد من كلمات الهوى، ونظرات الهيام، التى تذيب مشاعرها، وتلين عواطفها، التى حرصت أن تكون جافة جامدة أمامه، وكانت عظيمة، عظيمة فى تشددها وحسمها معه، إذ جعلت الزواج الرسمي، هو شرطها الأول والأخير لأستمرار العلاقة، ورفضت فى عرضه الجديد، الذى تقدم به، بعد القطيعة بينهما، للزواج العرفى بها، مما لا يرتب أية التزامات قانونية من ناحيته لها، محافظة على تشددها، وإصرارها على أنه لا مساس بقضية الشرعية الزواجية، على عكس الحكومة التى طالما أعلنت أنه لا مساس بالدعم الاقتصادى للفقراء، وواظبت على مسه مساً خفيفاً، وثقيلاً، وصل إلى حد الضرب عرض الحائط، بكل ما أعلنته بخصوص ذلك، بل أن عظيمة قلصت علاقتها بالناياتى إلى أضيق الحدود، التى لم تكن إلا حدود العمل فى الفرقة الموسيقية، لأنها لم تستطيع طرده والتخلى عنه، بسبب النقص فى العازفيين الذى كان ما يزال مستمراً فى سوق الموسيقى، وقد استطاعت، مواجهة الضغوط العاطفية للحبيب الغادر، والإشاحة بوجهها عنه، رغم قلبها كان بحاجة، آنذاك، إلى عشر أغنيات من أغانى فريد الأطراش المسيلة للدموع، لتندب غرامها المقطوع، وحظها العاثر فى دنيا الهوى، ولما لم يجد العاشق الحّريف، حلاً سلمياً، ومل حالة اللا سلم واللا حرب، بدأ بالكشف عن وجهه القبيح، وأخذ يشن عليها حرب تشهير واسعة النطاق، تتعلق بتفاصيل علاقته بها، بإسلوب غاية فى الخبث، ينحو إلى التلميح،

دون التصريح، وإبراز أطراف من خيوطها، لينشغل الناس بها، ويضيفون من عنديات خيالهم إليها، وكان يستهدف من ذلك أن ترضخ عظيمة له من جديد، لتلم ما بعثره من تفاصيل غرامها، ولتجعله يسكت عن التشهير، ويكفى على الخبر ماجوراً.

اعتبرت عظيمة هذا الأسلوب أسلوباً متوحشاً، لا يليق إلا بضبع من الضباع لا يتورع عن نهش لحم فريسة ميتة إذ أنها اعتبرت نفسها كذلك بعد انقطاع أملها فيه.. واستشاطت غيظاً وغضباً، شاركها فيه عازف الربابة الأول فى فرقتها، الذى كان صديقها الصدوق، وذراعها اليمنى فى تصريف أمورها الفنية، والشخصية، حتى بعد وقوعها فى الغرام، لأنه كان يؤمن بها إيماناً مطلقاً، كأفضل مطربة شعبية تقول الموال فى زمانها، بعد أن مات سيد الموال محمد عبد المطلب، ولم يكن رأيه هذا ناتجاً، إلا عن اعتباره لنفسه عازف ربابة قدير، ينحدر من أسرة قوالين جوالين عريقة، احترفت الغناء الشعبى أباً عن جد، دون أية حرفة أخرى، على مدى تاريخها، المجهول بعد الجد الرابع.

الغضب الشائط، أنجلى عن خطة إنتقامه، صغيرة، من رمز الغدر والخيانة، تلخصت فى تأجير أحد خبراء صنع العاهات، المستديمة، لشحاذى الحسين، وسائر شحاذى القاهرة، ليقوم بخصى العشيق السابق، الذى استدرجته عظيمة ذات مساء بعد أن أوهمته بعودة مياه غرامها العميقة إلى مجراها القديم، وذهبت به إلى بيت عازف الربابة الأول الواقع فى منطقة الترب، بحجة التدرب مع بقية أفراد الفرقة، استعداداً للمشاركة فى مولد السيدة زينب، الذى كان موعده قد أوشك، فجربت عظيمة صوتها، وعادت، وزادت، وأبدعت فى أداء أغنية جديدة فى مدح رسول الله "صلعم"، كانت فى الأصل أغنية عاطفية، لحنها محمد عبد الوهاب لفايزة أحمد، منذ زمن طويل، لكن عظيمة غيرت فى الكلمات، بما يتناسب والمديح النبوى، مع الإلتزام باللحن، الذى عزفته الفرقة بتصرف يسير، يتلاءم مع

المزاج الشعبى المفعم بالنشوة والمعتاد فى الموالد، فأتيح مجال أوسع لآلات الإيقاع، والوتريات الشعبية التى جرى تلخيصها تاريخياً فى الربابة، التى كانت ترد بجواب لحنى صاخب، كلما أدت عظيمة بصوتها المبحوح "أنا قلبى إليك ميال".

وبعد الإنتهاء من التجريب والتدريب، غادر أعضاء الفرقة بيت عازف الربابة الأول، ما عدا عظيمة، والناياتى، الذى جلس إلى جانبها ليتلقى توبتها وطلبها للعفو والمغفرة منه، بعد أن استيقظ قلبها على نداءات حبه الجديدة، لكنه لم يلبث إلا وقتاً قصيراً، حتى ذهب فى غيبوبة تامة بعد تجرعه لعدة كؤوس من النبيذ الوردى، المضاف إليه كمية لا بأس بها من المخدر، فلما جرى التيقن من غيبوبته، نقل على وجه السرعة لغرفة النوم الواسعة لعازف الربابة الأول، حيث كان فى انتظاره خبير الخصى، الذى تجرى فى عروقه موهبة تاريخية، وصلت إليه عبر دم آبائه من زمن العصر المملوكى، فقام بعد أن قرأ الشهادتين وشمر عن أكمامه، وتأكد من تأثير المخدر، وتمام تعقيم أدواته الجراحية، الموضوعة فى حلة ألمونيوم صغيرة بها ماء يغلى، على موقد كحولى من النوع المستخدم عادة فى إعداد القهوة، ووجود قطن، وشاش وصبغة يود ومسحوق سلفا بكميات كافية، مديدة إلى الماء المغلى واستخرج، دون الإلتفات لسخونته الشديدة، موسى حلاقة من ذلك النوع الحاد الذى يستخدمه المزينون عادة، فقطع به ما تقاضى، خمسمائة جنيهاً- نصفهم مدفوع كمقدم- على قطعه، وبعد أن أنتهى من العملية، التى كللت بالنجاح، ووضع صبغة اليود، ومسحوق السلفا ولفّ القطن والشاش، جرى نقل الناياتى، على وجه السرعة، إلى مسكنه، الذى كان مفتاحه لم يزل مع عظيمة، منذ ما قبل القطيعة الأولى، وتم وضعه على سريره وتغطيته باللحاف، وتركه، ليجد نفسه، فى ظهيرة اليوم التالى، بعد أن أفاق من غيبوبته، ونومته الطويلة، كالطواشى صبيح.

حاول عازف الربابة الأول، أن يحل محل العشيق الغادر المنتقم منه،

فعرض الزواج مباشرة على عظيمة، رغم كونه متزوجاً، منذ سنوات طويلة، ويعول، لكن عظيمة اعتبرت عرضه على سبيل الشفقة بها، ورد الإعتبار لكرامتها المهانة، وإخراساً للمتخرضين من الناس، ورفضت طلبه بلباقة لهذه الاسباب النبيلة، ولسبب أخر غير نبيل، هو أن عازف الربابة الأول، كان قصيراً على نحو واضح، مما يجعله يصل بالكاد إلى ما بعد وسطها بقليل، ثم إنها كانت ما تزال واقعة فى غرام الناياتى الميؤس منه، وهو الغرام الذى باتت تفضل العيش على ذكراه الجميلة، دون التفكير فى رجل أخر، أو الإقدام على زواج، إذ كانت آمالها فى الرجال جميعاً، قد ضاعت وفنيت، من جديد، واعتبرت ما جرى درساً لها وتجربة كان لا بد منها لتفيق إلى نفسها، مرة أخرى، بعد أن أغرتها الشهرة والفلوس، وجعلاها تظن، أنها تستطيع أن تشترى بهما العواطف والحب، مثلما تشترى أى شىء أخر من السوق.

كادت الحياة أن تمضى بعظيمة، بعد ذلك، بالشكل المعتاد، الذى كانت عليه قبل دخول الناياتى فيها، لولا أنه كان يجهز لخطة إنتقامية مضادة للعملية الجهنمية الإنتقامية، التى استهدفت بنجاح أعز ما يملك، فقد آثر بعد أن أكتشف ما لحق به، أن يكفأ على الخبر ماجوراً، لأنه لا يريد أن يكون موضوعاً لتندرو سخرية كل من هب ودب، وخصوصاً، أولئك الذين كان يتعمد إخبارهم طرفاً من أخبار غرامه بعظيمة، وفضل ألا يشتكى للبوليس ليروحهما فى داهية، إذ كان يفضل أن يقوم هو شخصياً بهذه الداهية، كسباً للوقت، لأن يوم الحكومة بسنة، والبوليس سوف يمط فى الموضوع، بسبب السين والجيم، وإحالة الموضوع للنيابة والمحكمة، مما يجعله يعيش بنار غيظه وغله وقتاً طويلاً، قد يصل إلى سنين، لذلك قرر أن يحصل على حقه، فى الإنتقام، بيده، فقام بوضع خطة مرحلية، تتركز أولاً على عازف الربابة الأول، باعتباره الرأس المدبر لعملية الخصى، وتستهدف فى الجزء الثانى منها عظيمة، التى سوف يطبخ طبخة الإنتقام

منها على نار هادئة حتى تؤتى أكلها، وهى طبخة سيكون أول مكوناتها قذف وجه عظيمة بماء النار، أى حامض الكبريتيك المركز، لتشويه وجهها، بحيث يضيع مستقبلها الفنى، إذ أنها لن تقوى بعد ذلك على مواجهة جمهورها، الحبيب، بوجه مرعب، يناسب أبا رجل مسلوخة، الذى كانت أمه تخيفه به وهو صغير لينام، ثم بعد ذلك فإنه سوف يعمل على تركيعها أمامه، بحيث تجيء إليه سائرة على أربع، بعد أن تسف التراب، الذى يمشى عليه، طالبة منه العفو والرحمة والمغفرة.

لكن خطة حسين الناياتى، فشلت منذ بداية تنفيذ مطلعها، فقد فشلت محاولة قتل العازف الأول من قبل القتلة المأجورين، الذين كلفهم بقتله، بعد أن أصيب المغدور إصابات شديدة، استدعت نقله لمستشفى الحسين الجامعي، على وجه السرعة، وانتقل إليه أيضاً، البوليس والنيابة للتحقيق معه، ورغم أنه لم يتهم حسيناً الناياتى، إلا أنه تعرف على الذين حاولوا قتله، بينما كان يسير فى الترب عائداً من زيارة لعظيمة فى بيتها بباب الشعرية، بعد أن أطلعها على مصاريف وأجور العازفين الجدد للربابة، الذين ضمهم للفرقة، وكان بينهم طالب مبتدىء فى معهد الموسيقى العربية.

فى النيابة، اعترف هؤلاء الذين فشلوا فى القتل، بعد أن نال كل منهم كفاً على وجهه، على سبيل فتح الكلام، بأنهم قاموا بذلك لحساب حسين الناياتى، الذى حاسبهم على أساس ألف جنيه نقداً، يوزعونها بينهم بالطريقة التى تناسبهم، وعند مثول حسين أمام النيابة، التى استدعته، اعترف بأنه أقدم على ذلك إنتقاماً، لما جرى له، وقد أثبت الكشف الطبى، الذى حولته النيابة لإجرائه، أنه مخصى فعلاً منذ مدة قريبة، ووجهت التهمة لعظيمة، بعد أن قررت أن تبعد العازف الأول للربابة، عن سكة الإتهام، واعترفت بأنه لا علاقة له بما قامت به من خصى الناياتى، سواء من قريب أو من بعيد، حرصاً على استمرار الفرقة، ووجود من يرعى مصالحها بإخلاص، وقد أدانت المحكمة جريمتها، التى تسببت بإحداث أضرار

جسيمة وبالغة بإنسان، لا تعوض بثمن، وقررت الحكم عليها بالحبس والغرامة التى بلغت خمساً وعشرين ألفاً من الجنيهات، لم تدفع عظيمة منها مليماً واحداً، مفضلة أن تقضى فى السجن ما يقابلها من سنوات، بعد أن خلعت كل مصاغها وقدمته للعازف الأول، ليحتفظ به لها على سبيل الأمانة، لحين خروجها من السجن.

واجهت عظيمة سنوات السجن بالصبر والرضا فقد اعتبرت أن ذلك لم يكن إلا الضريبة التى دفعتها فى سبيل إخلاصها لعشقها الكبير، الذى كانت على استعداد لمواجهة الموت نفسه فى سبيله ايضاً، وقد عاشت داخل السجن على ذكرياتها الجميلة مع حسين النایاتی، ولم تنسها للحظة واحدة، فهى التى جعلت روحها تفيض بكل ذلك الحب الصدفة فى حياتها، وقد كانت سلواها الوحيدة فى أيام وليالى السجن الطويلة، التى يتساها الزمان، هى أغنيات أم كلثوم القديمة، التى تؤجج نار قلبها، الذى لم تنطفىء فيه جذوة العشق، فلم تكن تمل ترديدها كلما خلت إلى نفسها فى الليل، هذه الأغنيات هى ما جعل عزيزة تعيد النظر فى أمر عظيمة، بعد أن كانت تنفر وتتضايق من مرآها، وتشعر أنها عفريته انشقت عنها الأرض، لا تنتمى إلى عالم البشر، ضلت طريقها إلى السجن بينما يجب أن يكون مكانها أى جب قديم، وكان الصوت الإنسانى المقهور، الذى طالما ترنم بتلك الأغنيات الكلثومية البديعة هو السبب فى أكتشاف عزيزة لها، وفى تعرفها على نبلها ورهافة مشاعرها المفرطة، التى لا يمكن أن تكون إلا لملائكة حقيقين.

لذلك قررت عزيزة، أن تجلس عظيمة إلى جانب حنة، فى العربة الذهبية الصاعدة إلى السماء، لأن نبل عظيمة البالغ كان يتبدى فى تعاطفها مع حنة المسكينة، خصوصاً عندما مرضت حنة مرضاً متواصلاً، لمدة أسبوعين، أقعدها فى الفراش، فكانت عظيمة تخدمها خدمة البنت لأمها، التى أنجبتها من رحمها، حتى أنها كانت تحملها لبيت الأدب، لتقضى

حاجتها، وتعود بها، بعد تنظيفها وغسلها، إلى مكانها فى فراشها بعنبر الضعفاء، بل وكانت تقضى أوقاتاً طويلة تناشدها أن تأكل، وتصبر عليها صبراً جميلاً فى ذلك، لأن حنة كانت ترفض أكل عيش السجن الأسود، بسبب أسنانها الصناعية، التى باتت مخلخلة فى فمها بعد أن نحفت وضعفت كثيراً، فكانت عظيمة تبله بالماء، وتفتته إلى فتيتات صغيرة تلقمها لها وهى تغنى لها أغنيات مرحة تدفعها للابتسام والانشراح.

إضافة إلى ذلك، فإن عظيمة مغنية ذات أداء جميل، وراكبات العربة سوف يحتجن إلى الغناء ليسرى عنهم، خلال رحلتهم السماوية الطويلة، مما يرجح ضرورة ضم عظيمة إليها، وهذا ما فكرت به عزيزة تماماً.

أبلغت عزيزة القرار السرى الخطير لعظيمة فى كلمتين، فقط، لا غير، بينما كانتا ذات يوم تغسلان وجهيهما، فى الصباح بالحمام، فقد ألقت عظيمة على عزيزة تحية الصباح، فى بشاشة وهى تدعك وجهها بالصابون مما جعلها لا تلحظ الإيماءة الخفيفة التى ردت عليها بها عزيزة، لكنها سمعتها فقط وصوتها يختلط بسرسوب الماء، المنساب من الصنبور، دون أن تفهم ما تقصده بقولها لها:

- خلاص.. إستعدى.

البقرة حور

الوحيدة التى لم يستغرق تفكير عزيزة، لضمها إلى راكبات العربة الذهبية الصاعدة إلى السماء، الوقت اللازم لسلق بيضة، سلقاً خفيفاً، كانت الفلاحة أم الخير، فرضى عزيزة عنها مشابه للشعور المتمخض عن حب من النظرة الأولى، لأن عزيزة شدت إلى أم الخير وانفتح قلبها لها، مذ رأتها لأول مرة فى السجن، مشمرة عن ساعديها، جالسة القرفصاء، تفت فى طبق من الصاج الأزرق، بعض الخبز، وتصب فوقه قليلاً من مسحوق اللبن، الذى مزجته بقليل من الماء لتقدمه لقطة السجن الأثيرة، التى كانت قد وضعت لتوها، بعد ولادة عسيرة، استمرت ليلة كاملة، أربعة قطط مغمضة العينين، أفصحت اثنتان منها عن بعض سمات الأب المجهول، إذ كان لونهما رمادياً داكناً، مخططاً بالأسود، خلافاً لأمهما، التى كانت مشمشية اللون، لذلك أطلقت عليها السجينات اسم مشمشة.

استندت عزيزة بمرفقها على إفريز شباك عنبر العجزة، المطل على الدهليز الطويل، الذى تطل عليه بقية العنابر وكانت تقف فيه، آنذاك، ثم قالت وهى تبتسم لأم الخير:

– العوافى.

ثم تأملت مشمشة وهى تلعق بنهم ما فى الطبق، وأردفت:

– الحمد لله على السلامة يا مشموشة، إن شاء الله يتربوا فى عزك.

انفرجت شفتا أم الخير عن أسنان قوية، جميلة، قلما يمكن العثور عليها لدى فلاحة، فى مثل عمرها، جاوزت الخامسة والستين، وقالت كما لو كانت مشمشة امرأة حقيقية ولدت بعد عذاب:

- والله يا حبيبتى ما نمت طول الليل بسببها، لأنى والوجع شغال فيها، كنت شاعرة أن مطواة نازلة تقطيع بمصارينى، وبقيت أقول يا رب تخلص وتولد بالسلامة، ويشاء العالم بعبيده أنها تنزل أول قط والفجر ينطق الله أكبر.

ثم أنها دعت عزيزة لتدخل العنبر وتشرب الشاى، عندها، وأغرتها بوضع قليل من اللبن المجفف فيه والذى كان إبنها الأوسط قد جاءها بعلبة منه فى آخر زيارة زارها لها فى السجن، منذ أيام مضت لأنه يعرف حرص أمه على شرب الشاى مع اللبن، لتكسر سمّه كما كانت تقول له ولإخوته دائماً، عندما كانت تراهم يشربون الشاى داكناً دون وضع أية قطرة من الحليب عليه.

دخلت عزيزة، وجلست إلى جوار أم الخير لتشرب شاياً باللبن، ولتدخل أم الخير إلى قلبها، الذى يعد أوسع باب يقود إلى طريق العربة الذهبية الصاعدة إلى السماء، ولتستمع إلى قصتها فى شغف شديد، دونما ملل، رغم سلوك أم الخير مسلك الفلاحات التقليدى فى حكايتها، حيث كانت تعيد وتزيد وتحكى ببطء، وتبالغ فى الوصف والتشبيه، وتدخل من حكاية إلى حكاية، لكن عزيزة، لم يضق خلقها، المستمر فى ضيقة كلما مرت بها الأيام فى السجن، ولم تتأفف من أم الخير، أو تشعر بازدراء نحوها، رغم انطباعها، الذى لم يتغير أبداً عن الفلاحين- باعتبارها سليلة أسرة مدينية قديمة- إذ تراهم أجلافاً، خشنين، قذرين، لهم رائحة لا تطاق، مثل رائحة "صابحة" بائعة الزبد والجبن، التى كانت تأتى من الأرياف وتبيت عندهم حتى تغلى الزبد وتحوله إلى سمن، أيام الزمن القديم، حيث كانت أمها تخزن قنطار سمن كل سنة فى القدر الخزفية الضخمة، التى ضاعت

ضمن ما ضاع من متاع موجود بالبيت فى الحريق، لكن عزيزة تشعر بأن لأم الخير رائحة أخرى، غير رائحة الفلاحات، رائحة خاصة غامضة، غير رائحة الجلة، وشعر صابحة الفواح بالزناخة الذى تدهنه ببقايا الزبد الملوث لأصابعها بعد وزن كيزانه لينعم شعرها المنكوش ويلين ويتهذب منظره قليلاً، ولقد فكرت عزيزة ذات مرة فى تلك الرائحة الغريبة التى تتميز بها أم الخير عن أية إمرأة أخرى فى السجن، واكتشفت أنها تشبه إلى حد كبير رائحة الأطفال الرضع أى رائحة الحليب الممزوج بالبراءة والرقة والضعف، وربما كان ذلك مبعث حبها لتلك الرائحة، وانسحارها بها، مثلما كانت تُسحر فى الماضى الجميل، الذى عاشته، بتلك العطور السرية، التى كان يهديها لها زوج أمها بين الحين والحين، لكن عزيزة لم تجرب رائحة الطفولة هذه، لأنها لم تكن أماً أبداً، ولم تكتشف جمال الأمومة فى يوم من الأيام، إلا عندما جاءت إلى السجن، وتأملت عطش الأمهات لصغارهن، وراقبت رضاع الحاضنات منهن فى السجن لأولئك المساكين الذين حكمت عليهم الحياة أن يلقموا أثداء أمهاتهم حتى الفطام، خلف الأسوار العالية.

ولعل ذلك هو أحد الفضائل المحدودة جداً للسجون، التى تفرض التأمل، وإمكانية الإكتشاف لجوانب من الحياة، ليس من الممكن معرفتها، أبداً، إلا من قبل أولئك الذين تذوقوا مرارة الإبعاد، وانتفاء الإرادة، والعزلة الإجبارية عن كل التفاصيل، التى يمكن أن تخلقها الحياة فى المحيط البشرى غير المحدود بحدود السجن، وجدرانه الفاصلة.

تحمست عزيزة لأم الخير كثيراً حتى أنها استقرت على أن يكون موقع جلوسها، إلى جانبها شخصياً فى مقدمة العربة، وقد جاء هذا القرار، الذى يمكن وصفه بأنه عاطفى بعض الشىء، بعد ما جرى بين هذه الفلاحة وبين البنت عايدة، وقد أبلغتها عزيزة به، عندما جلست فى زنزانتها الإنفرادية تحتسى ماءها الخمرى، وتدخن سجائرها، بعد أن أحضرت

كأساً أخرى لأم الخير، لتشربا سوياً نخب الصعود السماوى، والجلوس المتميز فى العربة الذهبية، لكن أم الخير لم ترفع كأسها أبداً، مثلما لم تسمع أذنيها قرار عزيزة الخطير، لأنها، آنذاك، كانت مشغولة فى عنبر العجزة المجاور لعنبر عزيزة من ناحية اليمين، بهدهدة وتنويم إبنة حليمة السجانة، التى كانت أم الخير تضعها خلال هذه اللحظة بحجرها، وتلقمها ثديها الضخم حليبى اللون، الخالى تماماً من أى لبن، كما يجب أن يكون ثدى امرأة جاوزت الخامسة والستين من عمرها، لكنها كانت تواسى الطفلة الرضيعة، التى لم تكمل عامها الأول بعد، وترضعها عوضاً عن حليب أمها الأصلية، وحليبها الذى جففته السنون، حناناً دافقاً، وأغانى ريفية قديمة، استقرت فى قاع الذاكرة، كتذكار ودليل على ما بذلته لأبنائها العشرة، الذين ربتهم وأبناءهم الأربعين، وطالما ساهمت إلى جانب أمهاتهم فى خدمتهم، كان هؤلاء الأبناء العشرة هم حصيلة ما تبقى لها من خمسة عشر ولادة، أنجزتها بنشاط على مدى حياتها منذ زواجها بعد مرور ستة أشهر على بلوغها، وظهور الإشارة الحمراء الدالة على إستعداد جهازها النسوى لوظائف الحمل والإنجاب.

لم تسمع أم الخير قرار عزيزة السرى الخاص بصعودها إلى السماء، وكانت تفكر برضا وسعادة لا حدود لهما فيما خلفته فى الحياة؛ فى ذلك الإبن الكبير، الذى ما فتىء يضع القرش على القرش، ليشترى بين حين وآخر، أرضاً جديدة، يضمها لأرضه القديمة، والصغير الذى ثابر على التعليم حتى حطّ رجله فى الجامعة، وذلك الذى دخل الجيش، والبنات اللواتى زوجتهن جميعاً زيجات موفقة مستورة، وما عادت واحدة إليها يوماً غاضبة من زوجها، إلا ونجحت فى إعادتها إلى حظيرة الزوج مرة أخرى معززة مكرمة، راضية البال، أما ابنها الرابع، فقد كان قلبها يخفق بشدة، ويتصاعد الدم إلى رأسها، حتى تشعر وكأن الدنيا تلف بها، كلما تصورت أنه كان من الممكن أن يكون بدلاً منها فى مكان فظيع كهذا، وأن ينام مثلما

تنام الآن على حاشية إسفنجية بالية طالما نام عليها قبل ذلك عشرات غيرها من أولئك اللواتى ساقتهن أقدارهن إلى هذا المكان، وكانت تستعيذ من الشيطان الرجيم، وتتشهد وهى تتصور، كيف كان سيأكل من ذلك الطعام الردىء، والنفايات الغذائية، التى تقدم فى السجن، بل وكيف تظل عيناه طوال الوقت، لا تطالع إلا تلك القضبان الحديدية السوداء، التى تغم النفس، وتقبض الروح.

تصاعد صوتها متهدجاً بالغناء للرضيعة، التى استكانت فى حجرها، وحمدت الله لأنها استطاعت إنقاذ ولدها، الذى هو نور عينها وعافيتها، من خمسة وعشرين سنة سجناً، كانت ما قررته المحكمة عليها، وفقاً لقانون تطبيق أقصى العقوبة على تجار المخدرات، فقد سارعت عند مداهمة البوليس للبيت، وأعلنت أن كل ما عثر عليه من مخدرات مخبأ فى قفة الأرز المركونة إلى جوار الفرن هو لها، وأن لا علاقة لأبنها بها من قريب أو بعيد.

زغرد فرح فى قلبها من جديد، عندما تذكرت نجاحها فى إنقاذ ابنها الغالى، حتى أنها رفعت ابنة السجانة إلى حضنها وراحت تقبلها فى حنان دافق، تصاعد أكثر إلى درجة دفعها فى الهواء قليلاً، وإعادة التقاطها مما جعل الطفلة تسعد بتلك الحركات الأكروباتية الممتعة، ففتحت شفتيها عن آخرهما بما يفترض أن يكون ابتسامة، لكن أم الخير كفت عن مداعبة الصغيرة، وعن الغناء بصوتها الحاد، الذى طالما اطلقته بالغناء والزعاريد فى أفراح بلدتها الريفية، عندما زعقت لولا الكوافيرة محتجة على الزيطة الناتجة عن أم الخير، وبنت السجانة، التى اعتادت أمها أن تتركها لتبيت مع أم الخير فى أيام كثيرة، لتوفر على نفسها مشقة تجهيزها وحملها معها كل صباح إلى السجن، من منزلها، الذى يبعد ما يزيد على الساعة فى المواصلات العامة، التى تكون فى هذا الوقت، المبكر من الصباح، بالغة الإكتظاظ بالركاب، على نحو غير انسانى، وكانت لولا

فى هذه الأثناء، مشغولة بفتح الورق لاكتشاف حظها، بعد أن اعتذرت أم عبد العزيز، المكشوف عنها الحجاب كما يشاع فى السجن، عن قراءة خطوط كفها متذرعة بالنوم.

ظلت عزيزة ساهرة، خلال تلك الليلة، تفكر فى أمر الفلاحة أم الخير، وتتعجب من العافية والصحة الموفورة فى جسدها، رغم العدد الكبير من العيال الذين أنجبتهم عاماً وراء آخر، فهى الوحيدة، بين سائر نزيلات عنبر العجزة، التى لم يطلها مرض ضغط الدم المرتفع، كما أن قلبها ظل سليماً تماماً، كما قال لها طبيب السجن، بعد أن كشف عليها، أما عيناها، فهما حادتا البصر جداً، إلى حد، مكنها أن تخرج قطعة زجاج دقيقة للغاية، يصعب رؤيتها بالعين المجردة، من طرف إصبع عزيزة، بملقاط حواجب، عندما كُسر زجاج شباك حجرة الكشف الطبى ذات يوم، ووضعت عزيزة دون انتباه منها يدها على إفريزه العريض، الذى كان حافلاً بالقطع الصغيرة غير المرئية المتناثرة عليه، بعد إزالة القطع الكبيرة.

ما كان يدهش عزيزة من أمر أم الخير، أكثر من أى شىء آخر، هو معنوياتها العالية معظم الأحيان، وشعورها الممتد بالسكينة والإطمئنان، مما جعلها السجينة الوحيدة تقريباً، التى رأتها عزيزة لا تدخن، خلال إقامتها الطويلة فى السجن، ولا تغالى فى شرب الشاى، الذى لم تصادفها تشربه إلا مضافاً إليه الحليب.

وبينما كانت عزيزة ساهمة تفكر، وقع بصرها على ذلك الوجه الغريب، الذى كانت قد حفرته ذات ليلة من ليالى الملل الطويلة فى زنزانتها الإنفرادية، على حائط من حوائطه الكالحة التى لم يمسها طلاء منذ سنوات بعيدة، مستخدمة فى ذلك مسماراً صدئاً كانت قد عثرت عليه ذات نهار مرمياً فى جانب من فناء السجن، وهو الوجه الذى ما عرفت أبداً، لماذا رسمته بملامح غامضة، ما رأت أحداً يشبهها من قبل، لكنها فى هذه اللحظة تحديداً، وبينما هى تتأمله تذكرت واقعة قديمة جداً، طفت على

سطح الذاكرة، مثلما يحدث لها عادة، وربما لكل أولئك المنفيين المبعدين عن عوالمهم، العاجزين وهم خلف الأسوار العالية، عن مراكمة ذكريات أخرى، لغياب إرادتهم فى التحقق والفعل، مثلهم فى ذلك مثل المحتضر الساعى للتشبث بالحياة، عبر هذه الذكريات المتجسدة، بشكل قل وضوحه فى مخيلة العائش لأيامه المعتادة فى المجتمع، غير منقطع الأمل فى الحياة.

تذكرت عزيزة واحدة من وقائع صباها، حيث أصطحبها زوج أمها المعشوق من الإسكندرية إلى القاهرة فى زيارة طافا خلالها، سوياً، بكل معالم المدينة، فذهبا إلى مصر العتيقة، حيث حط عمرو، وبقيت الكنيسة المعلقة، ومعبد اليهود كشاهد إثبات على الحصن المستسلم، والفتح الثُلج لمدينة كانت تدفع الجزية لمخضعيها منذ زمن طويل، وزارا حلوان المنتجع، بحديقتها اليابانية ذات التماثيل الأربعين، ثم عرجا إلى حدائق المدينة الضائعة الآن فى الزحام، والإهمال، والرغبة الشريرة فى طمس كل ما هو أخضر طبيعى جميل، فذهبا إلى حديقة الأندلس، وحديقة الأسماك بجبلايتها السحرية المظلمة حيث قبلها العاشق قبلات مباغتة لا يُنسى مذاقها العذب، ثم حديقة الأزبكية، وحديقة الحيوانات، التي رأت فيها لأول مرة فى حياتها الحمار الوحشى، والطواويس البديعة، التى تمنت أن يكون لديها واحد منها، لكن الأيام والسنين، أثبتت لها أنها لم تكن إلا واحدة منها بالفعل.

تذكرت عزيزة كذلك، زيارتها للأهرامات، وأبو الهول المهيب، والمتحف الفرعونى، الذى ترك فى نفسها اثراً لا يمحى، وها هى تجلس محاولة الإمساك بالمشاهد البالية، التى تخصه، والمتشابكة خيوطها، بخيوط أخرى كثيرة متراكمة فى جراب الذاكرة العميق.

طاف برأسها تجوالها مع العاشق القديم، عندما سارا متشابكى الأيدى، كأى عاشقين، معترفً، بعشقهما، أدمنا العشق منذ زمن طويل، فنضج بما يكفى لتفوح رائحته وتشى به، وتذكرت ذلك التمثال القديم الذى

لم تنسه أبداً، فنهض بقوة من قرار الذاكرة حيث وضعته الأيام، وبدا أمام عينيها متجسداً، مثلما رأته فى الزمن البعيد، إذ كان لامرأة ضخمة، وافرة الجسد، خصبة البنيان، لها رأس على هيئة رأس بقرة ذات وجه طيب حنون، تحتضن بيديها طفلاً صغيراً، وعندما سألت عزيزة آنذاك عاشقها المعشوق عن ذلك التمثال، قال لها بينما هو يضمها إليه قليلاً: إنه لآلهة قديمة محفورة فى عمق الضمير عُبدت لسنين طويلة، وكرّست للخصب والجمال، أطلقوا عليها إسم حتحور، وها هى تحنو على إله صغير مقدس يدعى حورس.

حكت عزيزة لأم الخير المفترضة أمامها، بينما هى تتأمل ما رسمته على الحائط مما وافتها به الذاكرة عن التمثال القديم، وكيف أنها وقفت وقتها مشدوهة، تتأمله، وتفكر فى شىء غامض لا تعرفه، وهى تتحسس صدرها بيدها، باحثة فى داخلها عن معنى كلمة الخصوبة، التى كانت تسمعها آنذاك لأول مرة فى حياتها.

لم تتصور عزيزة، أن تكون ذات يوم كتلك البقرة الأنسية الطيبة، التى تحنو على الأطفال وتشملهم برعايتها، فقد كانت تظن دائماً أنها خلقت لغير ذلك، وهذا ما اثبتته الأيام لها على أية حال، وكأن مصيرها وسيرورة حياتها، قد تحددتا فى ذلك اليوم البعيد، الذى قررت ألا تكون فيه كتلك المرأة البقرة- التمثال، الذى وقفت تتأمله، لكن ها هى تكتشف أنها خطت على الحائط رسماً يذكرها بذلك التمثال، ويستدعيه من الذاكرة، وها هى أم الخير، التى جسدتها عزيزة جالسة أمامها، تلك الليلة، بكل ما تملكه من أمومة دافقة فياضة، تغمر بعطفها الجميع، بما فى ذلك عزيزة نفسها، إذ تنادى جميع نساء السجن، اللواتى يتعاملن معها باعتبارهن بناتها، بما فيهن أولئك اللواتى يكبرنها فى العمر، بل وصلت أمومتها إلى قطة السجن المدللة، لتدلل بذلك على أنها الأمومة الكاملة، الأمومة المطلقة، التى ما عرفت عزيزة ما هو نسبى منها فى يوم من الأيام، ولا جربته أبداً، مذ قررت

بحس لا شعورى ذات يوم فى طفولتها البعيدة أنها لم تخلق للخصب أبداً، لكنها خلقت للعشق، الذى اكتفت به كدور واحد وحيد لها فى الحياة، وهو الدور الذى أخلصت له حتى القتل والجنون.

كانت أم الخير، بشخصيتها الأمومية الطاغية، هى الباعث الوحيد، على اكتشاف عزيزة لكلمة الأمومة، التى ما دخلت قاموس حياتها أبداً، فهى لم تشعر حتى من ناحية أمها بما يسمى الأمومة، فكان شعورها تجاهها أشبه بشعور أخت صغيرة تجاه أخت تكبرها بعدة سنوات، بل أنه كان أحياناً أشبه بشعور الصديقة الصغرى، نحو صديقة أثيرة، أكثر خبرة منها فى الحياة، فثمت ندية كانت فى العلاقة بينهما، وثمت خيط خفى كان يضعهما على قدم المساواة؛ اكتشفت عزيزة بعد دخولها السجن أنه يتمثل فى تعلقهما برجل واحد، عشقتاه سوياً، دون أى نزاع، أو تناقض، يمكن أن ينتج عن ذلك فبقدر ما كان يعطيها، كانت أمها تأخذ، إبتداء من الهدايا، والملابس الفاخرة الجميلة، والأمسيات الرائعة فى أرقى محلات المدينة، وأكثرها إثارة للبهجة، عندما كانت الإسكندرية بحق مدينة لكل الدنيا يؤمها الناس من كل مكان، وتعيش فيها صفوة أثرياء البلاد، وانتهاء بالجسد، الذى ما بخل به على واحدة منهما أبداً، لذلك فإن عزيزة ما شعرت بها كأم قط، لأنها ما أخذت أقل مما كانت تأخذه هى نفسها، وما أعطت أكثر مما كانت تعطيه هى أيضاً، بل أنها لم تضح ذات يوم بشىء، ولم تمتنع عن مطالبة نفسها بمتعة، تميزت بها عزيزة. الأكثر من ذلك أنها لم تشعرها أبداً، أنها الامتداد، أو منبع السعادة والطمأنينة فى حياتها، أو أمل مفترض لعمياء مثلها، حرمت نعمة البصر، فوجدت عزاءها فى ابنة لها، تسعى لأن تبصر من خلالها ما عجزت عيناها عن الإبصار به.

لكن هذه الجالسة أمامها جلوساً وهمياً، لا يراه إلا خيالها المتعب، الذى دمرته سنوات ممتدة من الوحدة والأسى، هى الإلهة الأم حقاً، إنها الأمومة

المطلقة، التى تعطى دون سؤال، وتفيض بعطائها على كل من تلتقيه فتضعه فى موضع أولادها، وعبر دوائر الدخان المتصاعدة، تجسدت صورة أم الخير فى عينى عزيزة، على هيئة تشبه هيئة ذلك التمثال القديم الضخم للمرأة البقرة الآلهة التى نست عزيزها أسمها تماماً فى هذه اللحظات، رغم محاولتها المستميتة للتذكر، واعتصارها نسيج ذاكرتها البالى المشبع بقطرات كثيرة من دمع وحزن، ولحظات سعادة متألقة كخمر عتيقة، لكن دون جدوى، الفارق بين التمثال الحقيقى، والمرأة المتجسدة من لحم ودم، كان فى ذلك الحليب المتفجر من حلمتى ثدييها، والذى سرعان ما راح يسربلها، حتى انساب من قدميها على الأرض أنسياباً، شكل مجرى صغيراً، رأته عزيزة يمتد حتى تجاوز باب الزنزانة، شاقاً طريقه على بلاط الدهليز الطويل، الذى تطل عليه بقية الزنازين، انحنت عزيزة على الأرض لتلعقه وتشرب منه، فقد بدا فى عينيها متلألئاً أكثر من أية خمر أسكرتها فى حياتها المنصرمة، واشتهته روحها على نحو لم تشته شيئاً مثله من قبل، فلما لامس لسانها بلاط الزنزانة القديم، وأحست بمذاق ندوبه الخشنة، بفعل كثرة الوطء ومرور الأيام، سقطت قطرات من دموعها ساخنة عليه، ولم ترفع رأسها إلا بعد أن استنفذت كل مخزون الألم واليأس المتراكم فى داخلها.

منذ ذلك المساء الحزين، الذى قلما عاشت عزيزة مثله، بعد ما اعتادت ليالى السجن الطويلة، باتت تعتقد على نحو لا يقطعه شك، فى أن أم الخير، ما هى إلا إلهة مبجلة من آلهة الجدود القدماء، هبطت من سابع سماء إلى سجن النساء، لتنقذ تلك الأرواح، الضائعة المعذبة عذابات الوحدة والنفى والإبعاد، وتواسيها بفيض حنانها، وعظيم عطفها، وقد دعّمت تلك النظرية العزيزية، العلاقةُ بين قطة السجن وأم الخير، التى اعتبرتها عزيزة علاقة غير طبيعية، لا يمكن أن تنشأ إلا بين إلهة، وحيوان أعجم، فالقطة تنام جل أيامها واضعة بوزها بالقرب من وجه أم الخير،

دون أن تنهرها، بل وكثيراً ما سمعتها عزيزة تحدثها، وتواسيها بالكلام الرقيق، فى كل مرة يلتهم فيها ذكور القطط صغارها، فى غاراتهم الليلية على العنابر، أثناء بحثها عما يملأ ضروعها باللبن لإرضاعهم، ورغم أن معظم السجينات كن لا يبخلن على هذه القطة بحنان من حرمن متعة التعبير عن مشاعرهن، تجاه من يحبونهن، فتبادلهن الحنان بالتمسح بأرجلهن، والمواء الخافت الرقيق، خصوصاً، عندما يرمين إليها بشىء من فضلات طعامهن الفقير أو يمسحون على ظهرها بلطف، إلا أن عزيزة كانت تلاحظ أن القطة تخص أم الخير بمعزة خاصة، من ذلك النوع السرى، الذى أدركت عزيزة على الفور، أنه لا يمكن أن يُمنح إلا للآلهة، لأن تلك القطة المشمشية، ذات العينين الداكنتين والذيل الذى أصبح أزعر، إثر معركة عنيفة، امتدت حتى مطلع الفجر ذات ليلة مع قط عجوز شرس، كانت تفضل المبيت كل ليلة تحت أقدام أم الخير فى فراشها ذاته، بل كانت ترقبها فى نومها، وتحميها كملاك حارس من أى خطر قد يتهددها، فقد اصطادت فى إحدى المرات فأراً غريراً، تسلل إلى الصندوق الكرتونى، الخاص بأم الخير، والذى كانت تضع متعلقاتها فيه، وفى واقعة أخرى سحبت عنكبوتاً كبيراً من ذلك النوع القارص السام، من فردة حذائها البلاستيكى، المبتكر فى مصانعنا المحلية، خلال الستينات، لمواجهة الحفاء التراثى، الذى تعود جذوره إلى حضارة ممتدة منذ سبعة آلاف سنة، وقد كانت أم الخير، وقتها، على وشك وضع قدمها، ذات الكعب المتشقق لكثرة ما انغرست فى الطين، بداخله.

لم يكن اكتشاف عزيزة للعلاقة السرية، بين القطة وأم الخير، إلا جانباً من جوانب اكتشافها لتلك الفلاحة الإلهة، التى تمتلك طاقات خارقة، قلما رأت مثلها لدى إنسان آخر، وخصوصاً ذلك الصبر العجيب الذى لا تقوى عليه غير شجرة صبار عجوز حقيقية، والذى لاحظته فى تعامل أم الخير مع تلك المرأة الصعيدية، الصغيرة، البائسة عايدة، التى يعرف عنها جميع

من بالسجن، أنها مصابة بداء غريب، يجعلها تنسى كل شيء فجأة وتتوه بين الحين والحين، لعدة ساعات أو لبضعة أيام، ويصل بها النسيان إلى حد عدم تذكر اسمها، والعجز عن التعرف على من حولها، بل إلى حد عدم معرفة الأشياء ولأى الأغراض تستخدم، مما يوقعها فى مشكلات عديدة، ويجعلها مثاراً لسخرية بعض السجينات اللواتى يجدن فى حالتها فرصة للتندر والضحك، خصوصاً عندما تأتى بأفعال غريبة لا منطقية، فلقد حدث مرة أنها نامت واضعة تحت رأسها حوضاً بلاستيكياً صغيراً بعد أن قلبته، عوضاً عن الوسادة، وفى مرة أخرى صنعت شاياً لمحروسة السجانة على سبيل الضيافة، عندما جاءت لتجلس بجانبها على سريرها فى العنبر، لكنها وضعت فيه ملعقتين من الفلفل الأسود، بدلاً من السكر، ولولا طيبة قلب محروسة، ومعرفتها بحالة عايدة، لكانت ضربتها كفاً جامداً على خدها، كأى سجانة أخرى، كانت ستفسر الموقف على أنه سخرية واستهزاء بها من قبل السجينة.

لقد أدركت عزيزة مدى صبر أم الخير، ومثابرتها فى الحنو على السجينات، منذ ذلك اليوم الذى سألتها فيه عن خبر عايدة، فقالت لها أم الخير، إنها شابة مسكينة، شافت فى الدنيا مصائباً وأهوالاً، لا يمكن أن يصدقها عقل بأى حال من الأحوال، جعلتها يتيمة، بالرغم من وجود ذوى القربى الحميمة ثم أنها تعيش بلا أمل، بعد أن فقدت الضرع والجمل، ولعل أفضل ما ينطبق عليها من الأمثال، القول الصائب فى بعض الأحوال: إن وصلك الطوفان، حط عيالك تحت رجليك، فلما استفسرت عزيزة عن أصل هذا المثل، وكيف ينطبق على عايدة الصعيدية، التى ربما تعقد عليها النية، وكانت تقصد بذلك، الصعود إلى السماء، تنهدت أم الخير وسألتها أن تصلى على النبى، فلما صلت عليه- عليه الصلاة والسلام- وزادته صلاة بناء على طلب أم الخير، قالت هذه الفلاحة الحصيفة:

- كان ياما كان، فى يوم من الأيام، عند غيط من الغيطان، أرنب

يعيش فى جحر مع أولاده، أسفل شجرة جميز عالية على طرف من أطراف الغيط، وفى مرة من المرات، طلب الأرنب من عيل له، أن يخرج ويراقب الطريق، والغيط، فإن شاف الطريق خالياً، والغيط لا يشتغل فيه أى نفر من بنى أدم، عليه أن يعود بسرعة ليخبره حتى يأخذه وإخوته الأرانب، إلى الغيط، ليؤكلهم ويشبعهم، ويلعب معهم فى سعادة وهناء، وهم جميعاً فى أمان، وسلام، وبدون أى خوف من بنى الإنسان، فلما خرج الأرنب الصغير، وبحث بعينيه فى الغيط، لم يجد جنس مخلوق، إلا ثعلباً عجوزاً، يدور فى المكان عن صيد يأكله، فلما شافه الأرنب الصغير، قال لنفسه، من الأحسن أن أسأله هل شاف أى إنسان فى الغيط، أو بالقرب من ذلك المكان، حتى يطمئن قلبى وأعود لأبى متيقناً من خلو الغيط فعلاً من أى إنسان، فذهب الأرنب إلى الثعلب وحياه تحية الصباح، ثم أعلمه بسبب خروجه، وسأله عن الإنسان، وكان الثعلب قد نوى افتراسه بمجرد أن رآه، لأنه كان فى غاية الجوع، والرغبة فى الإلتهام، لكنه سرعان ما تراجع، إذ فكر أن هذا الأرنب لا بد أن يكون له جحر قريب من الغيط، يعيش فيه مع إخوته، ولعله من الأفضل أن يعرف مكانه، حتى يتسلل إليه كل ليلة فيخطف واحداً من الأرانب ليتعشى به، ويوفر على نفسه جهد البحث عن فريسة بين الحين والحين، لذلك احتال على الأرنب الصغير وقال له إنه لم ير أى إنسان منذ مطلع الفجر حتى الآن، لكنه يخشى عليه وهو عائد إلى أبيه أن يراه إنسان فيؤذيه، وربما يقتله، مما يوقع أبيه فى الحزن والنكد، لذلك سوف يسير معه حتى يصل إلى جحره ويطمئن عليه.

فسار الثعلب إلى جوار الأرنب، الذى سر لذلك أيما سرور، والثعلب يسامره طوال الطريق ويحكى له حكاية البطة السوداء الغريرة، التى كانت تعيش فى الحظيرة مع عدد من الإوز، والديوك والدجاجات، وكانت ترى ألوان الإوز البيضاء، وألوان الفراخ الحمراء، وألوان الديوك البهيجة المزركشة، مما جعلها تتضايق وتغتاظ لأنها سوداء، سواداً غطيساً،

حرمتها الدنيا من نعمة الألوان، وفى أحد الأيام، شاهدها كلب مهمته حراسة الحيوان عندما يخرج من الحظيرة إلى صحن الدار، وحراسة الإوز عندما يذهب للعوم والإستحمام، وسألها عن سبب كدرها وضيقها، فلما شكت له همها، نصحها أن تتسلل إلى حجرة الخزين فى الدار، وتدس نفسها فى قفة الطحين، حتى يغطيها الدقيق فتصبح بيضاء ناصعة كالحليب، فتعود عندئذ إلى الحظيرة وهى فى غاية السرور، ويذهب عنها الغموالضيق.

فلما كان اليوم التالى، ذهبت البطة إلى حجرة الخزين، ودفنت نفسها فى قفة الطحين، وراحت تعفر ريشها ورأسها بالدقيق حتى همدت قواها من الجهد الكبير الذى بذلته فى تعفير نفسها، ثم عادت إلى الحظيرة، وكانت صاحبة الدار قد فتحت الباب للإوز، ليذهب إلى النهر القريب، فسارعت البطة للإلتحاق بالإوز، لتستحم هى الأخرى، وتمتع نفسها بالماء البارد، وتغتسل لتبدو نظيفة جميلة، فلما وصلت إلى النهر، ورأت الإوز الأبيض سابحاً فيه، نظرت باعتزاز إلى نفسها، ومدت رقبتها كبراً واستعلاء، إذ كانت تشعر أنها بيضاء جميلة، كالإوز بعد أن اختفى لونها الأسود المغطى بالدقيق، وسرعان ما ألقت بنفسها فى الماء، الذى أخذ يزيل ما علق بها من الدقيق الأبيض، ويعيد ريشها الأسود الحقيقى، فلما أكتشفت البطة ما جرى لها، خرجت إلى النهر، وعادت إلى الحظيرة كسيفة البال، لكن صاحبة الدار، كانت فى انتظارها وهى فى غاية الغضب، والسكين فى يدها، إذ قررت أت تذبحها وتأكلها على العشاء، بعد أن اكتشفت أنها دخلت فى قفة الطحين، وأخرجت من أمعائها ما يخرجه سائر الخلق أجمعين، فلوثت الطحين، وأفسدت ما كانت تخزنه ربة الدار لتصنع منه العجين.

لما وصل الأرنب الصغير والثعلب إلى جحر الأرانب الواقع أسفل الشجرة، تركه الأرنب مودعاً، ودخل الجحر لكن الثعلب بقى مختبئاً فى

مكان ما بالقرب من الشجرة، يرقب الجحر عن كثب ليتعرف على مداخله ومخارجه، بينما كان الأرنب الصغير فى هذه الأثناء، يقص على أبيه ما كان من أمره مع الثعلب، فلما سمع أبوه الحكاية، وفهم مغزاها ومؤداها، طب قلبه بين رجليه، وفهم أن الخطر بات وشيكاً، والكارثة لا بد محيقه، إذ أن الثعلب لا بد وأن يفترس الأرانب، ويهجم على جحرهم من كل جانب، لذلك أخذ يفكر ويفكر، ثم أنه نظر إلى ولده فى حزن وقال، أخرج من الجحر مرة أخرى، ولسوف تجد الثعلب فى انتظارك، فقل له بمجرد أن تراه، أنك لم تجد أباك وإخوتك فى الجحر، وأنهم ربما ذهبوا إلى الجحر الآخر فى الطرف البعيد من الغيط، ثم اطلب منه أن يصحبك إلى هناك مثلما صحبته إلى هنا، وعندما تصلان، اتركه وعد مسرعاً، وسنكون فى انتظارك.

فلما خرج الأرنب الصغير، وأدرك أبوه أنه هالك لا محالة، إذ رأى الثعلب يسارع بالمسير معه إلى الجحر البعيد، الذى لن يجده أبداً، مما يجعله يكتشف الخدعة، فيغضب ويفترسه وبمجرد أن غاب الثعلب والأرنب عن مرمى البصر، سارع الأرنب الكبير، بجمع أولاده، وهرب بهم من الجحر والغيط كله إلى بقعة بعيدة لا يصلها الثعلب، مضحياً بأرنبه الصغير، وهو يقول لنفسه: إن وصلك الطوفان، حط ولدك تحت رجليك.

ثم قالت أم الخير لعزيزة: إن ما جرى للأرنب الصغير، هو ما جرى للمسكينة عايدة الصعيدية، فتأملى حكمة ربنا فى خلقه، لأن ما يجرى فى دنيا الحيوان، يمكن أن يجرى فى عالم الإنسان. ثم روت لعزيزة ما كان من أمرها مع عايدة وهو أنها بينما كانت تجلس مستندة بظهرها على حائط العنبر القبلى تتشمس وتسلى نفسها بلعب الكبة بقطع طوب صغيرة، بعد أن زهقت من السيجة، والقطة المشمشية تتمدد مستكينة إلى جوارها فوق أحدث خطوط موضة الشتاء المنشورة فى صفحة المرأة بالعدد الأسبوعى من جريدة الأهرام، وتتابع بعينيها الطوبة الصغيرة التى

تقذفها في الهواء، لتلتقط واحدة من بقية الطوب على الأرض، قبل أن تسقط الأخرى المقذوفة، وإذ بأم الخير تسمع صوتاً أشبه بعواء أليم ضارع لكلبة من الكلاب الأرمنتية وقت المخاض، ومع أنها تعرف أن لا موضع للكلاب فى السجن، بسبب ظروفها القدرية التى لايمكنها من القفز، واجتياز السور العالى، أو الولوج من الباب العمومى تحت سمع وبصر الحراس مثلما تفعل القطط عادة، إلا أنها نهضت من مطرحها على الأرض، ظانة أنه ربما كانت هناك، كلبة تلد فعلاً، مما زاد فى دهشتها، لكنها لم تبتعد إلا خطوات قليلة عن موضعها، حتى رأت عايدة، تجلس أمام وعاء غسيلها، تحملق فى ذهول، وهى تصدر ذلك العواء الكلبى، ثم تقضم بأسنانها قطعة من صابون السجن، داكن اللون، وتمضغها بعنف يعادل آلام مخاض لدفع سبعة جراء على الأقل، من الرحم، إلى الحياة.

حكت أم الخير لعزيزة، أنها جرت بسرعة الى عايدة، لتنتزع من فمها الصابون قبل أن تبتلعه، فضغطت على خديها النحيلين، بيديها القويتين، وهما اليدان اللتان طالما أمسكت بهما الفأس لتعزق الأرض وتقلبها، حتى تمكنت من إجبارها على لفظ كل حشو فمها من الصابون، وعندما تأكدت من أن فمها، لم يعد يحوى إلا تلك الأسنان القليلة المتباعدة، واللسان الصغير الجاف، الذى يتهته، عادة، عند النطق والكلام، حررتها من قبضتها القوية، طالبة منها بحنان أن تصرخ، بكل ما تملك من قوة، وطاقة الحزن والألم المكتوم فى النفس، عندئذ أطلقت عايدة صوتاً طويلاً ممتداً، ربما لو وجد من يرعاه ذات يوم - وهذا ما لن يحدث بالطبع- لكان لصاحبته شأن مع الأوبرا، إذ كان متماوجاً بالأسى والألم، الذى وصل ذروته عندما سقطت مغشياً عليها.

فى مساء اليوم نفسه، بعد أن نقلت، لتبيت مؤقتا فى عنبر الضعفاء الواقع ضمن المكان المخصص من العنابر كمستشفى للسجن، حكت عايدة التى ظلت تائهة، لا تتذكر شيئا من الأشياء، طوال اليوم، والتى لم تأكل إلا

قليلا، دون شهية تذكر، حكت لأم الخير حكايتها، بعد أن ظلت الى جوارها طوال الوقت، تمدها بشراب الليمون المحلي بالسكر، ليروق دمها، وتدعك لها راحات يديها، وقدميها، ليسرى الدم فيهما، بعد أن ازرقت وصارت باردة كقطع الثلج، وكانت أم الخير طوال الوقت، قبل ذلك، ترجوها أن تتكلم، وتحكى عن كل ذلك الذى يؤلمها، لأن اختزانه سوف يقودها لامحالة الى الجنون، ثم أن عليها أن تثق فيها، وتركن اليها، بل وتضعها موضع أمها الحقيقة، التى لايمكن تعويض حنانها بحنان آخر، عند ذلك الحد من كلام أم الخير، انفجرت عايدة فى بكاء هستيرى، فاق كل البكاء الذى قامت به سيدة البكاء الأولى أمينة رزق، فى كل أفلامها، التى مثلت فيها للسينما المصرية، لأن أم الخير نكأت بكلماتها موضع الجرح، ومكمن الألم، حتى أن عايدة ارتمت على صدرها كما ترتمى بنت على صدر أم حقيقية لها- وإن جاء ذلك على نحو مسرحى - وصرخت قائلة أن أمها ضاعت، بل إنها لم يكن لها أم ذات يوم من الأيام أبداً، مما جعل أم الخير تبكى بحرقة هى الأخرى، وتحتضنها بشدة، بعد أن ألقت المرأة البائسة بالكرة فى مرمى ملعبها.

كانت السجينات يعرفن أن عايدة، جاءت الى السجن محكومة بالأشغال الشاقة المؤبدة، بسبب قتلها لزوجها، أما تفاصيل ذلك، وأسبابه، فهذا مالم يُعرف، إلا بعد أن ألمّت أم الخير بالقصة تماماً، وأصبح من العادى أن تقصها عايدة بنفسها، على أية واحدة من السجينات دون حرج، أو خوف، كى لاتتركها مكتومة بداخلها تفترس مشاعرها، وتأكل فى روحها، التى طالما تعذبت، ومازالت، عذابا لا حد له، بات يشكل ملامحها، التى هى شاهد حى على ترحيب أجدادنا القدماء، ترحيبا حارا بحملة قمبيز العسكرية قبل الميلاد بحوالى خمسة قرون، إذ كانت النظرات الحزينة المهزومة لا تنقطع من العينين الداكنيتين، اللتين يعلوهما حاجبين كثيفتين طويلين، لعايدة، وكان شعرها الطويل الآرى فاحم اللون، يتهدل على وجهها

ذى البشرة السمراء المائلة للزرقة، والحافلة بخطوط وتجاعيد مبكرة، بالنسبة لامرأة لم تبلغ الثلاثين من العمر، إضافة للألم الراقد بداخلها، مما يجعلها على وشك الإنهيار، وعلى حافة الجنون الحقيقى.

كانت عايدة فى الثالثة والعشرين من عمرها، عندما قرر أهلها تزويجها من ابن عم لها، يكبرها بحوالى عشرين سنة على الأقل، وذلك بعد أن جاء عمها، وزوجته التى طالما تفاخرت بأنها من الأشراف، لاحتفاظ أهلها بوثيقة نسب تتصل بالبيت النبوى الشريف، وبعد أن شربا الشاى مع أمها وأبيها، قرأ الرجلان الفاتحة، ثم أطلقت أمها زغرودة مجلجلة فى البيت، تخطت حوائطه، لتصل الى مسامع الجيران، ولتكون بمثابة إعلان عن حدث سعيد، وبعد ذلك نادت على عايدة وقبلتها أمام الجميع فى غرفة المسافرين، المفروشة بطاقم كراسٍ أسيوطى، والمزينة بصور فوتوغرافية كبيرة تسع، معلقة فى إطاراتها على الحوائط، لأبيها وإخوته، وبعض الأقارب الذين ماتوا منذ سنوات بعيدة، وبعد أن هنأها الجميع، قال لها أبوها : مبروك ياعايدة، عمك خطبك لابنه منسى، زغردت الأم مرة أخرى، زغرودة، أطلقت مثلها زوجة العم التى سوف تكون حماتها المقبلة، وبذلت جهداً تنفسياً كبيرا لتكون أطول من زغرودة الأم.

لم تكن عايدة تكره منسى، مثلما لم تكن تحبه، لأنها فى الواقع لم تكن تعرفه عن قرب، فوقت أن كانت ماتزال طفلة صغيرة، مسموح لها باللعب مع الأولاد الذكور، كان هو شابا، يأتى لزيارتهم فى أحوال قليلة لأسباب تتعلق بأمور عائلية يكلفه بها أبوه، ليوصلها الى عمه، وعندما كانت تذهب مع أمها وأخيها الى دارهم فى المناسبات، لم يكن يجلس معهم إلا نادرا لأن أخاها كان صغيرا أيضا، بالنسبة له، وفى السنوات الأخيره قبل الخطبة، أصبحت لاتراه تقريبا، إذ كان يعمل مدرسا فى مدينة أخري بعيدة عن بلدتهم، مما يجعله يغيب لفترات طويلة.

قبل الزواج، كانت قد حصلت على شهادة دبلوم التجارة، وهى الشهادة

التى تعتبر الحل الحكومي الماكر لمواجهة الأعداد المتزايدة من الأجيال الراغبة فى التأهيل تأهيلاً يمكنها من الحصول على عمل مناسب، وقد سارع عمّها بخطبتها فور حصولها على الدبلوم، لتدخل مرحلة الإعداد للزواج، الذى باتت أمها بسببه فى حالة من السعادة والفرح تشبه حال دجاجة باضت لتوها فى العش، لأن العريس، إضافة الى أنه سوف يرث فى المستقبل نصيب الأسد من أرض أبيه باعتباره الذكر الوحيد بين بنتين، انتعشت احواله الماليه انتعاشا كبيرا، بسبب إقباله على إعطاء الدروس الخصوصية للتلاميذ، مما جعله يساهم فى تجهيز منزل الزوجية المرتقب، بكثير من الأشياء التى لا يلتزم بها العريس عادة، فبالإضافة الى ماوجب عليه من شراء السجاد، والنجف، وخشب المطبخ، وفقاً للعرف المتبع، قام بتركيب مروحه بسقف صالة الشقة المزمعة الإقامة فيها، وغطى جدرانها بورق حائط منقوش، متنافر مع الصالون المذهب، الذى اختارته أمها، وقد اعتبر ورق الجدران هذا من قبل جميع أفراد العائلة، والأصدقاء، تحفة فنية، ثمنت العريس عاليا، وبعد أن استكمل شراء الأدوات الكهربائية اللازمة للبيت من أجور الدروس الخصوصية، التى كان يحصلها أخر كل شهر من أهالى تلاميذه، مقابل حصول ابنائهم على جرعات تعليمية من خلال تلك الدروس التى باتت بديلا للدروس المدرسية التى لا يؤديها المدرسون.

راح العريس، يبتاع كل شئ يجعل الحياة سعيدة رائعة من وجهة نظره، ابتداء من ولاعة الغاز الأوتوماتيكية، وماكينة حلاقة الذقن الكهربائية، وانتهاء بالفيديو، الذى كان أول من اشتراه فى البلده، وقد عرض فيلم اسماعيل يس فى الجيش ذات يوم مشهود على أمه وأبيه وأخوته، وعدد من الأقارب والجيران، الذين أمتلأ بهم بيت أبيه الواسع القديم، واستهلكوا خلال ذلك علبه شاى ليبتون كبيرة وكيلو سكر.

قبل الزواج، كانت عايدة، تدرك أن زوجها المقبل مدلل للغاية، لا يرفض

له طلب عند أبيه وأمه، لكنها لم تتصور أبداً، أن له ذلك الطبع الحاد الخشن، الذى لمسته بمجرد أن تزوجته وبدأت معاشرتها له، وقد أدركت بعد ذلك، لماذا ظل أخوها غير مرحب بالزيجة لفترة طويلة، محاولا ثنى أبيه عن الاستمرار فيها، بحجة أن تمنح شقيقته الفرصة، لترتبط بمن هو أفضل من ابن العم، الذى جرى قبوله كزوج لها على وجه السرعة، لكن الأب اعتقد أن رأى الأبن بمثابة مساس بكرامته الشخصية، وانتقاص من شأن أخيه وابنه، واقسم بالطلاق، المثلث، أنه سوف يطرده من البيت طردا نهائيا، لا عودة فيه إن هو فاتحه فى الأمر مرة أخرى.

لم تكن علاقة عايدة بشقيقها الوحيد، من ذلك النوع المعتاد فى العلاقات بين الإخوة والأخوات، فى بلدة صعيدية بعيدة كبلدتهم، فأخوها رقيق الطباع، هادئ الشخصية، لا تحكم سلوكه التباينات الحاده، التى تحكم العلاقة بين الولد والبنت، رغم أنهما تربيا فى بيئة تعتبر الذكور أفضل من الإناث، وتتيح لهم كل الحقوق، ولا تسمح إلا بالقليل منها للجنس الذى طالما اعتبر أدنى قيمة، ولم يخلق إلا لوظائف الحمل والإنجاب، ربما كان ذلك بسبب تقاربهما السنى، إذ كان يصغرها بعشرة شهور فقط، وقد انقطع بعد خروجه إلى الدنيا كل أمل فى الحصول على مزيد من الأطفال، إذ قامت الأم بعد ذلك باستئصال بيت الولْد كاملاً، فكان أبيهما يهدد دائما بالزواج من أخرى، للحصول على مزيد من العيال، وشعورهما الدائم من الصغر، بالخطر، الذى كانت تلقمه لهما أمهما من جراء ذلك، فإن الحميمية، التى ربطت بين عايدة وشقيقها، بلغت حدا لم تشعر معه بالحزن لفراق أبيها أو أمها ليلة زفافها، وانتقالها الى بيت الزوجية الجديد، ولا لأنها ستنتقل الى مكان آخر غير بيتها الذى نشأت وتربت فيه، لكن شعورها بالافتقاد كان موجهاً أساسا تجاه هذا الشقيق الوحيد، الذى هو توأم روحها، ورفيق أيامها منذ كانت طفلة صغيرة، ولعل ذلك الشعور بالحنين إلى أخيها الوحيد هو الذى ساهم فى تصاعد مشاعر الكراهية تجاه

زوجها الذى نفرت منه، ولم تنسجم معه منذ اللحظة الأولى لزواجها، عندما جلست الى جانبه ليتعشيا سويا، بعد أن ذهب أهلها، ففوجئت بشراهته الشديدة للأكل، إذ أجهز على بطة وزوجين من الحمام المحشو بالفريك البلدى، كانت أمها قد أعدتهم لهما، تاركا لها الفتات، أما مداعباته، وغزله معها، فقد جعلاها تشعر وكأنها غازية من غوازى الموالد اللواتى طالما سمعت عن سلوكهن وأفعال الرجال من طالبى المتعة السريعة، مدفوعة الثمن، معهن، فكرهته عندئذ، وكرهت ملامسته لها، بعد أن باتت تحس أنها دُنّست دنس سجادة صلاة طاهرة، وطأها خنزير نجس.

خلال شهرين من الزواج، وقبل أن تحمل بابنها الوحيد، كانت الخلافات بينهما، قد تحولت الى طقس من طقوس حياتهما اليومية المشتركة، فقد بدأت يده تمتد اليها بالضرب، لأسباب مختلفة، تافهة فى العادة، كأن تكون قد وضعت علبة المربى فى الثلاجة، وهو ما نهاها عنه كثيرا، لأنه لا يحب المربى صاقعا، أو تكون قد نامت وفص لبان مرّ فى فمها مما يجعله يغتاظ بسبب المذاق المر لريقها، عندما يقبلها، والحقيقة أن عايدة لم تكن تفعل ذلك من باب مضايقته، ولا من باب معاندته، لكنها كانت تفعل ذلك بحكم داء النسيان الخفيف، الذى بدأت تعانى منه آنذاك، وهو النسيان الذى سوف يبلغ ذروته فى السجن، فيجعلها تتوه عن الدنيا.

لطالما اشتكت عايدة من زوجها لأمها، باعتبارها أقرب النساء إليها، ولطالما أرتها الكدمات والخبطات الزرقاء على لحم جسدها، لتشعرها بمدى العنف الذى يقوم به زوجها تجاهها، لكن أمها كانت دائما ترفض التدخل بينهما، وتحرص على ألا تصل مثل هذه الشكاوى إلى مسامع الأب، بل وكانت تقول لابنتها أنها الملومة، لأنها لا تسايسه ولاتلاطفه، ولا تسعى لفهم طبعه كولد، وحيد، مدلل، وإنها لو كانت ذكية، حذقة، لجعلته مثل خاتم سليمان فى يدها، لكنها حماره، لا تقدر النعمة التى بين يديها، ولا تعرف قيمة الهدية، التى أهداها الله لها، لأن زوجها رجل ملء هدومه، طول

بعرض، من عائلة مؤصلة، وله وظيفة ممتازة، وطين سيرثه، وإن كل بنات البلد يحسدنها لأنهاتزوجت بواحد مثله، ثم أنها تتبطر على الخير، رغم أنها سوداء، لا صدر لها ولا عجز، ولولا ذلك الشعر الأسود الناعم، الموروث عنها، والعينان الواسعتان، لما نظر رجل في وجهها طول عمرها، وأن زوجها لو لم يكن أصيلاً، راغباً فى لم لحمه ودمه بالزواج منها، لاستطاع الحصول على واحدة بيضاء شقراء، تفوقها جمالاً وحلاوة، لأنه مقتدر ويده تطال كل ما يريده ويتمناه.

لم تكن عايده، تقتنع آبدا بكلام أمها، التى طالما عاملتها بقسوة وبعنف، لم تجد لها مبررا واحداً، منذ طفولتها الأولى، وكانت تتعجب دائما، لأن أمها لا تدافع عنها عندما تكون خالتها فى زيارتهم، وتتندر ساخرة من لونها الأسمر، وجسدها النحيل، وتقول باستهزاء أنها لا تصدق أن بطن أختها يمكن أن يحمل وينجب مثل هذه الإبنة، التى عثر عليها، ولابد، فى كومة من أكوام الفحم فى دكان الفحام. وكانت عايدة البائسة ترى أن أمها تقسو عليها أكثر، عندما تصر على حرمانها من البوح بمشكلاتها حتى لأخيها الصديق، محذرة أياها من ذلك، لئلا يغضب أخوها ويثور، فيذهب الى زوجها ليعاتبه ويناقشه، فى ذلك، مما قد ينتج عنه خلاف بينهما، قد يصل الى حد القطيعة ذات يوم من الأيام، الأمر الذى جعلها حريصة على إخفاء كل مشكلاتها مع زوجها عن أخيها، بل وكانت تسعى أن تكون أمامه سعيدة للغاية فى حياتها الزوجية، التى كانت بالنسبة إليها جحيما لا يطاق.

وصلت المشكلات بين عايدة وزوجها الى ذروتها، بعد مرور عام كامل على زواجهما، دون أن تحمل وتنجب له طفلا يصبح باكورة انتاجها لعدد من الأطفال، يكون أبا لهم كما تمنى دائما، وكانت المشكلة من وجهة نظر الزوج أنه لن يستطيع الزواج من امرأة أخرى بسرعة، بسبب النفقات الباهظة التى تكلفها تأثيث منزل الزوجية، وبلوغ منتهى حلمه ومطلبه، فى

حياة ناعمة ميسورة، لذلك فقد أخذ يعيرّ زوجته بين الحين والحين، بعقم مفترض، لم يكن قد أثبت بعد فقد قال لها طبيبان، من أولئك الأطباء الذين يفتحون عيادات خاصة بعد سنوات قليلة من تخرجهم أنها سليمة تماما، بينما قالت لها طبيبة مخضرمة فى مهنتها، أن تبويضها يمكن أن يكون ضعيفاً بعض الشئ، وأشارت عليها أن تجرى بعض التحاليل وأن يقوم الزوج، هو الأخر، بفحص طبى للتأكد من حالته، لكنه عندما عادت الى البيت من زيارة تلك الطبيبة، التى كانت قد قصدتها مع أخته الكبرى، وكررت عليه ما قالته لها، عندما اختليا سوياً، لطمها على وجهها لطمة قوية، أدارت رأسها، واتهمها بأنها قد وصلت فى تطاولها، وعدم احترامها له، إلى حد الانتقاص من رجولته، مؤكداً لها أنه لو كان تزوج من زمن بعيد امرأة غيرها، امرأة حقيقية، تحبل وتلد، لصار لديه الآن دسته من العيال، وقد حاول إثبات رجولته في هذه الليلة عدة مرات، رغم قرفها الشديد منه، ورغبتها التي تجسدت واضحة لأول مرة، خلال ذلك، فى أن يموت، ويجيئه طاعون يشيله من مطرحه وهو قاعد.

فرحت عايدة فرحاً شديداً، عندما أبلغتها أمها بعد ذلك بسنتين، أن زوجها قد فاتحها برغبته في التزوج من امرأة أخرى، فقد رأت فى ذلك حلا سعيداً لمشكلتها، وانزياح لهمّ ما تصورت أنه من الممكن أن ينزاح عنها، بهذه السهولة، فى يوم من الأيام، وقد فوجئت أمها بذلك فشتمتها متهمة إياها بأنها بليدة، وباردة، لا حس أو شعور لديها، لأن أية امرأة أخرى فى مكانها، كانت ستبكي وتندب حظها وخيبة أملها؛ وعندما عادت إلى بيتها فى ذلك اليوم، بعد زيارتها لأمها، وعلمها بما ينوى فعله، لم تخف شعورها بالارتياح، والرضا، وقد بدا هذا واضحا فى استقبالها البشوش اللطيف له، عندما عاد من دروسه الخصوصية آخر الليل، فوضعت له العشاء، وعرضت عليه أن يأخذ حماما ساخناً ليريح جسده وأعصابه، وظلت على هذه الحال عدة أيام، آملة أن يفاتحها فى موضوع

الزواج، لتقول له: سر على بركة الله؛ وأنها موافقة تماماً، شريطة أن يطلقها، وتعود مرة أخرى إلى بيت أبيها، لتعيش فى دعة وسلام،*لكنه جاءها ذات ليلة مبكراً عن الوقت، الذى اعتاد أن يأتى فيه إلى البيت، وطلب منها إعداد كوب من الشاى له، ثم بدأ يتحدث معها حديثاً لطيفاً لم تعتده منه من قبل، فأثنى على تسريحة شعرها، التى ما كانت مختلفة بأى حال من الأحوال عنها فى كل أيامها السابقة، ثم قال لها إنه فكر كثيرا، وصلى صلاة استخارة توصل بعدها إلى أنه كان سيخطو خطوة، ربما ندم عليها بعد ذلك طوال عمره، فقد كان ينوى الزواج من واحدة غيرها، لكنه ثاب إلى رشده وأقلع عن هذه الفكره السيئة، ثم قال لها " إنك يا عايدة من لحمى ودمى، وسترك واجب علىّ مهما كان الأمر". وأخذ يشيد بأخلاقها، التى لا يضمن وجود مثلها لدى أخرى، وقدرتها على التحمل، والحياة معه على الحلوة والمرة، واقترح أن تذهب إلى طبيب مشهور بالقاهرة، تخصص فى العقم، مؤكداً أنه مستعد لتحمل نفقات أية عملية يقترحها هذا الطبيب أو غيره، مهما كانت كبيرة، لأنه لم يعد مقتنعا بأطباء البلد محدودى الخبرة، ولا بكل تلك الوسائل الشعبية، التى اتبعتها بناء على مشورة أمها وأخته الكبرى، ثم ألقى بقنبلة الليلة وهو يرشف بصوت عال الرشفة الأخيرة من كوب الشاى، فأعلن أنه سوف يذبح عجل جاموس، إن هى حملت بمشيئة الله، أمام مقام السيدة أم الغلام، شفيعة الأطفال ومن يحبونهم، على أن يوزع لحم العجل على الفقراء والمحتاجين وعابرى السبيل، فى الحى، الذى يوجد بة مقامها بالقاهرة.

لم يتسن للزوج الآمل فى العيال أن يفعل ذلك أبداً، مثلما لم تتمكن عايدة من استعادة سكينتها المفقودة، مرة أخرى، بسبب تقاعس الزوج عن الزواج، وهكذا اشتعل العنف القديم، الممتد بينهما، بعد هذه الهدنة المؤقتة، التى كانت مرهونة باحتمال الزواج الجديد، فقد عادت عايدة محبطة إحباطاً كبيراً مرة أخرى وعاد الزوج إلى إهانتة لها، وضربها بشكل بات

يتخذ أشكالاً سادية جديدة، فكان يضربها بحزام بنطاله الجلدى أحياناً وبعصاً من الخيزران، كان يسحبها من حقيبته المدرسية، بسرعة، لينزل بها على أى موضع فى جسدها، وهى العصا التى كانت مخصصة لمراهقى المدرسة الثانوية، الذين لا يكفون عن الشجار والشغب أثناء الحصص، وفى أحد الأيام، وبينما هو يضربها ضرباً شديداً قاسياً، عند المساء، إذ اكتشف أنها غسلت عشرين جنيهاً، وبطاقة عضويته فى نقابة المعلمين كان قد نسيها فى جيب أحد بناطيله، بعد أن سها عليها تفتيشه قبل أن تغسله، وأنبها على ذلك فردت عليه بجفاء ولا مبالاة، إذ قالت له ببساطه، وبدون أى خوف أو شعور بالذنب، أنها نسيت تفتيش الجيوب، فقام بشتمها، ثم تطور الأمر كما كان يحدث عادة إلى ضرب أسال دمها، لكن هذه المرة اختلفت عن كل المرات السابقة، إذ رن جرس الباب، فجأة، بينما كان يضربها وهى تجرى لتختبئ فى الحمام، بعد أن أخذ الدم يسيل من أنفها ووجهها، فكف عن ضربها ليفتح الباب للقادم، الذى لم يكن إلا أخيها حاملاً معه كيسين من الموز والبرتقال، وأمها التى كانت لا تزال عند الدرجة الأخيرة من السلم تحمل بيدها صينية بقلاوة ملفوفة بعناية فى ورق ملون، يحمل اسم محل الحلويات الذى جرى شراؤها منه كهدية زيارة بسيطةللزوجين.

لاحظ الأخ، بمجرد أن ولج من الباب، قطرات الدم المتناثرة فى أرضية الشقة، فسأل عن أخته التى جاءت من الداخل على صوت الجرس، لتستجير بالقادم من الضرب، فلما رآها مشوشة الشعر، دامعة العينين، دامية الأنف، مورمة الشفتين، تعلو عينها اليسرى كدمة، لم يتمالك نفسه من الغضب، فجرى ناحية الزوج، منقضاً عليه آخذاً فى ضربه، لكن الزوج، الذى كان ما يزال مستشيطاً، ومنفعلاً انفعالاً عصبياً شديداً، دخل المطبخ بسرعة، وعاد حاملا سكينا كبيرة، طالما استخدمتها عايدة فى ذبح الفراخ، وانقض بها على الأخ، الذى كانت طاقة عنف هائلة قد اندلعت

بداخله، فبدا كالثور الهائج فى حلبة السباق، وما كان منه إلا أن باغت الزوج، ساحبا منه السكين، التى أوشك أن يسددها إلى صدره، وأخذ ينهال عليه بطعنات عديدة منها، سقط على إثرها الزوج كعجل الجاموس، الذى كان ينتوى ذبحه لأم الغلام.

حاولت عايدة أن تصرخ، لكن فمها، الذى فتحته عن آخره، لم يخرج منه غير زفيرها الحار غير المرئى، وسارعت محاولة انتزاع السكين المنغرسة فى ظهر زوجها، الداخل فى احتضاره، لكن أمها التى كانت قد دخلت الشقة، وأغلقت الباب خلفها، سارعت لتحول بينها وبينه، وتمنعها من الاقتراب منه، وكأنها أعدت خطة مسبقة لقتله، إلا أنها -فى الحقيقة- كامرأة صعيدية، كانت قد استوعبت على مدى حياتها كل دروس القتل، الذى شهدته كثيرا فى بلدة معزولة، يُعَدّ الموت عموما، والقتل، خصوصا لأجل الثأر، تفصيلة عادية من تفاصيل حياتها اليومية، وقالت لإبنتها مشيرة إليها بالابتعاد، بصوت هادئ واثق من حكمة صاحبته:

– ابعدى.. الأحسن أن يموت.

كان ابنها ذو الجسد الناحل، الشبيه بجسد أخته، قد سقط منهاراً على أقرب كرسى فى المكان، بينما عرق غزير يتصبب من وجهه، المصفر صفار وجوه الموشكين على الموت، لكن الأم الجهنمية هزته بعنف طالبة منه أن يمسح عرقه ويفيق لنفسه، فلا وقت للإنهيار، وأخذت تفكر فى الأمر، وتعد لكل شئ، كما لو كان برأسها عقل آلى دقيق، صنع فى اليابان، ثم نادت منبهة ابنتها، التى كانت ما تزال مذهولة، فاغرة الفم من عنف الصدمة، وشدة الرعب، وقالت لها بصوت حديدى جامد :

– اسمعى المصيبة حصلت، والحمد لله أنه مات، لأنه لو كان عاش، لأصبح الموضوع حكاية لا يعرف نهايتها إلا الله، فافهمى يابنتى، كل كلمة أقولها لك، واعملى بمشورتى من الأول إلى الآخر، وإلا فالبوليس سيعرف الحكاية، وتصير المصيبة مصيبتين.

كانت خطة الأم بسيطة، ولا تحتاج الى مهارة كبيرة فى ترتيب الأحداث، لكنها كانت محكمة الى حد كبير، فبعد أن مسحت بصمات ابنها المطبوعة على مقبض السكين، أمرت عايدة أن تدس يمناها فى شعرها المدهون بزيت الخروع، وتمسك بالسكين، كما لو كانت هى التى قامت بالقتل، بعد أن اقنعتها أن أخاها لا ذنب له فيما جرى، وأن الذنب ذنبها، لأنها لم تسايس أمورها، وتتفاهم مع زوجها، كما كانت تنصحها، وترجوها، لتسير سفينة حياتها معه بأمان، خصوصا وأنها عاقر عقيم، وهو رجل طيب، صابر على ماابتلاه الله به من نصيب، وعلى حرمانه من ابن يحفظ اسمه على وجه الدنيا كيلا ينقطع ذكره بين الناس، وأن عليها أن تحل المشكلة بنفسها، لئلا تودى أخاها فى داهية وأن تواجه المشكلة حتى النهاية فتعترف بقتله، لأن اعترافها بالقتل أمام البوليس والنيابة، سوف يحسم الأمر، ويوقف نهر الدم الذى يمكن أن يتدفق ويسيل، الى مدى لا يمكن التهكن بنهايته، لو عرف أن القاتل هو أخيها، لأن مسلسل الانتقام، ومسح الدم بالدم بين اسرتهم وأسرة عمها لن ينتهى، فلابد أن الأب سوف ينتقم لابنه الوحيد، فيقتل أخيها غير مكتف بقصاص الحكومة وحكم القضاء، الذى لا يعترف به أحد فى بلدهم، مما سيجعل الأمر فى النهاية يؤول الى أن يصفى أبناء العائلة بعضهم بعضا، ويفنى الرجال، بسببها، وهى التى لن يقتص منها أحد، ولن تحكم الحكومة عليها إلا بسنوات سجن قليلة، لأنها لم تقصد القتل، ولم تضمره لزوجها، من قبل، وأن عليها أن تصر على أنها قتلته بالصدفة، أثناء قيامها بالدفاع عن نفسها.

لم تقل الأم لابنتها بقية ما خططته، وهو التخطيط الذى اكتشفته عايدة بعد ذلك، ولم تنقطع عن التفكير فيه، حتى وقت عضها والتهامها لصابونة السجن السوداء، فقد وعدتها أمها، بينما كان البوليس يحملها فى سيارته إلى قسم الشرطة للتحقيق معها، بعد أن انتقل الى البيت وعاين الحادث،

الذى هز المدينة الصغيرة، لأنه جاء من بيت لم يكن أحد ليتوقع أبداً حدوث مثل هذا النوع من الحوادث فيه، وعدتها بأن توكل أكبر محام فى القاهرة للدفاع عنها، وبرعايتها تماما حتى صدور الحكم، وبعدم التخلى عنها أبدا طوال حبسها، لكن ما حدث فى الواقع، كان شيئا مختلفا تماما، لم تتوقع عايده حدوثه بل إنها لم تصدقه أبدا رغم مرور وقت طويل عليه، إذ أن امها وأبيها أعلنا بمجرد الحكم عليها بالسجن المؤبد التخلى عنها، والتبرؤ منها حتى يوم الدين كمجرمة قاتلة، لم ترع حرمة لقرابة أو دم، بل والأكثر من ذلك أنهما اعتبراها ميتة بالنسبة لهما، دون أن يتقبلا العزاء بها، بالإضافة الى ماكان أنكى من ذلك وتم لإرضاء أسرة الزوج المقتول، وهو إجبار شقيقها، ذلك الشاب الصغير الرقيق، على الإقدام تحت ضغط الأب والأم، على الزواج من شقيقة القتيل الكبرى، رغم أنها أرملة تكبره بتسع سنوات، ومصابة منذ طفولتها بشلل الأطفال، ورغم أن عايدة حاولت الاتصال بهم بشتى الأشكال، فأرسلت لهم عشرات الخطابات، ثم شيعت لهم أخبارها مع سجينة من بلدتها، التقتها فى السجن، وحصلت على إفراج بعد انتهاء نصف المدة المقررة لها، بسبب سلوكها الحميد، إلا أن الأيام والشهور، كانت تتابع، دون أدنى كلمة من هؤلاء الأهل، القاسية قلوبهم قسوة الصخر، مما جعلها تنهار تماما، وتندم على اللحظة التى وافقت فيها أمها على رأيها وانصاعت لتنفيذ خطة الاعتراف الجهنمية التى رسمتها، ورغم أنها ترددت وقتها وخافت، إلا أن نظرات الأم الصخرية المخترقة لروحها وكيانها، أخافتها أكثر، بالإضافة الى خشيتها على أخيها الحبيب، الذى ما قتل زوجها إلا لفرط تعاطفه معها، وحرصه على كرامتها الضائعة.

بعد أن فقدت عايدة الأمل فى استعادة أى خيط يربطها بأسرتها وبعالمها القديم، وقعت فريسة الحزن والأسى وباتت تشتهى الموت، مثلما تشتهى وتتمنى رؤية أخيها الحبيب، الذى طالما أرسلت له الرسائل

تستعطفه وترجوه أن يرد عليها، وكان أكثر ما يعذبها أن قلبه الحنون الرحيم بها دائما، رضخ لتأثير أمه وابيه، وطاوعه فى التخلى عنها ونسيانها والبخل عليها حى بكلمات قليلة يرسلها اليها فى خطاب، وهى بهذا المكان الرهيب، بل وكانت لا تتمنى شيئا فى الحياة، قدر تمنيها لرؤيته مرة واحدة لتواجهه وتضع عينيها فى عينيه الجميلتين، وتعاتبه على قسوته معها، وهى التى ما قبلت أن تمثل دور القاتلة إلا لأجله، ولأجل الحفاظ عليه سالما من غير سوء.

لكنها ذات يوم، وهو اليوم الذى أكلت فيه الصابون، التقت بالصدفة فى مطبخ السجن بسباك، تعرف عليها منذ الوهلة الأولى، فقد كان يقطن بالشارع نفسه الذى سكنت فيه فى بلدتها البعيدة، لما كانت متزوجة، وعرفت أنه محكوم عليه بالسجن أيضا، ونزيل فى سجن الرجال المجاور بتهمة سرقة كابلات التليفونات، فأخذت تسأله عن أحوال أهلها بشغف، فقال لها أن أمها بخير وكذلك أباها وعمها وزوجته، لكنه عندما سألته عن شقيقها، الذى كان أمره يهمها، أكثر من هؤلاء جميعاً، تلكأ قليلاً ثم قال لها أنه مات، فقد حاولت زوجته أن توقظه من نومه ذات صباح ففوجئت به لايرد عليها، فلما أعادت المحاولة مرة أخرى، اكتشفت وفاته، وقد شخص طبيب الصحة الوفاة على أنها بسبب سكته قلبية مفاجئة، داهمته أثناء نومه، لكن البلد كلها تقول أن زوجته سمّته، بسم نادر لا يترك أية آثار على الجسد، أو فى أى عضو من أعضائه، عند ذلك تركته عايدة، وخرجت لاتحملها قدماها الى فناء السجن وظلت واقفة، فاغرةالفم، كما كانت لحظة أن قتل شقيقهُا زوجَها، لكنها سرعان ما سارت الى عنبرها، وجمعت ملابسها القليلة، وفرش سريرها الأبيض، وذهبت لتغسلهم، رغم عدم اتساخهم، فقد كان الغسيل، ودعك الثياب، والانكباب عليها بهمة ونشاط، هو الوسيلة المثلى، التى اكتشفها عايدة لتفريغ همها، والفضفضة عن مشاعرها المكبوته، كلما ضاقت بها الدنيا، فحارت معها تصرفاً، لكنها،

رغم أنها غسلت بما يكفى، وأعادت دعك ما ليس بحاجة الى الدعك، عدة مرات، شعرت أن الغسيل فى هذه المرة لا يفرج عن همها، ولا يشفى غليلها، بل ولا يمتص كل طاقة الألم التى بداخلها، لذلك لم تتمالك نفسها، فراحت تعوى كما الكلبة من فرط الألم، الذى بات يمزق روحها، بل ويتجسد فى آلام فظيعة ببطنها، كما لو كانت تلد بالفعل، رغم أنها ما جربت يوماً آلام الولاده والمخاض، ثم بدأت فى التهام الصابون، لأنها وجدته أفضل من التراب الذى تجلس عليه، وكانت على وشك أن تسفه أيضا، لولا أم الخير التى جاءت اليها لتضغط على شدقيها بقوة، ومنذ تلك اللحظة، لم تدر أو تع شيئاً، حتى فتحت عيناها مرة أخرى، لتجد نفسها على سرير فى مستشفى السجن.

كانت عزيزة طوال استماعها لحكاية عايدة، تحملق فى الأرض دون أن ترد إلا بكلمات قليلة لتؤكد لأم الخير أنها مازالت تسمعها وتتابع حكايتها، خصوصا عندما تتوقف أو تحكى فى بطء، لتشد عزيزة الى حكايتها عن عايدة، التى جعلت الأخيرة تفكر أثناء متابعة تفاصيلها فى كمية الألم والحزن، الذين عانت منهما هذه المرأة الصغيرة، بسبب تنكر أهلها لها، وكان ما يدهشها فى الحكاية أكثر من أى شئ آخر، قسوة الأم العجيبة وجحودها، وتخليها عن ابنتها فى مثل هذه الظروف الصعبة، كما أدهشتها كثيرا تقاليد الصعيد الجامدة، والإصرار على الأخذ بالثأر، ومواجهة الدم بالدم، لأنها تعكس جهلا بأمور الدنيا، وقصورا فى فهم القصاص، فلو كانوا يدركون ويفهمون الحياة مثلما أدركتها وفهمتها، لعرفوا أن ثمة قانون خفى للعدالة، قانون يتجلى فيه القصاص بألف صورة وصورة، ولربمااقتص المجنى عليه من الجانى بنفسه، إذ يعيش بداخله ليؤرق ضميره ويعذب روحه.

ثم أن هناك قصاص الزمن، الذى يقتص من كل شى فى الحياة، عبر التحول الدائم والتغير لكل ما يبدو وكأنه لن يتغير أبدا، كمشاعر الأمومة

التى تحولت لقسوة بالغة من قبل أم عايدة.

بعد أن انتهت أم الخير من حكايتها عن عايدة، بعد أن قصتها بدقة، وبدونما أدنى تحوير فى خطواتها الرئيسية، استعاذت بالله من الشيطان الرجيم، ورفعت يديها بالدعاء، طالبة الخير والصحة والعافية لأولادها العشرة، وأن يوقف لهم أولاد الحلال لتسلك أمورهم فى الدنيا، عندئذ كانت عزيزة، بعد أن فكرت وفكرت، قد قرارها على ضم عايدة أيضا الى عربتها الذهبية الصاعدة إلى السماء، لكنها لم تقل ذلك مباشرة لأم الخير، إذ فضلت أن تتدلل عليها قليلاً قبل ذلك، فطالبتها بصنع مهلبية باللبن المجفف والنشا بيدها الحلوة الماهرة، ثم قامت فناولتها قليلا من السكر وضعته فى طبق كمساهمة منها فى المهلبية، وهمست لها:

– قولى لعايدة بينك وبينها فى السر، أنها طالعة معنا إن شاء الله.

ولم تفكر أم الخير للحظة واحدة فيما قالته عزيزة، لأنها كانت لاتأخذ بكلامها مأخذ الجد لقناعتها بأن عقلها خفيف.

في العربة الذهبية ذلك أفضل جداً

بدا البلاط القديم لعنبر عزيزة الإسكندرانية، نظيفاً لامعاً، رغم لونه الأبيض، الكالح، الذى عفا عليه الزمن، لكثرة الاستخدام، بعد أن أخلصت البنت جمالات فى دعكه بالخيشة، والماء، المضاف إليه قليل من سائل الكلور، المسموح به دون غيره من سوائل التطهير والتنظيف، ليستخدم كالفنيك الذى تفضله عزيزة لرائحته القوية النفاذة، لكنه لسوء الحظ كان ممنوعاً، لأنه يعبأ فى زجاجات داكنة، وليس فى عبوات بلاستيكية، شفافة، لا يخشى من استخدامها فى حوادث عنف قد تنشب بين نزيلات السجن.

نظرت عزيزة برضا إلى البلاط المغسول الرطيب رطوبة محببة فى ذلك الوقت الحار من السنة، وإلى الحاشية الرقيقة المركونة إلى جوار الحائط على الأرض، بعد أن تخلت راضية عن سريرها الفردى الحديد، لواحدة سياسية، من اللواتى تراهن بين مدة وأخرى، دون أن تجد سبباً مقبولاً، لإيداعهن السجن، ووضع الحكومة رأسها برؤوسهن، وقد بدت هذه السياسية لطيفة جداً فى علاقتها بعزيزة، إذ حيتها ذات مرة أثناء عبورها بالدهلين، وهى واقفة مع عظيمة الطويلة، فتشجعت عزيزة، واقتربت منها لتعرف حكايتها، بعد أن ابتسمت السياسية ابتسامة واسعة مرحبة، وقد خمنت أنها ربما كانت شيوعية، أو من الاخوان، لأنهما النوعين الوحيدين

من السياسيات اللواتى التقت عزيزة ببعضهن، طوال فترة وجودها فى السجن.

فكرت بسرعة أن السياسية لا بد أن تكون شيوعية، لأنها غير محجبة، وبدا عليها المرح والبساطة بعض الشيء، فلامت عزيزة نفسها، لأنها لم تعد كما كانت فى السابق تفهم الأمور وهى طائرة، لأن عقلها صاح، وتفكيرها نشيط، فلما تحدثت معها، قالت البنت الكلام، الذى كانت عزيزة قد سمعته من الشيوعيات اللواتى التقتهن فى السجن مرات ومرات، دون أن تفهم منه شيئاً، أو تدرك سبباً لكل وجع الدماغ والقلب، اللذين تجلبهما نساء على شاكلة هذه الفتاة لأنفسهن، إذ أن معظم اللواتى التقتهن عزيزة كن متعلمات محترمات، يشغلن وظائف لا بأس بها، ويعشن فى ظروف ميسورة، أحسن من ناس كثيرين، فقد رأت دائماً الزيارات المفتخرة الداخلة لهن كل يوم والثانى، والسجائر الواصلة بالخرطوشة لمعظمهن.

لذلك تنهدت عزيزة وتصعبت بعد أن استمعت إلى حكاية البنت، التى لم يكن فيها أى جديد بالنسبة لها، إذ طالما سمعت مثلها من كثيرات قبلها، وظل رأيها فيها دائماً، أنها حكايات لا تهش ولا تنش، ولا رجاء فيها، لأن الناس فى دنيا، وهؤلاء السياسيات فى دنيا ثانية بحق وحقيق، لأنهن لا يعرفن شيئاً عن حياة الناس الفقراء، الذين يتحدثن عنهم دائماً. ثم أنها أطلت برأسها إلى زنزانة السياسية فلم تجد بها سريراً، ورأت مرتبتها الاسفنجية موضوعة على الأرض فلما سألتها السياسية عن قصتها، حكت عزيزة جانباً منها باختصار، فابتسمت تلك الفتاة مرة أخرى، وطيبت خاطر عزيزة مقدمة لها، على سبيل الهدية، علبة سجائر مارلبورو كاملة، مما جعل عزيزة تمتن جداً لذلك الكرم الشديد، وتحار فى الكيفية التى ترده بها، وبينما هى راجعة إلى غرفتها قررت أن تعطيها سريرها الحديد، لأن عزيزة لا فرق عندها فى النوم على سرير يرتفع عن الأرض، أو على فراش موضوع على البلاط مباشرة، فالجو وقتها كان صيفياً حاراً، ثم

أنها فكرت كذلك فى أن تصحبها إلى السماء عند ساعة الصفر، التى ستصعد فيها العربة الذهبية ذات الأفراس المجنحة، وقد حققت عزيزة بالفعل فكرتها الأولى، إذ طلبت من البنت جمالات، وعظيمة النداية، أن تحملا السرير وتضعاه فى عنبر السياسية، أما فكرتها الثانية، فقد أجهضتها الحكومة، إذ أفرجت عن البنت بعد انقضاء شهر واحد على حبسها، مما جعل عزيزة، تندم ندماً شديداً فى البداية، لأنها لم تخبرها، بأمر الصعود السماوى قبل أن تحصل على أمر الإفراج عنها، فالبنت السياسية، كانت ولا بد سوف تتحايل على الأمر، حتى لا تغادر السجن وتنضم إلى راكبات العربة الصاعدة إلى العالم السماوى الجميل، الذى لا مثيل له على الأرض أبداً.

لكن عزيزة، بعد قليل من التفكير، حمدت الله على خروج البنت من السجن، لأنها لو انضمت للعربة بالفعل فإنها لن تكف بالتأكيد عن الكلام فى السياسة، وتحريض كل من فيها ضد الأوضاع المزرية، التى عشنها فى السجن، مما يجعل الحكومة تقلل عقلها، فتقبض عليها، حتى لو كانت العربة قد ارتفعت فعلاً، فى عنان السماء لأن لدى الحكومة طائرات كثيرة يمكن أن ترسل إحداها للقبض على هذه البنت، مما يعرقل أو يفشل عملية الصعود.

تأملت عزيزة الحجرة الواسعة جيداً، وبعد أن تأكدت من ترتيب الاشياء القليلة الموجودة بها، وهى ثيابها القديمة، ومشطها ودبابيس للشعر، وبعض الأطباق والأكواب البلاستيكية، وأيقنت أن كل شىء فيها صار نظيفاً مرتباً، على ما يرام، نظرت برضا إلى جمالات، التى جعلت ذلك كله على ما يرام وقالت لها:

- إنشاء الله تسلمى يا جمالات .. والله، روحى رُدت.

ابتسمت جمالات ابتسامتها الطيبة، التى تجعل وجهها المستدير، ملائماً للطبع على مغلف من مغلفات حلوى الأطفال، وردت على عزيزة

قائلة:

– يعنى أنت راض ومبسوط ياقمر؟

جالت عزيزة ببصرها فى أرجاء الغرفة مرة أخرى، بنوع من الترفع المفتعل، الذى تظهره عادة فى حضور من هم أدنى منها، منذ زمانها القديم، ثم صمتت قليلاً، وقالت:

– طيب.. اغسلى الصفيحة وحياتك، وحطيها فى مكانها، وتعالى كلى لقمة تسند بطنك.

خرجت جمالات لتغسل صفيحة الفضلات، التى كانت قد تركتها بالحمام الجماعى الموجود فى نهاية الدهليز المطلة عليه العنابر، فأخذت عزيزة تعد لها رغيفاً وقطعة من الجبن الأبيض، الذى كانت عظيمة الندابة، قد أعطتها بعضاً منه، إضافة إلى سيجارة كليوباترا من النوع المحلى، غير المخصص للتصدير، لغنى توليفته بنشارة الخشب، ربما بسبب الحرص على صحة المدخنين، بالإضافة إلى ثمرة جوافة من أصل أربعة، أعطتهم لها صفية هيروين، التى وزعت قفص جوافة على صديقاتها، ومحباتها، كان ولداها قد جاءاها به فى الزيارة، فلم تحتفظ به، خشية أن تفسد الجوافة، إن هى ظلت لديها عدة أيام. خلال ذلك، راحت عزيزة تفكر فى أحوال البنت جمالات.

عادت جمالات ووضعت الصفيحة، النظيفة، فى ركن الغرفة البعيد عن الفرش والملابس، ثم جاءت لتجلس القرفصاء، على الأرض الممسوحة، قبالة عزيزة، وأخذت تغمس الخبز بالجبن، بعد أن وضعته على سطح الرغيف، ثم قالت وهى تمضغ:

– عاوزة رأيك فى موضوع يا خالة عزيزة.

– خير !؟.

ردت عزيزة بتساؤل، وقد جحظت عيناها، اللتان ركزتا بصرهما على وجه جمالات، الملائكى السمات، قليلاً، لأنها ظنت أن جمالات سوف

تفاتحها فى موضوع العربة الذهبية المجنحة، ورغبتها فى الإنضمام إليها عند صعودها إلى السماء.

دفعت جمالات ما تبقى من الخبز، فى فمها مرة واحدة، بعد أن نفذ الجبن، وأردفت بينما هى تدفع بلسانها حصوة صغيرة، عثرت عليها فى لقمتها الأخيرة، لتلفظها من فمها:

- تعرفى.. لما أخرج من هنا إن شاء الله، بعد نهاية مدة الحبس، فكرت أغير شغلى لأن السرقة أصبحت مشاكلها صعبة، وكلها جرى ورمح ونط هنا وهناك، وفى آخر اليوم، لا حاجة تجيب همها، أنا فكرت أشتغل شغل البنات الأصلى، وكفانى وجع نافوخ.

اتسعت عينا جمالات الواسعتان أكثر، وهما تنظران إلى عزيزة ببراءة، بينما كانت تفضى إليها بهذا التصريح الخطير، الذى لم تقله لأحد غيرها من قبل، أبداً، لأنها تثق بها وتشعر معها بالراحة والأمان، رغم كل ما يشاع عن جنونها فى السجن، لذلك فضلت خدمتها على خدمة، زعيمات المخدرات، اللواتى يغدقن بلا حساب على كل من تتعاملن معهن وتقمن بخدمتهن، واللاتى يشترين كل شىء، فى السجن، بفلوسهن الكثيرة، بما فى ذلك السجانات أنفسهن، لكن جمالات رغم شعورها بجنون عزيزة، بعض الشىء، لأنها تنظر إليها نظرات مخيفة أحياناً، وتبتسم دونما مناسبة فى أحيان أخرى، أثناء أحاديثهما، إلا أنها تعتبرها إنسانة طيبة حنونة، وما بيدها لغيرها دائماً، فما قصدتها جمالات يوماً فى طلب شىء إلا وقدمته لها إذا كان بمستطاعها، لذلك لم تأخذ جمالات أبداً، بكل التحذيرات، التى طالما سمعتها من بعضهن، بخصوص عزيزة، وقولهن أنها قد تضربها أو تعتدى عليها، إذا ما غضبت أو ثارت، ثم إن جمالات لم تجد من هى أفضل من عزيزة فى السجن لتخدمها وتؤاخيها، كما يجب أن تكون المؤاخاة بين السجينة والسجينة، إذ تصيران كالأختين المخلوقتين من رحم واحد، تتراحمان وتتعاطفان، وتربط بينهما محنة العزل، وعقوبة

الحبس داخل الجدران، وها هى تبوح لها بسرها، وتستشيرها فيما هى ناوية على فعله، إن قدرّ لها أن تعيش وتخرج بعيداً عن هذا المكان، لأن عزيزة كبيرة، وفاهمة الدنيا أكثر منها، ولها نظرة فى الناس، حكيمة، طالما أثبتت الأيام صحتها.

أطرقت عزيزة برأسها في الأرض، مفكرة، ولما طال إطراقها وسكوتها على جمالات، واصلت الفتاة كلامها لتوضح وجهة نظرها فقالت:

– الدعارة سهلة ومأمونة، وأحكامها خفيفة، لو حصل أن البوليس عمل كبسة، ولو ركزت فيها سنة وراء الثانية، عملت لى قرشين منها، وبعدها، أبعد عن الهم كله، وأفتح لى دكاناً و أتاجر فى أى شىء، يطلع لى لقمة عيش والسلام.

لم ترد عزيزة كذلك، لأنها كانت مشغولة بمتابعة نملة فارسية كبيرة، راحت تجرجر فتيتة خبز صغيرة سقطت من جمالات على الأرض، بينما كانت تأكل، منذ قليل، تعقبتها عزيزة ببصرها حتى أوشكت على الدخول فى مكمنها بخرم أسفل إفريز باب الزنزانة القديم، الذى تقشر طلاؤه حتى بان لون خشبه داكنا مسوداً، لكثرة الإستعمال، عندئذ قالت لها:

– تعالى لفوق أريح لك.

ردت النملة بأن اختفت فى الخرم تماماً، أما جمالات، التى لم تفهم ما تقصده عزيزة بكلامها، فقد تشاغلت بإبعاد خصلات شعرها البنية، الناعمة، التى تساقطت على وجنتيها وقالت:

– تعرفى.. إحتمال أن يجيبوا لنا لحماً بكرة، نفسى ألاقى فيه هبرة سمينة، أسلقها، وأعمل بمرقتها فتة بالخل والثوم، ونقعد، نتغدى أنا وأنت هنا.

رفعت عزيزة رأسها عن الأرض، وطلبت من جمالات أن تقوم، فتعمل لهما كوبين من الشاى، فلما وقفت، ظلت عزيزة تتابع جسدها الممتلىء قليلاً، وساقيها البضتين البيضاوين، بينما أخذت تفكر فيما قالته لها، فهذا

الكلام جديد عليها، لم تقله من قبل أبداً، رغم الشهور الطويلة، التى مرت على علاقتهما وتآخيهما فى هذا السجن، ورغم معرفتها الدقيقة بالبنت وقصتها، التى أدت إلى حبسها فى السجن.

كانت عزيزة تعرف أن جمالات تنتمى لأسرة من الغجر السراقين، المحترفين للنشل والسرقة، أباً عن جد، وأن رجال العائلة، يمارسون نشاطهم فى السعودية والخليج، خلال موسم الحج بشكل خاص، حيث يكون الإزدحام البشرى، وتنوعه حقلاً ممتازاً لعملهم، أما جمالات وأختها اليتيمتا الأم فقد عاشتا حيث احترفت جمالات نشاطها اللصوصى فى مدينة طنطا على وجه التحديد، خصوصاً أيام مولد السيد البدوى، حيث يكون زحام الناس على أشده، وانصرافهم إلى مباهج المولد فى ذروته، مما يتيح الفرصة للسرقة بسهولة ويسر.

لكن جمالات ، جرى توقيفها لسبب أخر غير السرقة، والمسألة أن أختها التى تصغرها بحوالى ثلاث سنوات، والتى تفوقها جمالاً، كذلك، تعانى من تخلف عقلى ونقص فى الذكاء، بسبب تعطل بعض وظائف المخ أثناء ولادتها المتعسرة، التى توفيت أمها على إثرها، وقد تعرضت هذه الأخت، التى تمتلك شعراً أكثر نعومة من شعر أختها، وعينين عسليتين جذابتين، لملاحقة شاب لها، حاول توريطها فى علاقة معه، بعد أن لاحظ أنهما تسكنان بمفردهما فى شقة مفروشة، وهو الشىء غير المستحب إجتماعياً بسبب ما كرسته السينما المصرية عن سكان هذه الشقق، من أفكار تسمهم بعدم الإستقامة الأخلاقية عادة، وبسبب ارتباطها بعالم النفط، الذى انتعشت بسببه عمليات تأجيرها، وما ترتب على ذلك من أفعال لا يرضى بها شرع ولا دين، والمشكلة أن الأخت العبيطة، موفورة الجسد، كانت تهتم باللبان والحلاوة الفولية، أكثر من اهتمامها بذلك الشاب، الذى لم تكن تشعر بوجوده وملاحقته لها، مثلما لم يكتشف هو تخلفها أبداً، لكن جمالات خافت أن يتهور هذا الشخص يوماً، ويفعل مع

أختها ما لا تحمد عقباه فتصير المشكلة التى تواجهها جمالات مشكلتين، إن ترتب على ذلك، مع الأخت، مخلوق ثالث صغير، تضطر لإعالته كما تعول الأخت- الصليب، الذى تحمله على ظهرها دوماً، وينغص حياتها ليلاً ونهاراً، فهى تصحبها دائماً عند الخروج، وإن تركتها، كان عليها إحكام إغلاق النوافذ جيداً، ولف مفتاح باب الشقة من الخارج عدة لفات، خشية أن تفتحه العبيطة، أو يتمكن أحد من فتحه من الخارج، ورغم كل ذلك تظل جمالات، وهى بعيدة عنها، واقعة تحت هاجس تعرضها للخطر فى غيابها، كأن تعبث بأداة حادة، أو تشعل النار فى البيت دون إرادة منها.

حاولت جمالات- فى الحقيقة- أن تجعل أختها تساهم فى إعالة نفسها، فجربت أن تعلمها مبادىء السرقة، وأساليب نشل خفيفة، لكن هذه الأخت كادت أن تحدث مشكلة لجمالات، إذ طلبت من رجل عجوز يسير فى الطريق، صراحة أن يعطيها ما بجيبه من نقود، بعد أن سددت إلى صدره كوز ذرة كان بيدها تأكل منه، ولولا أن العجوز، اعتبرها مداعبة لطيفة من شابة صغيرة لا تخلو من شقاوة، لكانت المسألة قد كبرت إلى حد لا يعرف مداه إلا الله.

كانت جمالات، قد نصحت الشاب الذى يعمل كصبى حلاق نسائى، فى محل أسفل العمارة، التى تسكن بها مع أختها، بألا يتعرض لهذه الأخت، وإلا فإنها سوف تضربه علقة تجعله فرجة، لكل من يتفرج ولا يشترى، وطالبته بالإبتعاد عنها، وتركهما لشأنهما، لكنها فوجئت ذات يوم بالشاب يدق باب البيت، فلما فتحت له لتنهره وتقول له أنه يجب ألا تصل به الأمور السخيفة، التى يقوم بها معهما إلى حد الملاحقة حتى باب الشقة، دفعها بشدة، بدلاً من التراجع والإعتذار، محاولاً الولوج إلى الداخل، فما كان منها إلا أن جرت، فحملت المكواة الساخنة، التى كانت تكوى بها حينئذ بلوزة حريرية، حمراء، سرقتها من محل شهير بالمدينة، وقذفته بها بعد أن خلعت سلكها الموصل للكهرباء، فأصيب الشاب على الفور بارتجاج فى

المخ، حسب تشخيص أطباء المستشفى العمومى، لأن المكواة سقطت على رأسهمباشرة.

فكرت عزيزة، فى أن لولا الكوافيرة، يمكن أن تكون هى التى حاولت إغواء جمالات، لأن لولا قوادة محترفة، ترددت على السجن عدة مرات بسبب إدارتها لشبكات دعارة متعددة، وكان من بين ضحاياها طالبات جامعيات، وموظفات، ونساء لهن وضعهن الإجتماعى، لكن عزيزة تراجعت عن فكرتها هذه، لأن جمالات تكره لولا كراهية لا حد لها، وهى دائمة السخرية منها بسبب اكتشافها لشذوذها، فقد كانت لولا تلتصق بجمالات، دونما مبرر معقول، كلما رأتها واقفة فى فناء السجن، وتحرص على ملامستها بطريقة غير طبيعية، وظلت جمالات في بداية الأمر، تفسر ذلك على أنه نوع من الحب والحنان، وتسعد به كثيراً، لأنه ما من أحد يحنو عليها، أو يحوطها برعايته، لكنها فى أحد الأيام، كانت تستحم فى حمام السجن، والماء يتساقط من الصنبور ضعيفاً، لأن محبس الماسورة العامة، الموصلة للمياه كان مكسوراً منذ حوالي شهر، والماء يتسرب منه، فلا يصل بالقدر الكافى إلى صنبور الحمام، فطلبت من لولا أن تحضر لها وعاء ممتلئاً بالماء ولما أدخلتها لتضع الماء، اقترحت عليها أن تدلك لها ظهرها بالليف والصابون، وقد اكتشفت جمالات أثناء ذلك أن لولا ترغب فى أداء دور أبعد من عملية تنظيف المواضع، التى لا تصل إليها يد جمالات، وكانت أنفاسها تتلاحق وهى تتغزل فى تفاصيل جسدها، الذى كان جميلاً بالفعل، رغم ميله للامتلاء قليلاً، ورغم أن جمالات سارعت بطردها، لأنها لم تكن بحاجة إلى المزيد من الدلائل، للتأكيد على فجورها ووقاحتها، إلا أنها لم تكتف بذلك، بل شهرت بها أمام كل من هب ودب فى السجن، وخصوصاً أولئك اللواتى يحببن الثرثرة فى الأمور التى من هذا النوع، كحيزبونات عنبر العجزة، وأم رجب باعتبارها عين الإدارة على السجينات. صحيح أن التشهير أفاد لولا فى جانب منه، لأن سنية مطار، وهى أشهر

تاجرة مخدرات فى السجن، محكومة بالمؤبد بسبب جلبها المخدرات من خارج البلاد بالطائرة، تلقفت الخبز بسعادة بالغة وضمت لولا إلى قائمة عشيقاتها. إلا أن السخرية المرة، التى كانت جمالات، لا تفتأ، تمنح جرعات منها للولا، كلما التقتها، ساهمت فى تسميم عيشتها، وجعلتها فى حالة ضيق دون أن تقوى على الرد، لا بسبب أدبها وعفة لسانها، الذى لم يعرف العفة فى يوم من الأيام، مثله مثل بقية جسدها، ولكن لأنها كانت، ورغم الإهانات، ورغم الجفاء، واقعة فعلاً فى غرام الفتاة الصغيرة، التى باتت تؤرق لياليها.

لم تعرف عزيزة أبداً، من التى تقف وراء فكرة تغيير جمالات لنشاطها، وكيف تسنى لها إقناعها بذلك، لأن عزيزة لم تتعرف بعد على هدى، أحدث نزيلات عنبر الجرب، التى وصلت السجن منذ أسبوع واحد فقط، ورغم كونها أصغر امرأة– زوجة فى السجن كله، إذ أن عمرها تجاوز السادسة عشر عاماً، وهى أم لطفلين، إلا أنها استطاعت إقناع جمالات بتغيير نشاطها، إلى ما هو أنجح وأكثر عملية، من وجهة نظرها، بحكم تجربتها القصيرة، العميقة، فى الحياة.

جاءت هدى إلى سكة الرذيلة عبر دروب ملتوية، لم تكن تتصورها أبداً كانت البداية قبل سنوات، عندما دخلت، لأول مرة، مع أمها قسم الشرطة، لا كمتهمة مدانة من قبل الحكومة، ولكن للإبلاغ عن قتل دجاجة، كانت الأم تملكها بالإضافة إلى أربعة عشر دجاجة أخرى، أشرفت على تربيتها منذ لحظة خروجها من البيض وحتى صارت دجاجات بياضة، وقد وجهت أم هدى اتهامها ضد جارة تعيش فى عشة مجاورة لعشتهما، فى أحد أطراف المدينة، التى تكاثرت فى غضون سنوات معدودة وتمدد جسدها، لتصبح كما لو كانت عدة مدن ريفية كبيرة؛ قبل ذلك كانت الأم قد ذهبت إلى المستشفى الحكومى، ليس بسبب عينها، التى فقدتها فى المشاجرة مع الجارة الجبارة، التى أصابتها بضربة مباشرة فى العين، مستخدمة فى

ذلك طوبة كبيرة، كانت كافية لأن تفقأها، بل لإقناع الطبيب المناوب، الذى لم يقتنع بالطبع بتحرير شهادة وفاة للدجاجة القتيلة، تثبت أنها قتلت خنقاً، حتى تتمكن من تقديمها للبوليس، ليتخذ الإجراءات اللازمة ضد الجارة.

لما فشل الطبيب فى إفهام أم هدى أنه لا يحرر شهادات طبية للدجاج، لكنه يمكنه تحرير شهادة يثبت فيها حالة الضرر الجسيم، الذى ألم بعينها المفقوءة؛ تركته على أساس أنه من الحكومة التى لا تفهم أبداً جوهر المشكلة، وحقيقة الأمور، وتوجهت إلى قسم الشرطة، الذى التقت على بابه بشاويش مخضرم لم يهتم بعين الأم الضائعة، ولا بالدجاجة المغدورة، التى كانت ترقد بلا حراك ملفوفة بطرف الطرحة السوداء الطويلة للمرأة قدر اهتمامه بالجسد الأبيض البض للبنت الصغيرة، التى كانت تقف، آنذاك، ملتصقة فى خوف بأمها، ترقب ما يدور أمامها بحذر، فقدم لهما مشروباً ساقعاً على حسابه، وهذا ما لا يحدث فى أقسام الشرطة، عادة، وطمأن الأم أنه لا بد منتقم من عدوتها المجرمة، وسألها عن البنت وأحوالها، ولم تمر ربع ساعة أخرى، إلا وكان قد عرض على الأم الزواج من تلك الصغيرة الواقفة إلى جوارها.

نسيت الأم العين المفقودة، والدجاجة المغدورة، والجارة القاسية، بفعل المفاجأة الخطيرة، فهى لم تحلم فى يوم من الأيام، أن تجمعها صلة، بأى شكل من الأشكال، بشخص له علاقة بالحكومة، بل ويحتل بها موقعاً مرموقاً إلى هذا الحد، لذلك لم تضع وقتاً طويلاً فى التفكير، ووافقت على تزويجه أبنتها فوراً، بينما كانت تتأمل بإعجاب الأشرطة الملونة المثبتة على ذراعه مما يدل على أنه شاويش فعلاً وليس جندياً عادياً بلا أشرطة، فى الشرطة، واعتبرت أن الأقدار قد قذفت به فى طريقها، لتنتشلها من حياتها، التى هى فى أسفل السافلين، وتخرجها إلى وجه الدنيا، وقد كان الرجل سخياً، جاداً فى عرضه، إذ وعدها بثلاثين جنيهاً كمقدم صداق،

ومثلهم لتجهيز هدوم ولوازم العروس الصغيرة، كما أعلن عن نيته فى تقديم سوارٍ ذهبى لها من محلات الجمل، المتخصصة ببيع الحلى النحاسية المطلية بالذهب، والمضمونة ضماناً قانونياً بدمغة مصلحة سك العملة، وهو النوع الذى يروق لفقراء الفلاحين كثيراً، ولا يقوون عادة على شراء غيره.

خلال شهرين، استطاع الشاويش أن يصبح زوجاً للفتاة التى لم تبلغ، من عمرها، إلا ثلاثة عشر عاماً. فقد تمكن من تجاوز عقبة السن القانونية للزواج، الذى قررته الدولة، بعد أن اشترى بجنيهين شهادة تسنين، من طبيب خاص تخصص فى أنشطة طبية غير مشروعة، كالإجهاض، وترقيع البكارة المفتقدة لدى بنات مقبلات على الزواج، وتحرير شهادات لتسنين صبايا دون السن القانونية للزواج، مما سمح للمأذون الشرعى بتحرير العقود من جانب الحكومة أن يحرر عقد الزواج للشاويش، رغم تيقنه من صغر عمر الفتاة، لأنه كان يمتلك ورقة قانونية، ضمها إلى أوراق التعاقد على الزيجة، لا تجعله فى موضع المساءلة والشبهات القضائية.

بعد مرور عام واحد فقط، كانت هدى قد أنجبت من شاويشها المعتبر، ولداً جميلاً، جاء مطابقاً لصورتها تقريباً، وعندما مر عام آخر، كانت إلى جانبه أخت رضيعة، دائمة البكاء والقلق، بسبب اعتيادها على المخدر، مثل أمها، التى أصبحت مدمنة بالفعل، لأن رجلها منذ بداية زواجهما، لم يعد إليها ليلة بجيب خاو من قطع الأفيون، والحشيش، المصادر عادة فى حملات تشن على أوكار بيع المخدرات، أو الذى ينفحه به موزعو المخدرات فى الحى، ليأمنوا شره، ويشترون سكوته عنهم، وعندما قل مجيء الزوج للبيت، وهجر أسرته الصغيرة، بسبب امرأة أخرى، ظهرت له أثناء عمله المثير، الذى تدفع الأيام بعشرات من النوعيات المتباينة من البشر إليه بهم، كان على هدى مواجهة حياتها بنفسها، والبحث عن مصدر رزق لها ولأولادها، وقبل ذلك البحث عن مصدر بديل لمواجهة متطلبات جهازها العصبى، الذى اعتاد المخدر يومياً، وبالطبع قادتها الأيام إلى ألف باء

الأشياء، فاحترفت أقدم وأسهل مهنة احترفتها المرأة فى التاريخ.

لم تكن جمالات نزيلة عنبر الجرب مثل هدى، لكنها أصبحت تقضى جل وقتها هناك بسبب صداقتها لها، رغم أن معظم النزيلات في السجن، كن يتجنبن التعامل مع تلكم اللواتى يعشن فى ذلك العنبر، خوفاً من العدوى، التى يمكن أن تصيبهن من أولئك اللواتى انضممن إلى نادى الجرب بسبب ضيق ذات اليد، وفقرهن، الذى يصل إلى عدم قدرتهن على شراء قطع رخيصة من الصابون، تفى بمتطلبات الإستحمام والنظافة وغسل الثياب، إلى جانب تلك القطع القليلة المصروفة لهن من إدارة السجن، لأن الحصة الحقيقية التى يجب أن يحصلن عليها، تضيع فى جيوب المتعهدين وصغار موظفى السجن، مما جعل الأجساد الفتية لمعظم نزيلات العنبر، مرتعاً ملائماً تقطن فيه على نحو مزمن حشرات الجرب الميكروسكوبية الدقيقة، وقد كان الميل الصاخب للحياة عند هدى وخفة دمها، وقدرتها الدائمة على إطلاق النكات، هو ما يجذب جمالات إليها بالإضافة إلى حفلات الرقص والغناء، التى تشاركان فيها مع بقية بنات العنبر، وقد كانت هدى تحاول جاهدة تقليد صوت فريد الأطرش، الذى تحبه كثيراً، دون جدوى، لكنها كانت على أية حال نجمة حفلات عنبر الجرب بلا منازع، وزعيمته المتسيدة، رغم صغر سنها، فكان يتوجب على جميع من فيه الإمتثال لأوامرها، خصوصاً فيما يتعلق بتحديد مواقع النوم فيه، وتوزيع مهمات النظافة، التى كانت تتم فى أضيق الحدود بسبب انعدام المواد المنظفة تقريباً، ثم جمع الورق والخرق القديمة أثناء النهار من فناء السجن لإشعالها ليلاً، فى محاولات فاشلة تتم عادة لطرد البعوض الوحشى، الذى كان يشارك حشرات الجرب فى التهام دماء السجينات، ولم يكن الدخان المتصاعد، من حرق هذه النفايات، كافياً لإبعاد الناموس، بقدر ما كان مسبباً لأمراض صدرية.

أشعلت عزيزة لنفسها سيجارة، وفكرت بحزن: كم رجلاً سيمتص رحيق

هذا الجسد الرخص الجالس أمامها، إذا ما تحولت جمالات إلى واحدة من أولئك اللواتى يبعن أجسادهن، لكل من يدفع من الرجال؟. فكرت عزيزة فى الرجال العجائز، والرجال الطوال، والرجال القصار، وأولئك ذوى الكروش الضخمة، وأصحاب الأسنان الداكنة، المتسخة بسبب تعاطى المخدرات، الذين سوف يعتصرون جسد جمالات حتى أخر قطرة نضارة فيه، ويدمرون روحها شيئاً فشيئاً، لتصبح فى النهاية مسخاً بشرياً بلى من كثرة الإستخدام، وتساءلت، لماذا قدر لصبية صغيرة جميلة مثلها، أن تتحمل كل هذه البشاعة، وأن تمضى حياتها، التى لم تبدأ بعد، على هذا النحو، الذى لا يمكن أن ينتهى إلا إلى طريق مسدود، ثم فكرت فى أنه لماذا لا يكون لجمالات رجل طيب جميل مثلها، تمنحه قلبها وجسدها، ويمنحها كل ما يمكن أن يمنحه رجل لامرأة، وامتد تفكيرها إلى حد تصورت معه أن جمالات لو سارت فى الطريق الذى باتت تفكر أن تسير فيه، وتحولت فى النهاية إلى داعرة محترفة، تبيع الهوى لكل قادر على شرائه، فإنها ستتحول ولا بد، فى يوم من الأيام، إلى لولا أخرى، قوادة محنكة لا تكتفى بالمتاجرة بجسدها بل وتسعى لبيع أجساد الأخريات أيضاً.

عند هذا الحد من التفكير، تحول حزن عزيزة، إلى غضب جامح شديد، فرفعت رأسها، وثبتت عينيها على قضبان الشباك الحديدية، وصدر صوتها بالاحتجاج الموجه إلى قوة علوية غامضة، اعتبرتها مسؤولة عن كل ما جرى، وما سوف يجرى فى المستقبل لهذه الفتاة الجميلة الطيبة، ذات النفس الصافية البريئة براءة نفوس الأطفال، وبينما هى تحدق فى القطعة السماوية المكسية بغيوم رمادية داكنة. قالت فى حزن وضيق:

– سامع؟! شايف؟!، الحكاية زادت عن حدها خالص، ولا يمكن السكوت عليها، بأى حال من الأحوال.

ثم استطردت قائلة بعد أن رفعت صوتها بتحد:

– طيب، وتربة أمى الغالية، البنت طالعة معانا إن شاء الله، ورجلها على

رجلى، المسألة محتاجة، فى الأول، أن تستحم حماماً ساخناً بصابونة فينيك، لضمان عدم العدوى، وتصبح جاهزة إن شاء الله، وفى منتهى الجمال، وفل الفل.

عندئذ، تنبهت جمالات، التى كانت مشغولة بهرش ما بين أصابع يديها إلى أن عزيزة تتكلم، فاستدارت، حيث كانت تقف فى ركن الحجرة، لتصب الشاى فى الكوبين الموضوعين على الصينية، وكانت قد تأخرت فى صبه، حتى يصير لونه أحمر رائقاً كلون الياقوت، ثم قالت فى دهشة وهى تدلل عزيزة، وتناديها باسم التحبب، الذى أطلقته عليها، واعتادت أن تناديها به فى لحظات صفائها بحروفه الثلاث:

- الله.. أنت كلمتنى يا قمر؟.

الرحمة فوق العدل

رفعت محروسة السجانة وجهها المغموس فى طبق عسل النحل، فراحت صفية هيروين تدلكه بيديها، وتحول دون تساقط القطر منه، وهى تثنى بحماس على ما سوف يكون عليه وجه محروسة من نعومة وإشراق، عندما تغسله بالماء الحاف، دون صابون، بعد ذلك، إذ كانت قد نتفته وحفته بفتلة خيط، مزيلة عنه كل الزغب الخفيف النابت حول الذقن والوجنتين وأسفل الأنف، والحائل دون ضياء الوجه وتلألؤه.

انبسطت أسارير محروسة، لما تخيلت ما سوف يكون عليه وجهها بعد ذلك، مما جعلها تغنى بصوتها الأجش الخشن مقطعاً من أغنية بهيجة للأفراح، شاعت أيام شبابها منذ ثلاثين عاماً، ثم قالت وهى تتنهد فى حسرة:

– عارفة يا بنت يا صفية؟! أنا لما كنت فى عزى، كانت بشرتى جميلة صافية يلقط العصفور الحب من عليها، وهو مغمض عينيه.

– يا سلام!

ردت صفية، ثم أضافت قائلة: الهم والحزن، يدهموا أى واحدة فى الدنيا، حتى لو كانت بدر البدور، وأنت يا محروسة الأيام شالت وحطت بك ياما، ربنا يكون فى عونك .

تصعبت محروسة، وزاد احتقان وجهها المحتقن بسبب نتف الشعر،

أكثر من قبل، ثم زفرت بحرارة وعاودت الغناء، بأغنية دارجة حزينة لا تخلو من الفجاجة فقالت:

– كتاب حياتى يا عين.. لا لا لا.

قطعت اللحن الموسيقى، الذى عزفته بلسانها، وتحمست للكلام وهى تقول:

– أنت عارفة..!؟ ،لو واحدة غيرى، جرى لها ما جرى لى، وشافت ما شفته فى الدنيا، كان المحتمل أن تقتل روحها، أو تعمل فى نفسها أى مصيبة، تجعلها تموت كافرة، ووالله، الحق يبقى بيدها، لكن، أنا... ألف حمدٍ وشكر لك يا رب، قلبى أبيض من الطرحة البيضاء المحطوطة على رأسكِ يا صفية، وعمرى ما تمنيت إلا كل خير للناس، ويا الله... ربنا يجازى كل إنسان على قد أفعاله:

– صدقتِ.. ربنا يعطيك على قد نيتك.

أمنت صفية على كلامها، وذكرتها بحادثة البنت سميحة القتالة، التى اكتشفت محروسة بالصدفة أنها تخبىء ضمن أشياءها كسرة من زجاجة فينيك فارغة، سرقتها من مستشفى السجن لتستخدمها كسلاح هجومى أثناء معاركها الدائمة مع السجينات الأخريات، مثنية على طيبة قلبها، لأن هذه الحادثة لو جرت مع سجانة أخرى، لجعلت البنت سميحة تروح فى ستين داهية، ولعاقبتها إدارة السجن أشد العقاب، فمن الممكن أن تحصل مصيبة إذا ما استخدمت سميحة تلك الأداة الجارحة، وتتحمل الإدارة مسؤولية كبيرة، وقتئذ، لكن محروسة اكتفت بأن لطمتها بكفين على وجهها، الذى تقطع رؤيته الخميرة من البيت، لقبحه ودمامته، وحلفت بتربة أمها الغالية، أن تؤدب سميحة بطريقتها الخاصة الجهنمية، إن هى عاودت ارتكاب أية أفعال مخالفة لقواعد السلوك، وتعليمات الإدارة، أما هذه الطريقة الخاصة، فلم تكن إلا بقرص سميحة بنوايتى بلح جافتين من اللباليب، أى من تلك المنطقة الطرية الناعمة، المنتهى بها كل فخذ من

الفخدين، وذلك بعد تكتيفها، وكانت هذه الطريقة، التى تسبب آلاماً رهيبة لا تطاق، وتتخلف عنها زرقة داكنة فى الجلد الرقيق الحساس لمنطقة من مناطقة الأنسية، هى الأسلوب الرادع ذاته الذى طالما أدبت محروسة بناتها به، عند ارتكاب إحداهن كبيرة من الكبائر، لا يكفى معها الشتم والضرب العادى، واللطم كوسيلة للعقاب والجزاء.

لم يكن قلب محروسة أبيض، كطرحة السجن البيضاء، التي على رأس صفية، لكنه كان أسود، كليلة شتوية باردة ملبدة بالغيوم دون نجمة مضيئة واحدة، تخفف من ظلامها المدلهم، فلم يأت فجر مشرق واحد إلى قلب محروسة، ليمحو كل ذلك الحقد الأسود الذى رسبته الأيام بداخله، ضد الناس والحياة والزمن، وزوجها قبل كل شىء، لأنه قتلها وهى فى عز الحياة على ظهر الدنيا، وتركها وحيدة تواجه الأيام بكومة من اللحم الطرى معلقة فى رقبتها، بعد أن استباح وسرق منها كل شىء، ابتداء من ذهبها ومصاغها، الذى لم يكن إلا خاتماً ذهبياً عيار ١٨، بفص من العقيق الصناعى التافه، وعفش بيتها، الذى اقتنته قطعة قطعة بعرقها ودمها، حيث كانت تعمل خادمة فى البيوت منذ طلوع الشمس، حتى ما بعد مغيبها، لتوفير الحياة له ولأولادهما، وانتهاء بقلبها، الذى حطمه ولم يكن رحيما به فى أى يوم من الأيام، حتى أنه صارحها، ذات مرة، أنه يكرهها لأنها قبيحة ودميمة، بل هى أقبح امرأة خلقها الله على وجه الأرض، وقعت عيناه عليها.

لم تكن محروسة المعذبة جاهلة بتلك الحقيقة، التى واجهها بها زوجها الهارب، فهى تعرف كونها دميمة فعلاً، بذلك الوجه العريض، والأنف الأفطس، والعينين الضفدعيتين الجاحظتين، جحوظاً كئيباً، يزيد فى كآبته بشرتها ذات اللون الداكن الكابى المائل للزرقة، والفم الواسع المعتلى لذقنها المكورة الضخمة، لكن أن تعى هى هذه الحقيقة شىء، وأن يقولها لها أقرب إنسان مفترض إلى قلبها، وروحها وهو زوجها وأبو عيالها شىء

آخر، فقد شعرت وقتها بألم نادر، يخترق الروح، ويكسر النفس، ولا سبيل لدفعه أو التخلص منه، لأنه قضاء وقدر، وقسمة قسمتها الطبيعة لها، علماً بأنها ما توانت لحظة عن تحسين شروط خلقتها، التى تعرف أنها لن تكون جميلة أبداً، لتبدو مقبولة الشكل على الأقل، بوجه عادى لا يختلف كثيراً عن وجوه سائر البشر والناس، فهى لم تكف عن تلوين شعرها باهت اللون بالحناء، بل هى تتفنن فى ذلك، فمرة، تعجن مسحوق الحناء بماء مغلى مع قشور الباذنجان الأسود الرومى، وقشور البصل البلدى الحمراء الذهبية، ومرة أخرى تستخدم معه البابونج، والشاى الأسود، المقطوع قلبه من الغليان، كما أنها كانت حريصة على أن تكون ناعمة، ملساء الجسد، وعلى استخدام ما ملكت يداها من مساحيق تجميل تشتريها أحياناً، وتجود عليها ببعض منها أحياناً أخرى السيدات اللواتى تعمل لديهن فى تنظيف بيوتهن، وكانت المشكلة التجميلية، التى طالما أرقتها، هى طلاء الأظافر، المعادى تماماً لطبيعة عملها، التى تضطرها لوضع يديها فى الماء، وبلها معظم الوقت، مما يؤدى لتلف هذا الطلاء، وتقشر أجزاء منه.

ما كان يزيد فى ألم محروسة من زوجها، هو أنه لم يقدر أبداً مجهوداتها الخارقة لتكون على نحو أجمل، مثلما لم يشكرها مرة من المرات على مساهمتها فى جلب الفلوس، رغم أنه لم يكف عن مضاجعتها فى كل ليلة من الليالى، مهما كانت حالتها الجسدية المتعبة، تلك المضاجعة التى تمخضت عنها نصف دستة من العيال، هم أربعة أناث وذكرين، ولم تذق منه ريقاً حلواً فى أية لحظة، علماً أنه كان مصاباً بداء الرئة، ومع ذلك فهى لم تأنف من مخالطته أبداً ولم تتوان عن خدمته لحظة واحدة، لأنها كانت تؤمن بأن المرض والصحة لا يأتيان، إلا من عند الله، ووفقاً لمشيئته، لأنه المبتلى، وهو الرزاق الذى يوزع الرزق لمن يشاء، ويقدر، ثم أنها لم تكف عن طاعة ذلك الزوج الجحود، لا لشىء إلا لأن طاعته واجبة، ومن طاعة الله، مثلما لم تتوقف عن رعايته، وتوفير نصف كيلو من الحليب

خصيصاً له يومياً، ومده بأفضل ما تطاله يدها من طعام يقدم لها فى البيوت، التى تدور للعمل فيها، حارمة نفسها، فى أحيان كثيرة، من أطايب الأكلات، التى لا يمكن أن تصنعها أبداً لارتفاع تكلفتها، وحتى بعد أن توقف عن الشغل كصبى منجد لأن الغبار المتصاعد من قطن الحاشيات والمراتب القديمة، بات يؤذى صدره، ويزيد حالته سوءاً، ولما أصبح ضعيفاً مهدوداً من شدة المرض، قابعاً فى البيت، كركام من اللحم الحي، لا شغلة له ولا مشغلة، فإن محروسة لم تتوقف عن الإنفاق عليه، ومده بالمصروف، ليجلس على المقهى، كأى رجل آخر لم يقعده المرض عن الجرى لرزقه، وكسب الفلوس، حتى لا تتعب نفسيته، ويشعر بأنه عاجز مكسور الجناح، بسبب المرض، الذى هده وحرمه من أن يكون رجلاً يجرى على بيته وعياله.

لكن الزوج، كان يقابل الجميل بالنكران، والمعروف بالقسوة والجفاء والجحود، إذ أنه لم يكف عن توبيخها وبعثرة كرامتها فى الأرض لأتفه الأسباب، ولأقل الأخطاء والهفوات، التى تكون عادة خارجة عن إرادتها بسبب ضيق وقتها أو تعبها الجسدى، فمرة قطع اللبن وتخثر، بعد أن نسيت غليه قبل النوم، لأنها كانت متعبة جداً، وفى عرض لحظة ترمى فيها جسمها فى أى مطرح وتنام، فما كان منه عندما اكتشف فساد اللبن، إلا أن شتمها وسبها بأقطع الألفاظ، التى طالت جدودها بعد أبويها، لكنها لم تتأثر من ذلك قدر تأثرها، لنعته لها بأنها رمة رُميت عليه، لا تساوى ربع أبيض فى سوق النساء. بعد ذلك أخذ فى ضربها وضرب العيال، عند صدور أقل هفوة منهم، وتطور الأمر، إلى حد اتهامها فى عفتها، بسبب تأخرها فى البيوت، التى يعلم الله وحده، أنها ما كانت تتأخر فيها إلا لإتقانها عملها، وحرصها على أن يخرج بأفضل وجه، لتحوز رضا مخدوماتها من النساء، فلا يطردنها من العمل، بل ويمنحنها مزيداً من النقود والطعام، ورغم صبرها على كل ذلك، وحرصها أن تمضى بها سفينة الحياة بالستر والأمان، فالاستناد إلى ظل رجل أفضل من الركون

إلى ظل حيطة، إلا أنه صَعّد من معاناتها كثيراً، عندما بدأ في تطوير عدائه لها، وأخذ في سرقتها، ففي ذات أمسية من الأمسيات، اكتشفت بعد عودتها من ساعات عمل شاقة ومنهكة، إذ كانت قد قامت بتنظيف شقة تاجر كبير مكونة من ستة حجرات، ومطبخ واسع، ملىء بالأجهزة والأدوات، وثلاث حمامات، نظفت السيراميك فيها ولمعته قطعة قطعة، اكتشفت أنه أخذ التلفزيون وباعه، بثمن بخس، ولما كان التلفزيون هو متعتها الوحيدة في الحياة، الذى تلتم أمامه مع عيالها، في أوقات سعادة نادرة، أثناء تناول العشاء، للفرجة على التمثيليات والأفلام، حتى يغالبها النعاس، فتنام على الكنبة أمامه، وتحلم أنها بيضاء، شقراء، كفتيات الإعلانات، ترتدى أجمل الثياب، ويتهافت عليها الرجال، فقد حزنت حزناً شديداً وصل إلى حد سُدت معه نفسها عن الأكل، لأنها اشترت التلفزيون، الذى طالما حلمت بوجوده في بيتها، من سيدة طيبة عاد زوجها من بلاد الرسول بتلفزيون كبير، فباعت القديم لمحروسة، التى اعتبرته لقطة وفرصة لا تعوض بالنسبة لها، لأنها اشترته منها بسعر رخيص وبتقسيط الفلوس.

بعد التليفزيون المسلوب، وقعت الطامة الكبرى لمحروسة، فقد اختفت الغسالة، في يوم أسود لم تطلع شمسه بالنسبة لها، ويمكن تصور حجم فجيعتها، إذا ما قلنا أنها كانت تعتبر الغسالة أعظم إنجاز للبشر، جرى على وجه الأرض، منذ بداية الخليقة، لأنها الجهاز، الذى انتشلها من عبودية الغسيل لستة أولاد، بالإضافة إليها وزوجها، وقد تجلى تقديرها للغسالة وتكريمها الدائم لها، في حرصها على تجفيفها بعد كل مرة تغسل فيها، وتغطيتها بمفرش جميل، لم يكن إلا أحد أغطية الرأس الملونة، التى تحصل عليها ضمن ما تجود به عليها مخدوماتها أحياناً من مخلفاتهن من الملابس والأشياء القديمة.

لكنها في ذلك اليوم العصيب، لم تسكت، مثلما سكتت يوم باع زوجها التلفزيون، فقد تشاجرت معه، وواجهته بحقيقة علمها أنه يلعب الواحد

والثلاثين على القهوة مع بلطيجية الحى، ويقامر دائماً، ثم أنها بكت بكاءً مراً ناعية الغسالة العزيزة، مثلما ينعى أى فلاح فقير جاموسته جلابة الخير، وندبت حظها العاثر، كما نادت على أمها الراقدة فى مقابر الصدقة منذ سنوات طويلة، لتأتى إليها وتشوف حالها المنيل بالنيلة الزرقاء، والمهبب بالهباب الأسود، لأن الغسالة كانت من الحوادث السعيدة، التى آمنت محروسة بأنها لن تتكرر فى حياتها مرة أخرى، بعد أن اشترتها من بائع روبابيكيا متجول ذات يوم، بثلاثين جنيهاً، ادخرتها بصعوبة من دخلها، وذلك بعد مساومة طويلة معه، وأخذ وعطاء فى الكلام، عن قيمة الثلاجة ونوعها وما تستحقه من سعر، لأنها خمنت، أن الغسالة لا بد أن تكون مسروقة من مكان ما بسبب حالتها الجيدة، التى تبدو معها وكأنها جديدة.

بعد سنوات طويلة من العذاب، تركها الزوج المريض، المقامر، المُعذب، واختفى، حدث ذلك بعد أن جردها من قطعة الذهب الوحيدة، التى اعتبرتها كنزاً من كنوز الملك سليمان، طالما حافظت عليه كمدخر لعوادى الزمان، وذلك بينما كانت نائمة فى عز الليل كجثة مؤقتة تنتظر يوم عمل شاق ومرهق عند طلوع الصبح، إذ سحب من بنصرها الخاتم ذا العقيق الزائف، الذى كانت قد وجدته بصدفة نادرة فى الجيب الداخلى لمعطف قديم، منحتها إياه سيدة يونانية عملت عندها لفترة من الوقت واضطرت للمغادرة السريعة، وقت إجلاء الأجانب عن البلاد فى العام ١٩٥٦.

أثناء غيابه، وبعد أن يئست محروسة من عودة زوجها الهارب، اضطرت للتقلب فى أعمال كثيرة، بعد أن أصبحت خدمة المنازل لا تدر عليها دخلاً معقولاً، لأن الناس باتوا يستغنون عن الخدم، بسبب انتشار الأجهزة الكهربائية، والميل العملى فى أختيار الأثاث، بحيث أصبح بسيطاً، يلبى الحاجات الضرورية، إضافة إلى الارتفاع الدائم فى الأسعار، الذى هوى بالطبقة الوسطى، إلى أسفل سافلين وهى الطبقة التى تعمل لديها

محروسة وأمثالها عادة.

في البداية، أخذت تطبخ الكشرى وتبيعه على الرصيف، وما أن انتعشت أحوالها، وجرى القرش في يدها قليلاً، حتى طاردها موظفو البلدية، بالأتاوات والفرض، التي فرضوها عليها، حتى يتركونها في حالها، تزاول تجارتها دون طردها من الرصيف، الذي هو ملك للحكومة، تمنحه لمن تشاء وتطرد منه من تشاء، وقد كفت محروسة عن بيع الكشرى، بعد أن اكتشفت أن الجدوى الإقتصادية لذلك منتفية، لأنها باتت تدفع فرضاً ورشاوى، أكثر من عائد البيع، الذي لا يتبقى منه في نهاية الأمر، أي فائض ربح، بعد أن تدفع للعلاف ثمن المكرونة، والعدس بجبة، والأرز الذين تشتريهم منه بالأجل.

بعد ذلك دخلت المجال الصناعي، ربما لتواكب سياسة الإنفتاح الاقتصادى، التي كانت قد بدأت تظهر مشاريعها الصناعية، دون أن تقدم بعد ذلك، صناعات تختلف في أهميتها كثيراً عما كانت تقوم به محروسة آنذاك، إذ أنها كانت تجمع ما تيسر في الطرقات، من ورق متخلف عما يبيعه التجار من سلع ومواد، وتصنع منه طراطير، ومراوح ورقية، تشبكها في عصى من جريد الأقفاص القديمة الملقاة على مزابل السوق، ثم أنها كانت تلصق الطراطير والمراوح بنشاء الأرز المطبوخ، وتلونها بعد ذلك بألوان زاهية محببة للأطفال، تصنعها عادة من بقايا الخضروات، والمواد التالفة، الملقاة كنفايات، ثم تروح تبيع ذلك في الأسواق، وأيام الموالد، بقروش قليلة تدفع بها غائلة الأيام.

خلال هذه الفترة العصيبة من حياتها، اغراها جار لها، بالعمل معه في مسرحه الجوال للأراجوز، كممثلة تؤدى بصوتها الأجش، من خلف الستار، دور الحماة المثيرة للشغب والخلافات بين ابنتها وزوجها المغلوب على أمره، وتنشد معه بعض الأغنيات القصيرة المثيرة للضحك والسخرية، وقد سعدت محروسة بهذا النوع من العمل، الذي اعتبرته عملاً بسيطاً لا يهد حيلها، أو

ينهك صحتها، التى باتت تسوء بسبب تغلغل الروماتزم المستمر فى مفاصلها، رغم ما تضمنه من خدمة صاحبة خدمات يسيرة، إذ كان عليها أن تطهو له طعامه وتغسل هدومه بين الحين والحين.

ثم أنها أحبت شغل الاراجوز إلى حد الشغف به لأنها شعرت معه، بحب الناس لها، وخصوصاً الأطفال منهم، الذين كانوا يضحكون ويصفقون كثيراً لها، عندما كانت تشخص وتغنى، مما أشعرها بأنها خفيفة الدم، مقبولة من الآخرين، وهو الشعور الذى طالما عانت من عدم حدوثه لها قبل ذلك، والشىء الذى جذبها إلى العمل مع الأراجوز، أكثر من أى شىء آخر، كان الدخل المعقول الذى تحصل عليه كل يوم من هذا الشغل، الذى لم يخل كذلك من مفاجآت سارة، مثل المفاجأة التى حدثت ذات يوم، إذ دعا صاحب مقهى كبير بالخيامية الأراجوز، للمشاركة فى حفل ختان إبن لذلك الرجل الميسور، تم إنجابه، بعد سبعة إناث من ثلاث زوجات لم توفق إلا الأخيرة منهن فى تحقيق حلمه بخروج صبى من صلبه، يخلفه فى الدنيا ويحافظ على اسمه من بعده فيها.

وقد استطاعت محروسة، أن تثبت جدراتها فى العمل، بل أن تمده بأفكار جديدة من عندياتها، إذ أنها باتت تقوم بإلقاء الفوازير اللذيذة على المتفرجين بين كل وصلة تمثيلية وأخرى، بهدف إطالة وقت العرض مما يجذب مزيداً من الجمهور، فتسأل عن ذلك الذى يعدى البحر دون أن يغرق، وهى تقصد بالبحر– ويفهم الناس قصدها بالطبع– نهر النيل، الذى اعتاد الناس وصفه بالبحر من باب التقدير والإعتزاز، فيجيبها واحد نبيه من الحاضرين، بأن ذلك الذى لا يبتل هو العجل فى بطن أمه، التى هى الجاموسة، لأنها تستطيع العوم فى النيل بسلاسة ويسر حتى لو كانت حاملاً فى عجل صغير، عندئذ تطالب محروسة بالتصفيق لذلك اللبيب، بينما يعزف له الأراجوز لحناً من ألحان حسب الله، الذائع الصيت، وذلك على سبيل التحية، وبعد ذلك تلقى بالفزورة الثانية من فوازيرها الأربع،

التى لا تعرف سواها، فتسأل عن شىء يدور فى طبق بنور، وعندما تصل إلى الثالثة، التى تعتبر من أصعب فوازيرها، والتى نصها طاسة من جوه طاسة فى البحر غطاسة، داخلها لؤلؤ، وخارجها نحاسة، عندما تصل إلى ذلك يحار الحضور فى الإجابة، لكن محروسة تمهلهم وقتاً للتفكير، تكون أثناءه قد دارت على المشاهدين لتجمع فلوس الفرجة منهم، وعندما تعود إلى مكانها بجوار الأراجوز مرة أخرى، تقول لهم حل الفزورة، وهو الرمانة، ثم تلقى بآخر واحدة، وهى: شىء برق برق، واختبأ بين الورق وتعاود مشاركة الأراجوز فى الوصلة التمثيلية التالية لذلك. لكن محروسة، سرعان ما تخلت عن عملها الممتع هذا، لأنها فوجئت بأن الرجل-الأراجوز، لا يريد مضاجعتها فقط، بل ويريدها أن تفعل ذلك مع رجال آخرين، مصراً أن تنصاع لطلبه وتحترف الرذيلة ليقتسم معها دخلها منها، لأنه سيحميها، ويورد لها الرجال.

بعد تركها فرقة الأراجوز الجوال، عاشت محروسة مع عيالها أياماً لونها أسود من قرن الخروب، حيث سارت فى الطرقات تستجدى، لتسد جوع ستة أفواه صغيرة، مفتوحة لها، تطالبها بالطعام، وشالت الطوب عندما وجدت عملاً، مع عمال التراحيل، حتى انقسم ظهرها وأصيبت بالتهاب حاد فى فقراتها القطنية، لم يحل دون اغتصابها ذات ليلة، بينما هى عائدة من الشغل فى عمارة بمنطقة نائية تقع ضمن حى جديد منشأ على أطراف مصر الجديدة، إذ تناوبها ثلاثة جنود من الجيش، لا تزيد أعمار كل منهم عن عمر ابنتها البكرية، بعد أن كمموها، وقيدوها بأحزمتهم العسكرية، وعندما تركوها، كانت فى حالة بائسة، حتى أنها عرفت بصعوبة، كيف تسلك الطريق عائدة إلى بيتها مرة أخرى، وفى أيام تالية لذلك، نبشت محروسة وفتشت بشغف فى صناديق الزبالة عن أي شىء صالح للأكل، وحصلت من صفائح فضلات باعة الطيور المذبوحة، على نباشات الفراخ، والمصارين المتخلفة عن الذبح، لتسلقها، وتقدمها إداماً

لعيالها إلى جانب الخبز، لكن، يشاء العليم القدير أن ينظر إلى المسكينة بعين الرحمة والعطف، إذ طب عليها ذات يوم سعيد قريب لزوجها، كان يعمل شاويشاً فى السجون، ولما علم بحالتها، وبهروب قريبه، وشاف بأم عينه بؤسها وحاجة عيالها، خرج واشترى علبة حلاوة طحينية للعيال، وأرغفة من الفينو الأبيض وعلبة شاى، وجلس بينهم يأكل معهم، ثم أنه طمأن محروسة بعد أن دس فى يدها ثلاث جنيهات، كانت ثلاثة أرباع ما تبقى من فلوس فى جيبه، واعداً إياها بالبحث عن عمل، يدر عليها دخلاً منتظماً، يكفيها شر الحاجة ومدّ اليد للناس، ولم يمر شهر واحد على ذلك الوعد، إلا وكانت محروسة ترتدى معطف السجانات ذى اللون الأزرق المائل للرمادى، إذ قُبلت كسجانة فى سجن النساء، لضخامة حجمها، ولسحنتها الصارمة، ذات النظرات الرادعة، وهذا منتهى الطلب بالنسبة لمصلحة السجون فى تعيين سجانيها.

خلال عملها، تكشف لمحروسة عالم جديد مدهش بعلاقاته، لم تصادفه فى حياتها قبل ذلك، رغم ما صادفته من غرائب وآلام، وكانت المآسى العديدة، المتنوعة، والمتجددة دوماً، بتجدد النزيلات، تكشف لها عن حقيقة، باتت تترسخ لديها بمرور الوقت، كانت بمثابة العزاء لها، وهى أنها ليست الوحيدة المظلومة فى الدنيا كما تظن، وليست الوحيدة المبتلاة بالمصائب دون سائر البشر كما تتصور، فثمت كثيرات من النساء غيرها، جار عليهن الزمان وضن بالرحمة والسعادة، وبحكم طبيعة المهنة، التى تستلزم أن تكون حازمة، ناهية، آمرة، اكتسبت محروسة بمرور الوقت، ثقة بالنفس، وصلابة فى الشخصية، لكن ذلك لم يمحُ سواد قلبها أبداً، ولم يبعد مرارة السنين عن روحها، وشعورها المستمر بالخيبة والفشل، والقنوط من وجود عدالة فى الدنيا، مما جعلها تلتمس الرحمة والغفران فى تعاملها مع المسجونات، ويرق قلبها لحالتهن، فقد كانت ترى أن الرحمة يجب أن تكون فوق العدل دوماً، ولا ملاذ للبشر إلا فى الرحمة، التى لو سادت وأخذ

الناس بها فى معاملاتهم، لأصبحت الدنيا أقل تعاسة وشقاء، لذلك فهى لا تفترى على المسجونات فى عملها، ولا تظلمهن أو تبتزهن، ولا تفرض عليهن أية إتاوات كما تفعل بعض السجانات الأخريات، كما أنها لا تطالبهن بتقديم خدمات لها دون مقابل، فحتى عندما صنعت لها صفية هيروين شالاً من الكيروشيه، قدمت لها مقابله فرخة كاملة سلقتها بنفسها فى البيت وأحضرتها لها معها، غير أن ذلك لا ينفى كونها تقبل برضا بعض الهدايا من السجينات، شريطة أن تقدم لها عن طيب خاطر، دون انتظار أية معاملة خاصة بهن من جانبها، وعلى هذا الأساس، قبلت عسل النحل، الذى كانت تغمس وجهها فى الطبق المملوء به منذ قليل، كهبة من سجينة يمتلك أهلها مناحل عديدة فى قريتهم بالريف، وعموماً فإن حصولها على أى شىء من السجينات، كانت تضعه أولاً فى ميزان العدل والقطاس، وتقبله من باب الود والرحمة، والتعاطف، الذى يجب أن يكون متبادلاً فى دنيا السجن الموحشة، قبل أن تمتد يدها لتأخذه.

ما يربط محروسة السجانة، بصفية، التى يطلق عليها جميع من فى السجن صفية هيروين لاتجارها فى ذلك النوع من المخدرات، يختلف عن كل ما يربطها بالسجينات الاخريات، وقد لعب الزمن قبل كل شىء، دوراً فى هذه العلاقة، لأن صفية من أقدم نزيلات سجن النساء، بالأحرى، هى سجينة مخضرمة، خبيرة بذلك السجن، لأنها قضت فيه معظم سنوات عمرها إذا صح التعبير، منذ أن دخلته لأول مرة فى السادسة عشرة من عمرها، فأمضت فيه سنة بتهمة السرقة، وفى التاسعة عشرة، انضمت لعصابة سرقة بالإكراه، فحكم عليها بست سنوات مع الشغل، فلما خرجت، تزوجت من قريب لها عاطل عن العمل، لكنه لديه شقة مكونة من حجرتين وصالة، ورثها عن أمه، وَجَدتها ملاذاً ومثوىً لها، ثم أنها باعت ساعة ذهبية، كانت قد احتفظت بها لنفسها، ولم تعترف بسرقتها وقت القبض عليها، اشترت بثمنها قماشاً رخيصاً، من تجار النسيج بشارع الأزهر،

وأخفافاً منزلية بلاستيكية، زهيدة الثمن، وعقوداً وأساور وأقراطاً صناعية، ابتدأت بها مجتمعة، تجارة بسيطة، محدودة، كانت تدور بها على الشقق والبيوت لتبيعها للنساء، وشيئاً فشيئاً، انتعشت تجارتها، بفضل شطارتها وحلاوة لسانها، ومرونتها في التعامل مع الزبونات، اللواتي وثقن بها، خصوصاً أنها أضافت لنشاطها نشاطات أخرى، فكانت تعمل لبعضهن حلاوة بالسكر والليمون، لنتف الشعر من الجسد، وتشتغل مفارش وأغطية رأس من خيطان الصوف بإبرة الكيروشيه، بالإضافة إلى تحضيرها لبعض أنواع من الدهون للجلد، وزيوت للشعر، بعد جلب موادها الخام ووصفاتها من العطارين وتركيبها، ثم توسع نشاطها فراحت تتولى تزيين العرائس المقبلات على الزفاف، فصارت مطلوبة من النساء لخدماتها المتنوعة، التي كانت تقوم بها على الوجه الأكمل، وباتت لها زبوناتها العديدات، اللواتي لم يعرفن قط بماضيها اللصوصي، فانتعشت أحوالها كثيراً، وعاشت عيشة راضية، ما حلمت بها يوماً طوال حياتها قبل ذلك.

بعد مرور خمس سنوات على زواجها، أنجبت صفية ولدين، توأماً، جنّت بهما، رغم نحالتهما الشديدة، والانبعاج البين في رأسيهما إلى الخلف، واعتبرتهما أعظم ما وصل إليه النوع البشري على مستوى الخلق، حينئذ، شعرت لأول مرة بالانتماء، وأن لها أسرة وأهل، وهي اليتيمة، التي عاشت طفولة تعسة مع زوج أمها بعد أن مات أبوها، مما اضطرها إلى الهروب من البيت، عندما بلغت الرابعة عشر من عمرها، وسافرت إلى القاهرة، بعد أن تركت بلدتها الريفية بالدلتا، لتهيم على وجهها أياماً في الشوارع تتسول لقمتها، حتى التقطها صاحب مسمط، لاحظ مكوثها كثيراً بالقرب من دكانه في السوق، فأخذها لتعمل عنده في تنظيف كروش البقر والغنم، وكذلك سيقانها من الأوساخ، بعد غمسها في الماء المغلي، ثم تنظيف أكواب وأطباق الألمونيوم، التي كان يقدم فيها الثريد والحساء لزبائنه، عندما تفرغ من مهمتها الأولى، وقد حصلت صفية مقابل ذلك العمل على

شرف المبيت بمطبخ المحل فى نهاية الليل، وتناول بعض الطعام.

والحقيقة أن صفية لم تتعرض، لما تتعرض له أية فتاة صغيرة، هاربة، أو ضائعة فى مدينة جهنمية كالقاهرة، فى العادة، إذا كانت فى الرابعة عشرة من عمرها أو قريبة من ذلك، ولم يكن هذا بسبب معجزة سماوية، أو قلة ذئاب المدينة المستعدين لافتراس أية أنثى تعبر الطريق، إذا ما سنحت لهم الفرصة، ولكن بسبب حصانة طبيعية لا راد لها، وهى أن صفية كانت تمتلك عيناً واحدة، فالأخرى ضاعت فى زمن مبكر على إثر علقة ساخنة تلقتها من زوج أمها لكسرها قارورة النرجيلة الزجاجية، بينما كانت تحملها له ليدخن بعد الغذاء، فولت هاربة منه لتلوذ بأمها، التى كانت وقتها جالسة تشتغل له طاقية من الصوف، ذات خطوط متعرجة تمثل بعض ما تبقى فى الذاكرة الشعبية من أساليب الفن المصرى القديم، حيث كانت ترسم مياه النيل على النحو نفسه، لكن الطفلة المسكينة، وهى تسارع بالاختباء فى حجر أمها، خوفاً من زوجها الهائج، انكفأت بوجهها على الإبرة الحديدية، فانغرست فى عينها وفقأتها، لتصبح بعد ذلك بعين واحدة تنظر، وأخرى زجاجية قدمها لها زوج أمها، الذى كان طيباً إلى حد استيقاظ الضمير، فاعتبر نفسه مسؤولاً عما ألم بالبنت الصغيرة، التى كان يكرهها بالفعل، ويسيء معاملتها، لكنه لم ينتوِ أبداً إلحاق ضرر جسدي بها يصل لدرجة حرمانها من نور عينها. ليست العين الزجاجية هى سبب الحصانة الطبيعة ضد الاغتصاب، فقط، ولكن نحول قد صفية الشديد، وضآلة حجمها لعباً دوراً لا بأس به فى التضليل، وعدم الإفصاح عن مكامن الأنوثة فيها، فعندما كانت فى الرابعة عشرة، كانت تبدو فى الثامنة فقط، فهى قصيرة، ممسوحة الصدر تقريباً، ذات رأس صغير، ورقبة لا تبعد كثيراً عن أكتافها، ولعل ذلك هو الذى جعل محصل التذاكر فى القطار الذى أقلها من الدلتا إلى القاهرة، لا يجد ضرورة فى تحصيل بطاقة ركوب منها، خصوصاً أنها كانت تجلس هادئة إلى جوار فلاح عجوز، تتطلع بعينها

الوحيدة إلى البلاد والقرى، وزراعات القطن والخضار، التى كان يعبرها القطار عبوراً سريعاً، وحتى المحاولة الأولية البسيطة التى يمكن وصفها، وصفاً سطحياً، بالإغتصاب، والتى تعرضت لها صفية، جاءت من صبى صغير لم يبلغ بعد، يصغرها بسنوات، وكانت يوم أن ذهبت فى ظهيرة عيد الفطر إلى السينما، بعد أن أشترى لها صاحب المسمط جلباباً من الكستور القطيفة، طبع عليه أرانب وأوز وديوك بألوان زاهية متباينة، وحذاء قماش بنعل زحافى مطاطى ورباط فى مقدمته، اختاره الرجل بنى اللون ليتحمل الأوساخ، من النوع الذى عممته مصانع باتا الإيطالية فى جميع أنحاء البلاد، وهى المصانع التى أممت، وتحولت إلى قطاع عام، ثم أنه نفخها عشرة قروش كاملة، كعيديه لن تأخذ خلافها على مدى أيام العيد الثلاثة، فامتنت له امتناناً شديداً، وحبّت على يده اليمنى، السمينة، كمثيلتها اليسرى، وقبلتها عدة قبلات، ثم أنها ابتاعت شقّة بطعمية، وأخرى بفول مضاف إليه قليل من سلطة الطحينة، مما كان بمثابة تنويع على لحن واحد، وبينما هى تأكل سائرة، وتتفرج على المحلات والدكاكين، وقعت فى غرام قرط بلاستيكى أحمر اللون، فاشترته بقرشين، ثم دخلت السينما، التى كانت تعرض وقتها فيلماً لشادية، وتحية كاريوكا، وبينما كانت الأخيرة ترقص هازة بطنها وصدرها ومؤخرتها فى حركات بارعة سريعة، تتطلب ممن يؤديها أن يزيل أولاً مصرانه الأعور، أحست صفية يداً تمتد إلى صدرها، وتداعب ثدييها مداعبة وصلت إلى أطراف حلمتيهما الصغيرتين مما جعلها تشعر بلذة ألجمتها وجعلتها تبدو وهى تتابع الفيلم، بعينها الوحيدة، وكأنها أليس فى بلاد العجائب فما كان من اليد الطويلة، الواصلة إليها من المقعد المجاور، إلا أن واصلت تسللها، وزحفت إلى مناطق أخرى من الجسد الصغير، مانحة أياه المزيد من اللذة والإثارة، والشعور البكر بالإنتشاء.

الموقف انتهى بعد قليل، إذ أضيئت الأنوار فجأة، إيذاناً بإستراحة

قصيرة، باعثها الحقيقى، رغبة إدارة السينما فى تنشيط بيع المشروبات الغازية واللب الأسمر والفول السودانى من الباعة الذين يعملون لديها، وعندما تنبهت صفية، لم تجد أى كائن يجلس على المقعد المجاور لها، إذ أن الولد اختفى بسرعة، ربما بسبب خجله، الناتج عن مباغتة الضوء له، وربما لأنه تأمل ملامحها سريعاً ولاحظ العين الزجاجية، ولما يئست من عودته، اشترت لنفسها زجاجة بيبسى كولا، لأنها شعرت بظمأ شديد.

بمرور الوقت تحولت صفية إلى فتاة قاهرية، وبدأت عينها تتفتح على مباهج الدنيا فى مدينة عامرة بالحياة، هى بمثابة عدة مدن مجتمعة، فكانت تختلس الوقت من المسمط، عندما يرسلها صاحبه لشراء شىء ما، أو لأداء مهمة تخصه أو تخص المحل مع التجار الآخرين فى السوق، وتجوب الشوارع متلكئة، تتأمل معروضات المحلات الكبرى، ونساء الطبقات العليا المترفات، اللواتى يقضين معظم أوقاتهن الصباحية فى التبضع والشراء، قتلاً للملل، ونهماً للاستهلاك، وخلال هذه الأيام، كان منتهى حلم صفية الحصول على حذاء أحمر بكعب عال، وقد تحقق حلمها بعد ذلك بشهرين، ليس بالصدفة وحدها، ولكن بقوة ملاحظتها وخفة يدها، إذ بينما هى تمر على محل لتصليح الأحذية، لاحظت فردتا حذاء أحمر صغيرتين، ترقدان فوق بعضهما إلى جانب كومة من الأحذية المخصصة للتصليح، ولقد بدا ذلك الحذاء جميلاً فى عينيها إلى حد جعلها تحلم فى ليلة اليوم نفسه، بأن زوج أمها يقبلها، ويمسح على رأسها، ويدخل قدميها فيه. فى اليوم التالى لذلك، وبعد معاناة حقيقية، إذ أن صورة الحذاء الأحمر ظلت قائمة فى عينيها لم ترسل، تفتق ذهن صفية عن شر خفيف يراد به خيراً لها، إذ أنها قامت بفصل نعل فردة حذاء صاحب المسمط عن وجهه بسكين حادة، بعد أن خلعه وأخذ يصلى صلاة العصر، وما أن انتهى من ركعتى السنّة بعدها، طالباً من ربه الصلاح والتوفيق، وبادر بوضع قدمه فى الحذاء، حتى اكتشف أن أصابعه المتدثرة بالجورب النبيذى الداكن، قد صارت

على الأرض، فثار وزام لاعناً صناعة الأحذية، وأصحابها الغشاشين، مقسماً أنه لن يشترى طيلة حياته حذاءً آخر من المحل الذى ابتاع منه هذا الحذاء، لكن صفية أخذت تهدئ من ثائرته، وطارت بالحذاء إلى محل الجزماتي، واعدة إياه بأنها لن تعود إلا ومعها فردة الحذاء سليمة كما كانت من قبل، ولا داعى لأن يحرق دمه ويتلف أعصابه.

عندما عادت بعد ذلك بساعة، كان معها ثلاث فردات من الاحذية، بينهما الزوج الأحمر، الذى اشتهته إلى حد الحلم، بعد أن ظلت تقنع الجزماتي بضرورة تصليح حذاء سيدها بسرعة، بعد أن أوهمته أنها تعمل خادمة لدى موظف كبير وزوجته، التى تقسو عليها كثيراً، وأنه سوف يضربها إن هى لم تعد به بسرعة، وقد أشفق الرجل عليها بسبب عينها الضائعة، وأسلوبها المسترحم الضعيف فى الكلام معه، والحكاية التى حكتها له عما فعله بها زوج أمها، ثم أنه طلب منها شراء طعام ليتغدى به، فذهبت واشترت له باذنجاناً مقلياً، وبطاطس محمراً، وبعد أن انتهى من الأكل جاءته بكوب شاى من المقهى القريب، فشربه وهو يقوم بإصلاح الحذاء، وما أن انتهى من إعادة فردة حذاء صاحب المسمط إلى ما كانت عليه حتى واتت صفية الفرصة الذهبية للحصول على الحذاء الأحمر، إذ صعد الرجل إلى محل الأدب الكائن فى السقيفة بأعلى المحل، ليقضى حاجته، فسارعت بأخذ فردة الحذاء، التى انتهى من إصلاحها، بالإضافة إلى الحذاء الأحمر، وطارت من الدكان إلى المسمط بخفة عصفور صغير.

كان الحذاء الأحمر، الذى اكتشفت أن كعبه ما زال مكسوراً، لم يصلح بعد بمثابة فاتحة مبينة فى حياتها العملية، إذ جعلها تتأمل حالتها، وتفكر لأول مرة فى كونها محرومة من نعم، ومتع عديدة فى الحياة، وأنها لا تملك الحصول على أى شىء تريده بسبب فقرها، وقلة الفلوس فى يدها، وقد قادها هذا الخيط من التفكير، إلى حقيقة هامة تكشفت لها لأول مرة كذلك، وهى أن صاحب المسمط، الذى اعتبرته حتى هذه اللحظة مندوب العناية

الإلهية، التى انتشلتها من البؤس، وذل السؤال، يستغلها أسوأ استغلال، فهى تعمل من السادسة، صباح كل يوم، وحتى ما بعد الليل، فى تواصل، دون انقطاع إلا لساعات قليلة بعد الغذاء، ولا تتلقى مقابل ذلك إلا ما يلزم لإسكات جوعها يومياً، قطعة صغيرة من الكوارع، أو لحم الرأس، مع طبق من الأرز المضاف إليه قليل من الحساء، مما يضطرها، فى بعض الأحيان، إلى أكل ما يتبقى فى أطباق الزبائن، الذين قلما يتركون طعاماً يتخلف عنهم فى أطباقهم، ثم أنها تتناول إضافة إلى ذلك، كوباً أو كوبين من الشاى يومياً، وما يجود به عليها بين الحين والحين من أصناف أخرى من الطعام، كبعض ثمار الفاكهة، عندما يشيعها بها إلى زوجته فى البيت، وكانت رغبتها فى تزيين شعرها، وله بطوق من الخرز الملون، ووضع أحمر شفاه، بما يتناسب مع الحذاء، كما تفعل النساء اللواتى تراهن فى شوارع المدينة، سبباً فى إثارة مزيد من الحنق والغيظ بداخلها تجاه صاحب المسمط، الذى لا تنال منه ما ترغب فيه، واكتشفت استغلاله لها، مثلما اكتشفت ما هو أهم بالنسبة لها حينئذ، وهو أن السرقة فى هذه المدينة ممكنة وسهلة إلى حد كبير، بل هى ضرورية أيضاً، إذا ما رغب الإنسان أن يعيش حياة كالتى يعيشها كثير من أولئك الذين يسيرون فى شوارعها.

منذ ذلك الحادث فصاعداً، تضاءل حجم المسمط فى العين غير الزجاجية لصفية، وأصبح بقاءها فيه مسألة وقت، حيث فتحت المدينة ذات المباهج الألف ذراعيها لها بالكامل، شريطة أن تشحذ ذكاءها وخفة يدها، وتصبح واحدة من شطارها الذين يحيون ما يقومون به من نهب وسرقة كلما استطاعوا ذلك.

بسبب وجودها فى المسمط، ظلت عاجزة عن سرقة الأشياء الكبيرة، واضطرت لسرقة الأشياء الصغيرة، سهلة الإخفاء، ولم يمض وقت طويل على حادثة الحذاء الأحمر، المحدودة الأهمية، إلا وكان قد تجمع لديها عدد

لا بأس به من الأقراط الرخيصة، وأمشاط الشعر، والدبابيس، والجوارب الرجالية والنسائية، لأنها تخصصت آنذاك فى سرقة باعة الأرصفة، الذين يعرضون بضاعتهم ذات رأس المال المحدود على فرش بالرصيف، ثم اكتشفت بعد فترة إمكانية سرقة عشاق السينما، خصوصاً أولئك الخارجين من حفلة الساعة التاسعة، الذين مازالوا واقعين تحت تأثير غرام الأفلام، وقبلاتهم المسروقة بحماس فى الظلام، إذ يتخيل كل منهم أنه بديل للبطل، أو البطلة الجميلة، فى الفيلم، فمن أولئك يمكن سرقة إيشارب من الشيفون الرقيق، يتدلى بإستعراض من طرف حقيبة يد لسيدة أو فتاة أنيقة، أو سلسلة مفاتيح تطل من جيب بنطال شاب غندور، وقد ساعد الحجم الضئيل لصفية على نجاحها، والتوفيق فى مهماتها دون أن يشعر بها أحد.

وفى يوم أسود لن تنساه أبداً، وقعت فى قبضةالبوليس دون أن تدرى، مما جعلها وحتى هذه اللحظة من حياتها، لا تندم على شىء قدر ندمها على غفلتها، وعدم تنبهها للخطأ الذى ارتكبته، فبعد أن بلغت بحوالى ثلاثة شهور، كانت تسير ذات يوم فى شوارع المدينة، بجسدها المتعب، وعظامها، التى تشعر أنها على وشك التفتت بسبب حالة الطمث، التى هى فيها، لاحظت سيدة لها مؤخرة ضخمة كمعظم النساء المصريات، وإلى جوارها طفلة، ربما لم تتجاوز السادسة من عمرها، تضع حول رقبتها سلسلة ذهبيةً، يتدلى منها على صدرها، مصحف صغير بفص أزرق عند منتصفه، تدوران للفرجة على الواجهات الزجاجية لمحلات ملابس الأطفال، وإذ هما واقفتان أمام أحد هذه المحلات، والأم مشغولة بتفحص المعروضات، لتنتقى شيئاً لطفلتها، امتدت يد صفية إلى مشبك السلسلة المستقرة على رقبة الطفلة من الخلف، وحاولت فتحها، لكن الصغيرة، تنبهت فوراً وصرخت مما جعل الأم تلتفت وتمسك بيد صفية بعنف طالبة النجدة من عابرى الطريق.

لسوء الحظ، كانت السيدة، إبنة لضابط مرموق فى الشرطة، مما استلزم أن تذوق صفية علقة متميزة، موصى عليها، تولى أمرها متخصصون فى الإيذاء والإيلام دون ترك آثار يعتد بها الطب الشرعى، وعندما انتهوا من مهمتهم، التى استغرقت ما يقارب ساعة من الوقت، كانت صفية تشعر بأن عينها اليمنى لا بد وأن تكون قد أصابها ما أصاب عينها اليسرى منذ زمن بعيد. فى اليوم التالى لذلك، جرى تقديم صفية للنيابة، التى حولتها بدورها للقضاء، لتحصل على حكم بالسجن لمدة سنة لأول مرة فى حياتها، ولتصبح تلك السنة، فاتحة لعلاقة طويلة ممتدة بين صفية والسجن، الذى سوف يقتسم معها الشطر الأكبر من عمرها.

ويبدو أن الزمن كان يقف لصفية بالمرصاد، مؤكداً أنه طرف فى مصائر البشر، مهما كانت قوة إرادتهم ورغبتهم فى العيش، على نحو هادىء لا يكدره شىء، يقلق سعادتهم، أو أن هناك بعض الناس يرسم تاريخهم لحظة ميلادهم لأن صفية لم تستقم حياتها وتمضى بسلام، حتى النهاية، مع ولديها والزوج- الحائط، الذى كان يفضل تربية الأولاد والأعمال المنزلية على أية أعمال أخرى خارج البيت، مما جعله يرعى الولدين بكفاءة وشغف، أتاحا لصفية التفرغ لمهمتها الأساسية، فى توفير النقود، وإعالة الأسرة، التى استطاعت الوفاء بكل متطلباتها، إلى الحد الذى جعل حلم دخول الولدين الجامعة ، ضرورة غير قابلة للنقاش، وهو الحلم الذى راود ملايين الفقراء والمغمورين، بعد إعلان عبد الناصر مجانية التعلم، لقد كان ذلك بالنسبة لصفية وزوجها هو الإمكانية الوحيدة، والأمل الحلم فى أن يتحولا إلى أناس لهم وجودهم المحترم فى المجتمع، لذلك عملت على توفير كل ما يمكن أن يوفره الناس المحترمين، برأيها، لأولادهم، فكانت حريصة على أن تكون ملابسهم لائقة، وبيتها نظيفاً، لا يخلو قدر الإمكان، من سلع حديثة تعبر عن الترقى والتمدن، حتى لا يشعر ولداها بكونهما أقل من الآخرين عصرية وحداثة، فكانت تشترى كل الأشياء مهما

كان سعرها أو ضرورتها العملية، مثل ولاعة الغاز، والمبيدات الحشرية، وعلب سوائل يعطر رشاشها الجو، وأنواع متباينة من غسولات الشعر، ومجففه الكهربائى، إضافة إلى الأجهزة الكهربائية الكبرى كالغسالة والثلاجة والبوتجاز والتليفزيون والفيديو. وببساطة مأساوية تطلبتها الإحتياجات العصرية المفترضة، والمتجددة دوماً، لتلك الأسرة السعيدة، دخلت صفية فى عالم تفيدة أكبر تاجرة مخدرات فى منطقة الدرب الأحمر.

كانت صفية تعتبر كادراً نادراً، بالنسبة لتفيدة، فى شبكة تجارتها الواسعة، المنظمة تنظيماً دقيقاً يجعلها فى مأمن دائم من هجمات البوليس، الذى كان ملماً بنشاطها إلى حد كبير، لكنه لا يستطيع إتخاذ أية اجراءات ضدها، بسبب عدم ثبوت الأدلة، نظراً لمهارتهافى تنظيم عملها، ولأن كثيراً من عيونه عليها، هم عيون لها أيضاً، وقد استفادت تفيدة من علاقات صفية الواسعة، ومعارفها العديدين، بسبب ترددها على البيوت، وعدم الاشتباه فيها فى هذا المجال، فكانت تقوم بمهمات التوزيع الصعبة، مقابل حصولها على مبلغ يفوق رأس مالها فى تجارة الأقمشة والبضائع الصغيرة الأخرى، التى كانت تتاجر بها، فانتعشت أحوالها المالية انتعاشاً بلغ حد شرائها دكاناً لزوجها وولديها، ليصبح أحد مراكز نشر زبالة السينما الأمريكية الممثلة فى أفلام العنف والرعب والكراتية، إضافة إلى أفلام السينما المصرية التى لا رجاء فيها غير أن مفتاح الصدفة، فتح عيون البوليس، على ذات العين الزجاجية، بينما كانت تقوم بتوزيع حصة بودرة هيروين على تاجر مخدرات تابع لتفيدة، فى ضاحية من ضواحى المدينة فقد هاجم البوليس فى هذه الأثناء العمارة التى يقطن بها التاجر، للقبض على أحد أفراد الجماعات الإسلامية، وأخذ فى تمشيط الشقق بحثاً عن قنابل ومتفجرات وأسلحة نارية من تلك الأنواع، التى تستخدمها هذه الجماعات فى مواجهة السلطة، وجرى البحث بحماس، ودقة، فلم يترك

موضع، إلا وفتش في العمارة، التي تعد نموذجاً أمثل لانحطاط فن البناء في مصر، والدليل المبين على انعدام ضمير بعض العاملين في البلدية، ورؤساء الأحياء، وهيمنة تجار الاسمنت والحديد المسلح وحثالة المعماريين على قطاع التشييد والبناء، إذ كانت أشبه بصندوق أحذية قائم، له فتحات ومنافذ، وقد طلي بألوان تفتقد إلى كل حس وذوق جمالي، مما جعل واجهة البناية، أشبه بقطعة من الحلوى الرديئة ولسوء حظ صفية، ارتاب بعض رجال البوليس في الحقيبة الشامواه الأنيقة، التي تتأبطها على نحو لا يتفق وامرأة ذات عين زجاجية، وجسد لا تقل الحقيبة عن حجمه كثيراً، فأمروها بفتحها، ليجدوا بانتظارهم أكياساً مليئة بالمسحوق المخدر ترقد متراصة، أسفل قطع القماش الملونة، والجوراب الرجالية، وربطات العنق الحريرية، المجلوبة من المنطقة الحرة ببورسعيد.

وهكذا، عادت صفية إلى السجن، دون أن يداخلها أى شعور مأساوى من جراء ذلك، كما حدث لها من قبل، بل كانت راضية عن نفسها تماماً، لأنها أدت رسالتها في الحياة على أكمل وجه فالولدان التحقا فعلا بالجامعة، والأول متفوق في دراسة الزراعة إلى حد كبير، رغم أنه لن يعمل في مجالها بعد التخرج، لأن الزمن لم يعد زمن زراعة بل زمن سياحة وسمسرة، ووساطة، ومايسمى برجال الأعمال، وصفية من ناحيتها أمنت للولدين دخلاً معقولاً، إلى الحد الذى جعل الولد الآخر، يخطب زميلة جامعية له كان يحبها وأصر على الارتباط بها.

ولم تكن صفية بمهتمة لدخولها السجن، هذه المرة أيضاً، لأنها حولت معظم مكاسبها من تجارة المخدرات، إلى مشغولات ذهبية أخفتها في التربة التى اشترتها قبل القبض عليها بفترة، وبنت فيها مدفنين، وسورتها بسور عال، ذى باب حديدى ضخم مشغول، لم تترك مفتاحه للتربى أبداً، وذلك تحسباً لحدوث ما حدث لها، فتقوم الحكومة بمصادرة ممتلكاتها الثابتة والمنقولة، وتأتى على كل أخضر ويابس صنعته بعرق جبينها

المسفوح بكل وسيلة غير قانونية أو مشروعة.

تلقت صفية حكماً بالسجن المؤبد حمدت الله عليه كثيراً بعد ذلك لأنه لم يمر إلا وقت قصير على سجنها وتنفيذ الحكم، إلا وكان الإعدام نصيب المتاجر فى المخدرات أو الذى يقوم بجلبها من خارج البلاد لكن حياة السجن القاسية ومرور الأيام جعلاها تبتئس وتسرع الخطى للإنضمام إلى نادى الشيخوخة إذ باتت أوقات السجن تمر عليها وكأنها دهر من الزمان، بل وتعذبها إلى الحد الذى أصبح معه هاجسها الحقيقى فى الحياة هو الخوف من أن تموت وحيدة مبعدة عن والديها ولا تتاح لها الفرصة، للعيش معهما مرة أخرى، وكانت تمضى لياليها تتذكرهم، ودموع كثيرة تنداح من عينها حتى عندما يغلبها النوم وتنام، تظل فى أحلامها التى هى أجمل لحظات حياتها فى السجن، تتحدث إليهما، كما لو كانت ما تزال تعيش بينهما بالفعل، فتشير على الثانى ألا يسرف كثيراً فى تدليل خطيبته حتى لا تتمرع وتركبه وتدلى رجليها، وتساعد الأول المصاب بعمى الألوان فى اختيار ملابسه، خصوصاً أنه لا يفرق ما بين الأزرق والأخضر، أما الزوج، فهى تذكره بالخير، لأنه كان الرجل الوحيد، الذى حضنها وأواها دون سائر رجال الدنيا، بعد أن ألقت به الصدفة فى وجهها، إذ أنها شيعت خطاباً لأمها ذات مرة فى بلدتها البعيدة، زمن أن راجت الفلوس فى يدها، عندما عملت بالتجارة، بعد خروجها من السجن، فردت عليها أمها تعلمها بوفاة زوجها، ودلتها على عنوان قريب لها بالقاهرة، فذهبت إليه لتقيم عنده، فلما وجدها معطاءة، لا تكلفه شيئاً، بل ولا تبخل عليه، بعطاء مما يعطيها الله، اقترح على نفسه، أقتراحاً عملياً لن يضيره أبداً، وجد معه أنه من الأفيد له التزوج بها، فلن تجود أيامه الصعبة عليه بزوجة أفضل منها.

كلما امتد الزمن بصفية فى السجن، كلما زاد سخطها، وغضبها على الحكومة، التى هى سبب مشكلتها وتعاستها والفرقة بينها وبين عيليها،

فهى لا تفهم، ولن تفهم أبداً، لماذا كل هذه القسوة من قبلها على واحدة مثلها؟ فهى تفهم أن تتدخل الحكومة فى مسائل النشل، والسرقة، والقتل، لكن المخدرات.. لماذا؟! فالناس يشترون المخدرات عن طيب خاطر، وعندما يتعاطونها، يروق مزاجهم، وتصفو نفوسهم، وكانت صفية ترى أن كلام كل الذين يظهرون فى التليفزيون عن المخدرات ما هو إلا مبالغات سخيفة، لأن الأكل نفسه لو لم يعتدل فيه الإنسان، لضرهُ ضرراً شديداً، بل وكانت متأكدة أن كل ما يكتب فى الصحف أيضاً ما هو إلا كذب، لأن أولئك الذين يتحدثون عن المخدرات، هم أنفسهم، الذين يتحدثون عن كل شىء فى البلد بالكذب، ولا يقولون الحقيقة أبداً، وربما لا يستطيع أحد لومها على ذلك، إذ اختلط الحابل بالنابل، وبات الدفاع عن الشر، وتجميله، من الأمور الشائعة، فى حياتها، ولذلك كان شعور صفية بالظلم، الواقع عليها من ناحية الحكومة- كما تعتقد- يتجلى فى مهاجمة كلية الحقوق، وشتمها قدر الإمكان، والدعاء عليها بعد سماع كل أذان، وخصوصاً الفجر والعشاء، إعتقاداً من صفية أن الدعاء بعدهما مستجاب أكثر، وكانت المقولة الدعائية المفضلة لديها هى "إلهى يهد كلية الحقوق"، لأنها الكلية، التى تخرج منها القاضى الظالم، برأيها، الذى حكم عليها الحكم الجائر، الشنيع والذى قرر فيه إبعادها عن ولديها لمدة خمسة وعشرين سنة، ولذلك فهى ما فتئت ترسل الشكاوى لكل الجهات المعنية، بما فى ذلك رئاسة الجمهورية، ومجلس الوزراء، على أساس أن الحكم الصادر بحقها لا يليق ولا يجب، وقد كانت تلك الشكاوى من الخيوط التى ربطت صفية بمحروسة أيضاً، لأن محروسة كانت تتصل بعائلة صفية، وتشرف على كتابة الشكاوى، ومتابعتها، أما الخيوط الأخرى، فكان على رأسها ذلك التقارب فى عمريهما، وهم العيال، الذى تحمله كلتاهما، بداخلها، لكن كرم صفية الدافق، كان من العوامل الأساسية، المرجحة، لتدعيم العلاقة بين المرأتين، فصفية لا تبخل على محروسة بأى شىء يأتيها من ولديها عند زيارتهما لها

فى السجن، إبتداء من الطعام، والملابس، والأحذية، وحتى الدواء، الذى تعطيه صفية لمحروسة، خصوصاً أدوية الروماتيزم، ونزلات البرد، التى تختفى من الصيدليات أثناء الحاجة لها فى فصل الشتاء، لأسباب يمكن معرفتها لدى الإدارة العليا فى شركات القطاع العام، والأكثر من ذلك أن محروسة كانت تعتبر صفية بنك التسليف الخاص بها، فهى طالما استدانت منها نقوداً، كانت لا تأخذها منها فى السجن، لأن العملة الوحيدة المتداولة فيه، هى السجائر، التى يمكن مبادلة أى شىء بها، حيث أن نسبة المدخنات تصل إلى تسع وتسعين بالمائة، على الأقل، من مجموع السجينات، اللواتى يتوقف عدد العلب التى يدخنها حسب الوضع المالى لكل واحدة منهن، ودرجة إدمانها للتدخين، وبالطبع يرتفع كم السجائر المدخنة لدى أولئك اللواتى كن يتعاطين المخدرات، وبنات الدعارة، أكثر من غيرهن من السجينات، لكن محروسة كانت تأخذ قروضها الحسنة، التى بلا فوائد أبداً، من إبنى صفية عندما ما يزوران أمهما فى السجن أو حين تذهب هى إليهما فى البيت، وقد وصلت العلاقة بين أختى الصفاء، إلى الحد الذى جعل زوج صفية يوظف فى محل الفيديو، الذى يخصه، إبنة محروسة مقابل مبلغ شهرى معقول، بعد حصولها على دبلوم التجارة، بل ويتدخل فى فض الخلافات التى تحدث بين البنت وأمها، بسبب رغبة الإبنة فى الزواج بعريس تقدم لها، يعمل كهربائياً للسيارات، لكن الأم رفضته بشدة، لأنها حلفت وأقسمت ألا تتزوج أية واحدة من بناتها وهى على وجه الدنيا، لأن الرجال كائنات شريرة خلقت من ضلع الشيطان، ورغم أن بقية بناتها، كن مقتنعات تقريباً بهذه الحقيقة، ربما بسبب أنهن جئن، الخالق الناطق، نسخاً مكررة من أمهن، إلا أن الصغرى، كان لها شعر ناعم فاتح اللون، خفف من وطأة الأمر، أنها أطالته حتى بلغ منتصف ظهرها، مما فتح باب الرجال المغلق فى وجهها، وأغرى كهربائى السيارات، الأصلع منذ كان عمره أربعة وعشرين سنة، وقد ساهمت مساحيق تجميل الوجه

بكل ألوانها، الحمراء، والزرقاء، والخضراء التى تضعها هذه الإبنة فى حسم أمر رغبته بها، فتقدم طالباً القرب منها.

ولأجل خاطر زوج العزيزة صفية، وافقت محروسة بعد لأى على إتمام الزواج، بعد كتابة مؤخر صداق كبير، وعلى أمل أن يفشل الزواج سريعاً، فتعود ابنتها الضالة إلى حظيرة المؤمنات بنظرية الضلع الشيطانى، وتنضم إلى كتيبة بناتها، المعادية للرجال، مرة أخرى.

لسنوات طويلة كانت عزيزة ترقب عن كثب، مدى العلاقة التى تنمو بين محروسة وصفية، وتتابع بدقة حبل الوداد الممتد بينهما، وقد أنفقت ليالى طويلة تحتسى خمرها النيلى، ملتهمة أنفاس سجائرها، التى لا ينقطع دخانها، المختلط بدخان صدرها، المشتعل بالرغبة فى تحقق العدالة، والرحمة على الأرض، إذ تفكر فى حالتهما، فمن خلال معرفتها العميقة بسجن النساء، قلما عثرت على علاقة صادقة، حميمة، محملة بالود والإخلاص، كتلك العلاقة التى نشأت ونمت بين محروسة وصفية، وقد كانت تلك العلاقة وحدها، هى السبب الأساسى، الذى دفعها للتفكير فى ضمهما لراكبات العربة الذهبية الصاعدة إلى السماء، رغم أنها لا تحب شخصية صفية أبداً، ولم تحترمها فى أى يوم من الأيام، لأنها برأيها أفاقة، ومجرمة بالطبيعة، ولا يمكن أن ترعوى، ويصلح حالها، مهما امتد بها العمر، وعاشت من الأيام، لكنها ستحملها إلى السماء لأجل خاطر محروسة، الملائكية الروح، الشيطانية الوجه، الطاهرة النفس، والجسد، التى عمدت بدموع آلامها وعذاباتها الكثيرة، كقديسة حقة لا يمكن بتبجيلها، حقا إلا فى السماء، وعزيزة لا تريد حرمانها وإبعادها عن الصدر الحنون الوحيد، المحب لها فى هذه الدنيا، وهو صدر صفية، التى لا تمانع عزيزة فى إعطائها فرصة أخيرة، فربما -لو صعدت إلى السماء- تطهرت من شرورها، ومحت الحياة الملائكية، التى سوف تحياها هناك مع جماعة نساء العربة الذهبية، ما لطخته أيامها الدنيوية فى نفسها، فهى

على أية حال، وكما أثبتت تجربتها مع محروسة، لا تخلو من خير، وقلبها ليس بكامله بلون السواد، فهناك مناطق طيبة، مضيئة فيه قد تمتد، وتغمره كله بنورها لو سنحت لها الفرصة، وتبسمت الظروف غير أن الأيام، ضنت على عزيزة، بأمنية صغيرة كهذه الأمنية، فبعد مرور حوالى أسبوعين على يوم قناع العسل الأبيض، وجدت صفية فى فراشها عند الصباح راقدة رقدة الموت الأخيرة، بينما كانت تحملق بعينها الزجاجية حملقة شعرت معها كل اللواتى لاحظنها، من السجينات الملتفات حول الجسد الساجى، وكأنها صادرة عن عين حقيقية، تتطلع بحزن وأسى، للقطعة السماوية الزرقاء، التى تسمح برؤيتها فتحة شباك السجن المسيج، الموضوع بالقرب منه سريرها، أما يداها الماهرتان، اللتان طالما سرقتا بخفة، ومهارة، فقد كانتا تقبضان بشدة على صورة ولديها الموضوعة على صدرها. وهما يبتسمان بسعادة من لا يخاف المستقبل.

كانت ذات مرة زنوبيا

تحظى الدكتورة بهيجة عبد الحق باحترام نادر- مفتقد عادة- من جميع الأطراف فى سجن النساء، بما فيهم إدارة السجن ذاتها، التى تقابل بحذر، وخوف، وإذعان من قبل السجينات، اللواتى يتجنبن، قدر الإمكان، الاحتكاك بها، فلا يتعاملن معها إلا فى أضيق الحدود، محافظات بذلك على تقليد مصرى قديم، هو أن يكون الحكام فى جانب، والمحكومون فى جانب آخر، تمثلاً لدرس تاريخى، مدفوع الثمن، دماءً وأرواحاً، مرات ومرات، إبتداء بعصر بناة الأهرام، وماتلاه من عصور الفوضى، التى سادت زمن الأسرة السادسة، والأسرات الأخرى، المضمحلة بفعل نتائج الاستبداد الفرعونى، والقهر القائم على الإصطفاء والتمييز بين البشر، مروراً بفترات الفرس، والبطالمة، والرومان، والعرب، والمماليك، والترك، والفرنسيين والانجليز، وانتهاء بانتفاضة الجوعى فى شتاء ١٩٧٧. هذا الدرس، الذى يفيد أن كل تذمر، أو احتجاج، مقدر له البطش، ومصيره الفشل الأكيد، إذا لم يكن من القوة والجبروت بما يكفى لمواجهة الحاكمين إلى حد القضاء على سلطتهم، والحلول محلها، وهو الدرس الذى أثبت صحته فشل كل الذين لم يستوعبوه فظهروا بمظهر البطل، المثالى المأساوى، كالفرعون الفيلسوف إخناتون، وهمام السوهاجى، الذى انتهت أحلامه فى الاستقلال بتجريدة مملوكية انقضَّت عليه من مركز الحكم فى

القاهرة، وطالته في عقر داره بالصعيد.

لا يعود احترام بهيجة عبد الحق، إلى أنها شابة طيبة مهذبة، تنتمي إلى عالم البراءة، وقلة الحيلة، أكثر مما تنتمي إلى عالم الخبث، وطاحونة الصراع، العمال بكل الوسائل الممكنة في دنيا البشر، لكنه يعود أساساً، إلى كونها طبيبة، تحترم مثلما يحترم أي شخص بمجرد التحاقه بكلية الطب في بلد ارتبط فيه الطب بالحكمة، تاريخياً، غالبية سكانه من فقراء الفلاحين، الذين يرتفعون بالأطباء إلى مصاف الأنبياء المخلصين، ليس لأرواحهم من عذاباتها، التي قلما يلتفت إليها، ولكن لأجسادهم من آلامها وأمراضها المزمنة، التي تبدو وكأنها واقع مقدر لهم سلفاً. لم تكن تهمة بهيجة- من زاوية نظر السجينات- مخلة بالشرف أو الأخلاق، فتستحق الحبس بسببها، حتى لو كانت تسببت، فعلاً، في وفاة طفل صغير، لم يتجاوز التاسعة من عمره، إذ أخطأت في تخديره لإجراء جراحة اللوزتين له بأحد المستشفيات الخاصة، فوفاة الأطفال أمر شائع كثيراً، لا يختلف عن نفوق الكتاكيت، وصغار الفراخ، بل إنه يحدث يومياً في الريف، والمدينة، لهذا فإن المسألة في رأيهن يجب أن توضع في حجمها الطبيعي، دون تهويل كتهويل الحكومة لما حصل مع بهيجة عبد الحق، فكل امرأة لم يحرمها الله من نعمة الخصب والإنجاب، تستطيع، بسرعة، تعويض كل طفل مفقود، سواء أكان ذلك بسبب خطأ في عملية جراحية، أو بسبب الجفاف، أو النزلات المعوية، أو الحميات الفولكلورية، المنتشرة كنتيجة لعدم توفير المياه الصالحة للشرب، وسوء الصرف الصحي، وللدور الرمزي لوزارة الصحة في الأرياف، ولعل هذا يفسر كيف أننا كشعب عشنا- والحمد لله- سبعة آلاف سنة، ولم نزل، دون أن نفنى، رغم البطش والعسف، وكل الاحتلالات، والطواعين، وجفاف النيل والأطفال، والمجاعات التي بلغت أوجها في الشدة المستنصرية.

لم تكن سنوات الحكم القليلة، التي لم تتجاوز الثلاثة، والتي حكمت بها

المحكمة على بهيجة عبد الحق، أو الاحترام الكبير، الذى تتمتع به فى السجن، أو التسهيلات الكثيرة التى تحصل عليها من السجينات، الحريصات على راحتها وخدمتها، بسبب رعايتها الصحية، ونصائحها الطبية لهن، لتخفف من وطأة شعورها بالمرارة، والحقد على الناس، والحياة، والدنيا كلها، فهى تعيش كل لحظة من لحظات أيامها فى السجن، تتجرع الكراهية، التى تحملها، للحياة، وتجعلها تفكر فى الانتحار دوماً، دون أن تساعدها شجاعتها على تنفيذه فعلاً، لذلك فهى تكتفى بقضم أظافرها، طوال الوقت، إلى حد تجور به على الجلد المحيط بها، فيبدو فى حالة تآكل واهتراء غير مفهوم لمن يراه، ولا تكف عن العبث بخصلات شعرها، فى حركات عصبية، قلقة، تواكب نظرات عينيها، الحزينة، الساهمة المحبطة، بينما معدتها تجارى، على نحو ممتاز، شعورها المستفز، بحركة لا إرادية، دؤوبة على إفراز حامض الإيدروكلوريك، مما بشر بحدوث مبادىء التهاب بها، وقرحة سوف تحتل موقعها على جدران غشائها المبطن، بعد سنوات قليلة.

كانت بهيجة من النمط الذى يتمنى أن تمنحه الحياة الكثير مما تجود به على غيرها من الناس، لأنها- وفقاً لرأيها، والحقيقة أيضاً- تمتلك قدرات، وإمكانيات تستحق عليها جانباً من حب الدنيا، التى لا تبخل على كثير من غيرها به، وذلك أبسط قواعد العدل، الذى لم تتوقف بهيجة، رغم ذكائها الشديد، مرة لتفكر فى أنه لفظة مطاطة، تشكلت بأشكال عديدة، منذ بلورها حمورابى فى تشريع تمت سرقته بعد ذلك ليصبح غير أرضى. وربما فسر ذلك جانباً من جوانب شخصية بهيجة، ذات الطابع المأساوى، فى ساحة الحياة، فقد كانت، ومنذ أن وعت ذاتها فى الدنيا حريصة على أن تكون النموذج الأدق للمثل الأفضل، فى رأسها، للكائن الحى، حتى يشملها العدل برعايته، وتبقى دائماً فى خانة التفضيل، وقد استدعى ذلك منها أن تبذل، وعلى نحو دائم، جهداً كبيراً لتكون مختلفة، متجاوزة كل

المحيط، الذى يحاصرها، ويملى عليها شروطه المسبقة، فاستطاعت فى البداية أن تقتنص فرصة دخول المدرسة، وهى الفرصة التى لم تتح لشقيقتين لها، كانتا قد سبقتاها إلى الحياة، فقنن مصيرهما، أن تكونا، وإلى الأبد، فى العالم الإجتماعى السفلى، وقد تبدت براعتها بالاقتناص فى قدرتها المدهشة على استيعاب، وتحصيل دروسها، رغم مريلة مصنوعة من تيل نادية الخفيف، كانت ترتديها فى عز الشتاء، فوق جلابية من الكستور العادى، متخلفة عن إحدى أختيها الكبيرتين، بعد أن يأبى جسدها النامى الدخول فيها، ورغم الجوع المزمن، الذى لم يقمع أبداً، بسبب حصول معدتها على حصة يسيرة من طعام لم يكن يتوفر بنوعيات، أو كميات، كافية، بسبب دخل الآب المحدود، ولم تقف الوطوية القارسة، التى تطرد الدم من أطرافها عندما تنحنى على أرضية الحجرة، التى لا يغطيها إلا الحصير، لتكتب واجباتها المدرسية بكسرة قلم رصاص، ولا الالتهاب الخفيف بفروة رأسها بسبب الكيروسين، الذى تستعمله أمها لتدليكه به تجنباً للحشرات، عائقاً يحول بين بهيجة وبين الأولية الدائمة فى الدراسة، منذ أن ولجت عالم المدرسة السحرى، الذى فتحت أبوابه العجيبة بيديها على مصاريعها، فكانت الأولى فى السنة الأولى، والثانية، والثالثة، حتى بلغت نهاية المرحلة الثانوية.

كانت بهيجة محظوظة، لأنها تعلمت فى ذلك الزمن المخطوف من تاريخنا البائس، الذى احتفظ دائماً، منذ زمن الكهانة الأولى، بامتياز التعليم لقلة اجتماعية عليا، كانت تعيد إنتاج سيادتها بوسائل مختلفة منها العلم فى ذلك الزمن، المخطوف، شاركت بهيجة بنت الخفير، ابنة أى وزير، المقعد المدرسى نفسه، لتحصل كل منهما على الجرعات التعليمية نفسها، صحيح أن العدالة الظاهرية فى مجانية التعليم كانت تنطوى على كثير من التضليل والكذب، لأن ابنة الخفير ما كانت يوماً من الأيام، كبنت الوزير، فهى لم تأكل أبداً طعاماً من النوع نفسه، ولا باتت مثلها على فراش ناعم

وثير، بأى حال من الأحوال، بل ولم تحظ بامتياز الحصول على دروس خصوصية مدفوعة الأجر، من مدرسى المدرسة، التي تتعلمان فيها، لكن الباب المفتوح للتنافس العلمي، وبذل جهود مضاعفة، وشحذ قدرات عقلية كبيرة، ثم الدأب المتحدى للحصول على أفضل مكانة دراسية، أتاحا لبنت عبد الحق، الخفير، أن تفرض نفسها، وتبقى فى موقع الأولية بالنسبة لجميع طالبات مدرستها الثانوية، بما فيهن بنت الوزير، أيضاً، وهكذا التحقت بهيجة بكلية الطب، وهذا ما عنى إنتقالة نوعية جديدة فى حياتها، ودخولها مرحلة صعبة من مراحل الصراع، الذى يؤججه باعث داخلى خفى لدى بهيجة، إضافة إلى عوامله الظاهرية، وهو الباعث المرتبط بالرغبة فى تحقيق حلم الأب، الذى كان يعمل خفيراً بإحدى شركات الأدوية، ويعتبر الأطباء، بحكم الظروف، مثله الأعلى فى الحياة، إذ كان يسد العجز المزمن فى ميزانيته الأسرية، عن طريق ممارسة هواية مفيدة تتمثل فى إعطاء حقن بالعضل والوريد مقابل مبالغ نقدية صغيرة، لمرضى حيه، الذين لا يقوون على الانتقال إلى الصيدليات، أو الحصول على ممرضين ليليين للقيام بذلك، وكان عبد الحق يسد بذلك بعض أوجه الإنفاق العائلى، المتزايد، الذى كان التضخم المالى بسبب السياسات الاقتصادية الفاشلة للدولة، يجعله فى تزايد مستمر.

لم توات ذلك الخفير الحالم الفرصة لرؤية حلمه الطبى مجسداً فى شخص ابنته الذكية، فلقد مات، فور حصولها على الثانوية العامة، بسرطان المثانة نتيجة لبلهارسيا قديمة مزمنة، مما جعل بهيجة تجدد عهدها السرى، الذى قطعته على نفسها، للأب، عندما كانت تزوره فى قبره كل سنة عند حلول ذكراه، فتقرأ له الفاتحة ثم سورة "قل هو الله أحد" مع أمها وإخوتها، أن تكون الأولى دائماً، وقد كانت تفعل ذلك وهى تذرف بعضاً من دموع الاشتياق والذكرى، وتضع سعفاً أخضر، وإقحوانات صفراء على قبره، واعدة إياه بمزيد من التفوق فى العام الدراسى المقبل،

رغم معاناتها القظيعة، التى تجعلها وكأنها جندى يصبر على ما ابتلى به فى ساحة حرب ضروس، فتكاليف الدراسة كانت باهظة بالنسبة لدخل أسرتها الذى تناقص بسبب وفاة الأب، ثم هناك مشكلة عريها الاجتماعى، الذى بات واضحاً لأنه لم يعد هناك زى مدرسى موحد يخفيه، فلا قبل لها بمواجهة ومجاراة بنات، وأبناء الطبقات العليا والوسطى، الذين يحولون ساحة الجامعة إلى استعراض دائم لأحدث الأزياء والموضات، لكنها رغم الآلام النفسية الكبيرة، التى عانتها، بسبب كل ذلك، استطاعت حفظ ماء الوجه بملابس بسيطة متوافقة الذوق، كانت تحيكها بنفسها، مستفيدة من الإرشادات التى يمكن الحصول عليها من بعض المجلات السيارة، وخصوصاً مجلة حواء، التى كانت المجلة النسائية الوحيدة، التى تحرص بهيجة على شرائها بقروش مقتطعة من نقودها القليلة، وقد أرسلت مرة، للمجلة تسأل عن كيفية التخلص من الهالات المحيطة بعينيها دائماً، فلم تتلق إجابة لضياع خطابها فى البريد، وهكذا، سعت بهيجة لتسير مركبها فى الحياة، رغم الأمواج العاتية التى تصارعها لتصل فى النهاية إلى تحقيق حلم الأب المقبور.

غير أن بهيجة التى كانت الأولى فى الطب، كانت الأخيرة فى الحب، ففى سنتها الجامعية الثالثة، تقرب منها زميل لها، أحبته إلى حد ملاقاته خارج أسوار الجامعة، فى حديقة الحيوانات، والأسماك، وعلى شاطىء النيل، وفى كل الأماكن الأخرى المتاحة لأوقات غرام قصيرة، لا تكلف أكثر من أجرة الإنتقال وتناول مشروب استعمارى، كالكوكاكولا أو البيبسى، مع ساندوتش فول وطعمية، خلال ذلك الزمن الجميل، بذلت بهيجة جهداً صادقاً، ومحاولات جادة لتكون على أجمل صورة ممكنة عند ملاقاة الحبيب- زوج المستقبل فكانت تضع على وجهها أقنعة من عجينة النشا والملح فى محاولة منها لحصار البثور، والتقليل من دهنية بشرتها، وتبيت طوال الليل فى قلق، بسبب لفائف ودبابيس الشعر، التى تضعها فى

رأسها قبل النوم، ضماناً لأن يكون شعرها جميلاً صباح اليوم التالى، وقد ظنت وقتها، أنها بالغة منتهى تحققها فى الحياة، وواصلة إلى كامل مرادها، فلن يمر عامان آخران، إلا وتكون قد تخرجت، وعُينت ضمن طاقم هيئة التدريس، لأنها لا بد وأن تكون الأولى كعادتها، رغم الدروس السرية، التي يقدمها الأساتذة لطلابهم الأغنياء مقابل مبالغ خيالية، يدفعها أهلهم بكامل الرضا، من أموالهم المجلوبة من بلاد النفط، أو المنهوبة من مال الحكومة، والقطاع العام، أو من التجارة فى كل شيء يمكن أن يجلب أكبر ربح فى أقل زمن ممكن، ومع أنها لم تكن لتراهن على تفوق الحبيب عملياً، لأنه كان ينجح بالكاد، إلا أن ذلك لم يمنع تخطيطها للارتباط به، فهو كزوج مقترح، يبدو ملائماً لها من جوانب كثيرة إذ أنه ينتمى لطبقة تعلوها اجتماعياً بعض الشيء، فأبيه من كبار صغار الموظفين فى مصلحة الضرائب، يكفى مرتبه بالكاد أسرته الكبيرة، التى يساهم دخل الأم، من عملها كخياطة، فى الحفاظ على مسيرتها الإقتصادية، مما يعنى أن بهيجة ستبدأ حياتها الزوجية مع حبيبها درجة درجة، ليبنيا، من الصفر، قفصاً زوجياً، يجمعان قضبانه قضيباً قضيباً بكدهما وعرقهما المشترك، كما أنه طبيب مثلها، وهذه مسألة بالغة الأهمية، لأن من الأفضل التزوج برجل لا تقل شهاداته الجامعية عن شهاداتها أبداً.

بعد عامين من الآمال، والأحلام، والغرام المشبوب، اكتشفت بهيجة أنها كانت تقبض بكفيها على الريح، فمن كفها اليمنى طار الحبيب الزوج، الذى طالما ظننته دعامة من دعامات تحققها الوشيك، وهجرها إلى زميلة أخرى، تخسر أمامها بهيجة بالضربة القاضية فى مجال الحسن النسائى، إذ كانت الأخرى تدعك بفلوس أبيها، صاحب أحد محلات الأحذية الشهيرة بالمدينة، فانوس وسائل التجميل السحرية، التى حولت شعرها الخشن باهت اللون، إلى خيوط من الحرير الذهبى، المحيط بوجهها الذى يساهم مساهمات دائمة فى دوران عجلات معامل ماكس فاكتور، وهيلينا

روبنشتاين، وياردلي، ولانكوم، وغيرها من قلاع صناعة التجميل فى العالم، بالإضافة إلى ملابسها الأنيقة، المنتقاه بحرية الفلوس، والتى كانت تتجدد على جسدها، تجدد أيام الأسبوع الدراسى، والأكثر من كل ذلك أن تلك الخاطفة، لبهجة قلب بهيجة، أعطته ما لم تمنحه بهيجة له أبداً، إذ آثرت الاحتفاظ بدليل عفتها وطهارتها حتى ساعة الصفر، الموعودة، ليلة زفافها. أما كفها اليسرى فأصبحت خاوية أيضاً، لأنها اكتشفت أن الأولية، وإن كانت مقبولة فى مرحلة الدراسة الابتدائية، أو الإعدادية، أو الثانوية، أو حتى طوال سنوات الدراسة الجامعية، فإنها لا تمنح إلا بحسابات دقيقة لمن باتوا على عتبة الحياة العملية، فطغاة الطب، الذين ظلوا يطرحون شعارهم القديم، ذا العين المثلثة، خلال الزمن الناصرى، والمقصود به عربة فى الريف، وعزبة، وعيادة، وهو الشعار الذى كان يعتبر منتهى أمل كل طبيب ناجح، طوروا الشعار على نحو مذهل بعد ذلك، زمن الإنفتاح الإقتصادى، ليصل إلى حد المستشفيات السياحية الضخمة، التى يموت على أبوابها كل مريض لا يدفع مصاريف علاجه الخيالية مقدماً، هؤلاء الطغاة، لم يكونوا ليسمحوا أبداً لأمثال بهيجة عبد الحق، ابنة خفير شركة الأدوية، أن تشاركهم قدس الأقداس، فتزاملهم فى هيئة التدريس، التى باتت معملاً لصنع نجوم الطب اللامعة، الجاذبة لأموال النفط من السعودية والخليج، والعمولات والسمسرة، وإذا كان هؤلاء الطغاة قد طيروا مجدى يعقوب إلى لندن، ليظل بنبوغه وتفوقه شاهداً حياً على صحة المقولة القديمة "لا كرامة لنبى فى وطنه"، فإنهم هووا ببهيجة عبد الحق من عرش أحلامها المحلقة، إلى أوضاع مجتمعنا المرة، وأعطوها تقدير جيد، لا غير، بعد أن خسفوا بها الأرض فى الامتحانات الشفوية، التى لم تعط خلالها الفرصة لتجيب، وهى التى كانت وقتها تتلجلج فى الإجابة وتتردد، بسبب حالتها النفسية، المتردية لفقدان الحبيب، وضعف ثقتها بنفسها وهى ترتدى ملابس متواضعة كيفما أتفق، وشعرها ملموم كعكةً خلف

رأسها، فى مواجهة سادة يرتدون بذات وربطات عنق فاخرة، ولا يدخنون إلا الغليون والسجائر الأجنبية، المختلطة روائح دخانها، بروائح عطورهم ذات الماركات الشهيرة، المجلوبة من عواصم العالم الأول.

هكذا أصبحت بهيجة عبد الحق طبيبة تنتمى إلى آلاف الأطباء المنسيين فى مستشفيات وزارة الصحة، المحتاجة إلى مستشفى ضخم لعلاجها من أمراضها المزمنة، وتحويلها إلى جهاز قادر على انتشال المجتمع من أمراضه، التى تأكل أعمار الناس طوال الوقت.

فى السنوات التالية للتخرج، اكتشفت بهيجة حقيقة مكانتها الإجتماعية المتواضعة، كطبيبة قيمت الدولة أهميتها بمبلغ مائة وعشرين جنيهاً، فقط لا غير، أى ما يساوى ثمن قطعة، أو قطعتين من الثياب، اللازمة للذهاب للعمل، أو ثمن أربعة أزواج من الأحذية، التى تنتهى قيمتها الإستعمالية بعد شهرين، أو ثلاثة من الاستخدام، قد تمتد شهراً آخر، إذا ما أجريت لها عمليات إصلاح، وترقيع للكعب والنعل، عند جزماتي مخلص من ضرورة شراء حذاء آخر، وبالأحرى، فإن راتبها حينذاك كطبيبة، يوازى صبغ شعر رأس فارغ لسيدة تنتمى للشريحة العليا من الطبقة الوسطى، المتآكلة تدريجياً فى ظل المتغيرات الاجتماعية الجديدة، التى لم يعد العلم وسيلة من وسائل التحقق فيها، بعد أن قصف الغرب الرقبة المشرئبة اللحاق به، بعد سقوط الزمن الناصرى، وضياع ذكريات عيد العلم من الذاكرة الاجتماعية المثقوبة، عندما كان متفوقو المدارس والمعاهد والجامعات يمنحون من عبد الناصر جوائز، ليس بصفته رئيساً للجمهورية فحسب، ولكن باعتباره زعيماً مخلصاً، تعقد عليه آمال جملة شعوب، تعيش بين خليج النفط الأسود، ومحيط تقبع على طرفه دوله، يُحرم الفقراء فيها حتى من حبات فطر برى، يلتقط من الغابات، يقيمون بها أودهم.

وهكذا بقيت بهيجة، اجتماعياً فى مكانها محلك سر، رغم سنوات الشقاء، والكد، وحفر الصخر بالأظافر، للتحرك من ذلك المكان، مما جعلها

تتساءل دوماً عن حقيقة كينونتها، وعبثية وجودها الإجتماعى، وهو التساؤل الذى أدى فى النهاية إلى إصابتها بدرجة من الفصام، أو الجنون الخفيف، الذى لا يلحظ، لأنها باتت واقعة فى تناقضات حادة، ناتجة عن كونها تُحترم ولا تُقدر، وبالطبع لم يلحظ أحد فصام بهيجة الخفيف، لأنه من النوع المصاب به ملايين غيرها، فهى تتصرف أثناء العمل بوقار وجدية لازمين للتعامل مع المرضى، وطاقم الخدمات الطبية المعاون لها، بل وتتعامل بخشونة أحياناً، فتنهر الممرضات، وتقسو على بعض المرضى ممن لا يلتزمون بتعليماتها فى العلاج، لكنها كانت بمجرد أن تغادر المستشفى، وتسير فى الطريق، تشعر بالدونية، والضعة الشديدة، إذ ترى السيارات الفخمة، السارحة فى شوارع المدينة، والتى تقودها نساء فى قمة التألق، والتأنق، وكأنهن ممثلات فى السينما، وكان يقوى ذلك الشعور بداخلها، إذا ما توقفت أمام المحلات، متطلعة فى أسعار السلع والأشياء، التى تحتاج الكثير منها، وعندما تصل إلى البيت، تتحول إلى كائن آخر غير الذى كانته أثناء العمل، إذ تبدو متوافقة جداً مع الأثاث المنزلى المتواضع، القديم، وطعام الغذاء الفقير، الذى تقدمه لها أمها، دون تنويع عادة، ومع كل تفاصيل حياتها، التى لم تتغير كثيراً منذ كانت طفلة.

لقد كان مبعث فصام بهيجة غير الملحوظ، فى حقيقة الأمر، هو بحثها الدائب عن موقعها فى الهرم السرى الصغير، الذى تحمله بداخلها ككل الآخرين، والذى هو للفرد بمثابة بوصلة، تحدد كيفية رؤيته وتعامله مع من حوله، فيتطلع بتقدير واحترام لكل من هو أعلى منه فى الهرم، ويحتقر كل من هو دونه فيه، ولعل هذا يفسر كون مصر البلد الأكثر ابتكاراً لألفاظ التبجيل والإحترام، والمجاملات اللفظية، المعبرة عن حقيقة الأهرامات السرية الصغيرة، الكامنة فى داخل أبنائها، وذلك باعتبارها البلد الذى عشق الأهرام منذ سنوات موغلة فى الزمان، وقد حارت بهيجة، إذ وجدت تناقضاً فى موقعها الهرمى يختلف فى ساعات عملها عنه فى بقية أوقات

يومها، بالإضافة إلى ضآلة راتبها، الذى لم يسعفها كثيراً فى تلبية حاجاتها اليومية البسيطة، لتعيش على نحو أفضل مما كانت عليه أيام كفاحها الدراسى، وذلك بسبب النشاط الدؤوب للأسعار وقفزاتها العالية، وقد أيقنت بمرور الأيام أن مسألة زواجها باتت مشكلة حقيقية لم تتنبه إليها من قبل، فرغم أنها مقبولة الشكل، من النوع الذى يقبل عليه الرجال دون حماس، لكنهم لا ينصرفون عنه تماماً، إلا أن عملها فى وزارة الصحة، قلص فرصة إحتمال التقائها بشخص مناسب للزواج، فهى محاطة فى مستشفى الوزارة، الذى أصبح كل محيطها الاجتماعى تقريباً، بعدد من الرجال، إما أن يكونوا قد تزوجوا فعلاً لأنهم كبار فى السن، بقوا فى الوزارة لتواضع طموحاتهم، فالأذكياء من الأطباء لا يطيلون عملهم فى وزارة الصحة، فهم يهجرونها إلى أماكن عمل بديلة فى القطاع الخاص تتيح لهم دخلاً معقولاً، أو إلى القطاع العام ليحصلوا على خبرة عملية تؤهلهم للانطلاق إلى مجال مهنى أرحب، أو أن يكونوا شباناً من أولئك الذين يحصلون على رواتب محدودة، لا تجعلهم يحاولون الاقتراب من عالم الزواج، مكتفين بمغامرات عاطفية عابرة، مع ممرضات المستشفى على الأغلب، أو مع أنماط من النساء مستوعبات لشروط مثل هذا النوع من الألعاب، وهى الأنماط التى لم تكن بهيجة عبد الحق ولن تكون منها أبداً.

الجانب الأخر من المشكلة، تمثل فى الوضيعة الأسرية لبهيجة، فإخوتها الأربعة، الذين يكبرونها، لم يدخل بعضهم إلى المدارس أصلاً، كالبنتين الكبيرتين، فكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن تزوجت إحداهما من عامل فى مصلحة المجارى، أما الأخرى فقد تزوجت بصعوبة شديدة لأنها عرجاء بسبب شلل الأطفال، الذى أصابها قبل أن تكون الحملات الحكومية للوقاية منه قد شاعت، وكان الرجل الذى تزوجها، لأنه أرمل عائل لثلاثة أطفال، يعمل على نحو غير منتظم، ككاتب عمومى أمام محاكم الدولة، أما

الأخ الذى يكبرها مباشرة فقد حصل على شهادة إتمام الدراسة الإعدادية، بعد رسوب متكرر فيها، لأنه كان يفضل لعب الكرة الشراب فى الشارع، على حفظ أسباب الحملة الفرنسية على مصر، ولما حاز على تلك الدرجة العلمية الرفيعة، من وجهة نظره، تطوع فى الجيش، ضامناً بذلك الإفلات من بطالة محققة، إذا ما نوى إتمام تعليمه، بالإضافة إلى تمتعه بامتياز الانخراط فى مؤسسة من مؤسسات السلطة. الأخ الآخر، ولد من النوع المنغولى، وقد عاش حتى بلغ التاسعة عشرة من عمره ثم توفاه الله، وهو لا يحسب إلا من الناحية الكمية بالنسبة لمشكلة بهيجة الزواجية، التى وضح تعقدها بمرور الأيام، لأن الأطباء ومن هم على شاكلتهم الاجتماعية، والذين هم على استعداد للزواج، لا يجدون فيها ما يغريهم كطرف زيجة، بل بالعكس فإن الأوضاع الاجتماعية غير المرموقة الخاصة بأسرتها، كانت ترجح كفة عدم الإقدام على الإرتباط بها، فما المغرى فى تأسيس شركة زوجية مع واحدة لا مال ولا جمال، ولا أسرة مرموقة لها، إذا كان الحديث النبوى الشريف يقول: "تخطب المرأة لأربع: لمالها، وجمالها وحسبها ودينها، ففز بذات الدين تربت يداك"، وهذا الزمن ليس زمن أولئك الذين يرغبون الفوز بذات الدين، اللهم إلا إذا كانوا من الجماعات الإسلامية، وبهيجة لا يمكن أن تلفت نظر أحد ممن ينتمون إلى جماعة من هذه الجماعات، فهى لا تتحجب، وليست من اللواتى يغالين فى الإهتمام بالأمور الدينية، رغم أنها كانت تصلى دائماً، بل وكانت تعتبر الصلاة معينها الكبير، لتحقيق النجاح المنشود، طوال سنوات دراستها.

حاول بعض أقرباء بهيجة وجيرانها المتعاطفين مع قضيتها أن يمدوها بخطّاب، لكن محيطهم الإجتماعى لم يسمح إلا برجال أقل من أملها، وطموحها فى هذا الجانب، فبعضهم لم يحصل إلا على شهادات متوسطة، ووظائف حكومية متواضعة، والبعض الآخر كان مستواه التعليمى، محدوداً جداً، رغم دخله المالى المرتفع، مثل تاجر الأدوات المنزلية الذى تقدم لها

وكان تعليمه متوقفاً فى المرحلة الإبتدائية، بل إنه لم يكن يجيد القراءة والكتابة، رغم بقائه فى المدرسة أربع سنوات، مما اضطره لعمل خاتم نحاس ليوقع به على ما يلزمه من معاملات رسمية، وخصوصاً معاملات مصلحةالضرائب.

مرة واحدة، كادت أن تتزوج، عندما تقدم لها صاحب صيدلية فى الحى الذى تقطنه، توفيت زوجته حديثاً تاركة له أربع أبناء، لكنها استبعدت الفكرة تماماً عندما أكتشفت أن أكبرهم يقاربها فى العمر.

وهكذا قطعت بهيجة أملها فى الزواج، وعاشت على أمل آخر، أن تتاح لها فى يوم من الأيام فرصة السفر إلى بلد من بلاد البترول، فتعمل مثل أولئك الذين يسافرون للعمل به، عندئذ سوف تحقق بضربة قصيرة محدودة، أملها الدائم فى الصعود إلى أعلى، والإنتقال إلى مستوى حياتى آخر يختلف عن ذلك الذى عاشت فيه وما تزال، عندها، ربما أقبل عليها الرجال، وربما واتتها فرصة اختيار زيجة ملائمة، لا تقف الفلوس عقبة فى سبيلها، من أحد زملائها الأطباء، محدودى الدخل مثلها، الذين يمكن أن تصادفهم خلال عملها فى المستشفى.

لكن بدلاً من الانتقال إلى بلاد تركب الفولفو والمرسيدس، ويتجول أهلها بالطائرات فى جميع أنحاء العالم وكأنهم يتجولون بالأتوبيسات، أنتقلت بهيجة إلى مكان، ربما لم تفكر يوماً أنه موجود على خريطة الوطن أصلاً، هو سجن النساء، الذى باتت واحدة من نزيلاته.

كانت بهيجة قبل ذلك، قد عملت فى إحدى العيادات الطبية الصغيرة، التى انتشرت انتشاراً واسعاً، خصوصاً فى حزام المدن العشوائية الجديدة، الذى يطوق مدينة القاهرة وضواحيها القديمة، والذى نما نمواً سرطانياً ليستوعب الهجرة اليومية الدائبة، من الريف إلى المدينة، بحثاً عن شروط أفضل للحياة، وقد بدأت ذلك بعد أن تخصصت كطبيبة تخدير، وهو التخصص الذى فرضته عليها ظروف عملها فى وزارة الصحة، وكان

ذلك العمل الإضافى، إلى جانب عملها الثابت الصباحى فى الوزارة يدر عليها دخلاً بسيطاً بين الحين والآخر، عندما يتوجب وجودها لإجراء بعض العمليات الجراحية الصغيرة فى هذه العيادة، مما أتاح لها فرصة مواجهة متطلبات الحياة كل أيام الشهر، بينما كانت تضطر قبل ذلك لاستدانة بعض المبالغ النقدية اليسيرة من أختيها وزوجيهما، وتقوم بردها بمجرد حصولها على راتب الشهر الجديد.

غير أنها ولسوء حظها، أعطت جرعة مخدر متزايدة لطفل صغير، أدت إلى وفاته أثناء إجراء الجراحة، مما حرك إتهاماً قضائياً ضدها، وضد الطبيب صاحب العيادة من قبل أهل الطفل المتوفى، أنتهى إلى الحكم عليها بالسجن ثلاث سنوات، وتغريم الطبيب بضعة آلاف من الجنيهات، على أساس إهمالها الجسيم فى العمل، الذى أودى بحياة الطفل.

بعد شهور طويلة من الوحدة والعذاب وحالة الإكتئاب، التى عاشتها بهيجة فى السجن، بسبب عدم قدرتها المستمرة على التكيف، فى ذلك العالم الوحشى الغريب عنها، والذى ما كانت تتصور وجوده أبداً، تعرفت بهيجة على مدام زينب، عندما نقلوها إلى عنبر آخر جديد، ومدام زينب هو الإسم الذى تصر جميع السجينات على استخدامه عند تعاملهن مع زينب منصور، بل وتستخدمه بعض السجانات أيضاً، لأن زينب منصور، كانت تجبر الجميع على تقديرها واحترامها، ومعاملتها معاملة رقيقة من نوع خاص، فهى أولاً أمرأة جميلة إلى حد كبير، ذات صوت ناعم خفيض وعينين ناعستين لا يمل النظر فيهما لإتساعهما، وصفاء لونهما اللوزى الفاتح، الذى يتناسب مع لون بشرتها البيضاء وشعرها الأسود، الذى تقصه قصيراً عند حد القفا من الخلف وبذؤابات متناثرة ناعمة على الجبهة والأذنين، وهى ذات يد طولى فى السجن، بسبب عائلتها الأريستقراطية العريقة، التى ينتشر أفرادها فى مواقع مرموقة وهامة بأجهزة الدولة، مما يجعلها تحظى بمعاملة جيدة، من إدارة السجن، ولا

تتعرض لمضايقات وسخافات، كتلك التى تنالها الآخريات اللواتى لا حماية لهن، كما أنها، إضافة إلى ذلك، امرأة غنية، تشمل أفضالها عدداً لا بأس به من السجينات، خصوصاً أولئك التى يقمن على خدمتها، فيكنسن ويمسحن وينظفن مكانها فى العنبر، بل ويغسلن ملابسها، ويعدون الطعام لها، الأهم من ذلك، والذى حبب الجميع فيها، هو تواضعها وتسامحها الدائم فى تعاملها مع كل المحيطين بها، مما جعلها فى النهاية الحكم الذى يؤخذ برأيه فى فض المنازعات، التى تنشب بين السجينات، وصاحبة المشورة، لمن لديها مشكلة، والملجأ لقضاء الحاجات داخل السجن، وخارجة استناداً إلى نفوذها، المستمد من نفوذ اقربائها.

جاءت زينب منصور إلى السجن، لأنها قتلت عم أولادها القصر، وقد فعلت ذلك ببساطة شديدة لا يقوى عليها إلا قاتل متمرس محترف، ولا يتصور أحد أبداً أن تقوم به تلك المرأة القصيرة، الجميلة، الرقيقة رقة البللور، الذى يخشى عليه من الكسر، لكن زينب منصور، كانت الوحيدة المدركة أنها فعلت ذلك ببساطة وهدوء، بل وأنها يمكن أن تفعله مرة ثانية وثالثة ورابعة، لو أضطرت إلى ذلك، ووضعتها الظروف فى نفس الموقف مرة أخرى.

عاشت زينب قبل ذلك، حياة عريضة مترعة بالإثارة والأفراح، تصلح لأن تكون موضوعاً لأحد أفلام السينما، ما عدا السينما المصرية بالطبع، كيلا يجرى ابتذاله وتشويهه. فزينب هى الإبنة الوحيدة لإقطاعى سابق كبير، تنحدر أصوله من أسرة مملوكية امتزجت بدم مصرى، عبر زيجة مرموقة لأحد رجالها من بنت واحد من مشايخ الأزهر، أيام كان الأزهر سلطة دينية ودنيوية أيضاً، وقد تقلصت ثروة الأب بعد ثورة ١٩٥٢ وصدور قانون الإصلاح الزراعى، من حيث الأملاك الزراعية، لكنها تمددت فى مجال تجارة الخردة، تمدداً كبيراً، وصل إلى حد أصبح معه واحداً من أكبر ملوك الخردة فى مصر.

خلال ذلك كانت زينب شابة، يشار لها بالبنان فى المجتمعات والمنتديات القاهرية الصاخبة، ونجمة الحضور في عروض الأزياء بملابسها الغرائبية المجلوبة من أشهر بيوتات الأزياء الباريسية، والتى تفوق غرابة ملابس العارضات أنفسهن، وقد ظلت صانعة لأشهر قصص الغرام المتداولة فى سهرات النميمة، وهى القصص التى كان يتخلف عنها، عادة، عشاق ضائعون بلا أمل فى وصل ما انقطع مع تلك المرأة الفاتنة، التى كانت تنتقل من قصة لأخرى ببراعة شهرزاد نفسها فى قص حكايات ألف ليلة وليلة، وبما أنه لا يفل الحديد إلا الحديد، فإن زينب وقعت فى الغرام ذات مرة، أثناء رحلة من رحلاتها المتكررة إلى العالم الغربى، ولم يكن المغرم غير قائد الطائرة، التى أقلتها نفسه، وهو فاتن نساء خبير لم تتسع دائرة ضحايا غرامه منذ اللحظة الأولى كثيراً، لأنه أكتفى بوظيفته السماوية فقط، مؤثراً عدم التمثيل فى السينما كعمر الشريف أو عبد الحليم حافظ.

لم يكن الطيار الوسيم أقل شأناً عن زينب فى مجال الغنى والجاه، فقد كان ينتمى إلى عائلة من أصول إيرانية استقرت بالقاهرة منذ حوالى مائتى سنة، واشتهرت بصناعة السجاد، لكنه اضطر لتعلم الطيران، لأن مجانية التعليم، دفعت بعشرات المنافسين له فى الثانوية العامة إلى أبواب الجامعة، التى أوصدت فى وجهه، بسبب مجموعه المحدود، وهكذا التحق بمعهد خاص للطيران، اكتسبت من خلاله وظيفة مرموقة فى النهاية كقائد طائرة. لم تمر سنوات على اللقاء الهوائى بينه وبين زينب، إلا وكان أباً لولدين أنجبت كلاً منهما بعد عملية قيصرية وكانا أية فى الحسن، بسبب قوانين الهندسة الوراثية، التى فعلت مفعولها فى الإنتخاب الطبيعى، فاختارت العينين الرائعتين للأم، والجسد السمهرى للأب، وتلك التقاطيع التى لا يختلف على جمالها اثنان، والمنتقاه فى توليف رائع من وجهى كليهما، لكن القدير العليم يشاء أن يطوى صفحة سعادة الزوجين العاشقين، بموت الحبيب فى حادث طيران مأساوى، لتبدأ صفحة جديدة

فى حياة زينب منصور. فالحادث المباغت، الذى لم يمهل الزوجين لتنفيذ خطتهما التى كانا قد رسماها سوياً لحياتهما المشتركة فى السنوات الأخرى المقبلة، والتى تتلخص في استقالة الزوج من عمله ليبقى إلى جانب أسرته، ويؤسس مشروعاً تجارياً بديلاً، لم يقلب حياة تلك الأسرة رأساً على عقب ، ولم يطفىء جذوة الحياة الصاخبة داخل زينب أيضاً، لكنه أحدث تغييراً جذرياً غريباً فى شخصيتها، جعل كل من يعرف زينب قبل ذلك، يؤكد أنها باتت امرأة أخرى، غير التى كانتها تماماً، فقد أصبحت امرأة بلا تأنق، بلا مساحيق وجه، لا تخرج إلا نادراً، وترتدى أبسط الملابس وأقلها إبرازاً لجمالها، كما أنها أصبحت تتعامل مع الناس فى أضيق الحدود، ولا تقبل على المجتمعات، التى ظلت تقبل عليها حتى بعد زواجها من المرحوم الطائر، وفى الحقيقة، غدت نموذجاً مثالياً للمرأة المصرية التى يموت زوجها، فتنقطع انقطاع ناسك فى معبد، لتربية أولادها وإحاطتهم بعطفها ورعايتها على أساس أنهم يتامى، إلا فى حالات استثنائية تشذ عن القاعدة.

كان من الممكن أن تمضى حياة زينب الجديدة الهادئة على خير، دون منغصات أو مضايقات تذكر، إذ أنها ارتضت واقعها الجديد، الذى باتت الأحزان الصامتة، التى طالما تغذت بذكريات الماضى الجميل، رفيقتها فيه، لكن عم الولدين، الذى كان هو الشقيق الوحيد للأخ المتوفى، لم يكن ليترك زينب تعيش حياتها الجديدة، المكرسة لتربية الولدين على أفضل وجه وعلى قدر المستطاع، فراح يدس أنفه فى كثير من أمور حياتها، لا بسبب حرصه على صيرورة مستقبل ابنى أخيه المتوفى، بل لرغبته فى الاستحواذ على ما تركه الأب لهما من ثروة لا بأس بها، تجمعت من جلب بضائع من جميع أنحاء العالم، الذى كان يجوبه فى رحلات عمله، كانت فى الحقيقة بضائع ممنوعة، بسبب الحماية الجمركية، والتشدد الاقتصادى، تجاه بضائع الغرب خلال الفترة الناصرية، وهى البضائع،

التى راكم تهريبها بعض الثروات لدى أصحاب المحلات الصغيرة، المنتشرة في الضواحي الراقية للمدينة، فكانت خميرة لنمو كبير فى الزمن التالى لذلك بعد الانفتاح على الغرب.

فى كل مرة كان العم يحاول فيها فرض وصايته غير القانونية على الأسرة الصغيرة، كانت الأم تقف له بالمرصاد ساعية لإحباط خططه، فقد رفضت كل عروضه الخاصة باستثمار أموال الولدين لقاء أرباح مجزية، كما رفضت كل مشاريعه المقترحة لشراء عقارات، وشقق، تؤجر مفروشة، لأنها لم تكن لتثق فى نواياه أبداً، ولشعورها الدائم بأنه يرغب فى توريطها، فلما فشل فى ذلك، أخذ يتقرب منها، ساعياً لكسب ودها الذى بلغ منتهاه بعرضه الزواج منها، لكنها رفضت باندهاش حقيقي، بالغ، فهى لم تكن تتصور أنه يجرؤ على ذلك وهو يدرك المكانة الكبيرة التى يحتلها زوجها فى قلبها، والحقيقة أنها لم تتصور أبداً أنه لا يدرك هذه المكانة، لكونه من النوع البشرى الذى لا يثمن غالياً مشاعر الحب والعاطفة. ولما لم يجد أمامه حلاً على طريقة دمنة بيدبا الفيلسوف، للوصول إلى الوصاية على الولدين، أخذ يدبر لحيثيات تتيح له الحصول على ذلك عبر القضاء، بعد أن أضيف إلى رغبته فى الظفر بالوصاية شعور بالكراهية تجاه زوجة الأخ المتوفى، التى أهانت كرامته برفضها الزواج منه قائلة له أن ألف رجل لا يمكن أن يعوضوها عن زوجها الحبيب، فأخذ يلاحقها فى البداية بالشائعات، التى تنال من سمعتها وشرفها، لكنها لم تهتم لأن الزمن كفيل بإخماد أية نار لا يغذيها وقود حقيقى، ولأنها أدخلت بعضاً من أقاربها، كأطراف فى المسألة، فهددوه بقطع لسانه إن هو عاد إلى التكلم فى ما يمسها، فالتجأ إلى فكرة جهنمية نبتت فى رأسه بينما كان يشاهد فيلماً مصرياً ليحيى شاهين، سرقت فكرته من رواية مرتفعات ويزرنج لشارلوت برونيتى، وهى أن يقوم بتجميع أدلة تتيح له الحجر على زوجة أخيه الأرملة، فيصبح بذلك الوصى القانونى على

ولديها، على أساس أن أمهما بلا أب أو أم، يمنع وجود أحدهما على قيد الحياة إمكانية حصوله على هذه الوصاية القانونية.

منذ أيام طفولتها الأولى، كانت زينب منصور مولعة بالقطط، ربما لأن أمها كانت مولعة بهم أيضاً، فلقد نشأت زينب فى منزل أبيها الكبير بحى المنيرة، الذى كان من أجمل وأرقى أحياء القاهرة فى ذلك الزمن الماضى، وفيه دائماً قط أو اثنان على الأقل يحظيان باهتمامٍ ورعايةٍ من أمها، لا يقلان عن الاهتمام والرعاية التى يمكن أن يحصل عليها أى طفل صغير، وكان من المناظر المألوفة لديها أن تجد أمها نائمة على السرير تقرأ فى مجلة أو جريدة، بينما يجثم قط ضخم على صدرها، يهرّ بسعادة ورضا، وأنفاسه تقارب وجهها، ولعل زينب اكتسبت من هنا حب تلك الحيوانات الجميلة، الأنانية، التى تتسيد على من يقتنيها وتسخره لخدمة رغباتها، على كل حال، وأياً كانت الدوافع والأسباب، بات لدى زينب، عندما أصبحت شابة تعيش فى منزل أبيها قبل زواجها، كم لا بأس به من القطط، أوقف الأب الثرى خادمة صغيرة من خدمه، الكثيرين، على رعايته، دون أن تقوم بأى عمل آخر.

بعد الزواج، تضاءلت هذه الهواية إلى حد كبير، لأن الزوجة المحبّة، اكتفت بإغداق حنانها على زوجها، وعلى قط واحد أسود من النوع الفارسى ذى الفراء الطويل، لكنها نسيت حكاية القطط تماماً عندما أنجبت ابنها الأول.

لما توفى الزوج، وتجاوز الولدان مرحلة الطفولة الأولى، بقيت الزوجة وحيدة مع ولديها تشعر بالملل فى منزل واسع يتكون من طابقين فى مصر الجديدة، عندئذ انتعشت لديها مرة أخرى هواية تربية القطط، والجديد هنا، أن الولدين أغرما بها أيضاً، فأصبح المنزل يضم خمسة عشر كائناً، منهم دستة، من القطط المتنوعة الأشكال والألوان، لكل واحدة منها اسمها الخاص، وأماكن مخصصة لنومها، وتتمتع جميعاً بالرعاية الصحية

الملائمة، بالإضافة إلى الشرائط الحريرية، والمخملية، والأجراس، والقطع القماشية الجميلة، التى كانت تشترى وتحاك خصيصاً، على نحو يسمح بإدخال أجسادها اللينة فيها، دون مساس بحرية أيديها وأقدامها فى الحركة، وذلك توقياً لبرد الأيام والليالى الشتوية، وقد استلزم كل ذلك إضافة إلى الغذاء والألعاب الظريفة، التى تجعل القطط فى حالة مرح دائم إنفاقاً، وإن ظل محدوداً بالنسبة لدخل الأسرة الميسورة، إلا أنه كان يعنى نوعاً من الخبل والعته، من وجهة نظر العم، المراقب عن كثب لتفاصيل حياة أسرة أخيه الراحل.

من ناحية أخرى، بدت الأرملة، غير طبيعية بالنسبة للعم ذى النزعة العملية جداً، والذى كان يتعامل مع كل ما هو وجدانى فى أضيق الحدود الممكنة، إذ أقبلت بحماس على المشاركة فى حفلات الزار، وهى الحفلات الطقسية الصاخبة، التى انتقلت عدواها من نساء الطبقات الشعبية، إلى نساء الطبقات العليا، بعد انحسار موجة حفلات الجلاليب، والقباقيب، والفرجة الجماعية على أفلام الجنس الفاضحة، بعد هزيمة ١٩٦٧، غير أن المسألة لم تقف عند حد المشاركة فى حفلات الزار هذه، بل امتدت لتصبح عادة تتكرر بين الحين والحين، فى الدار الواسعة لأم الولدين، التى كانت تستمتع كثيراً بالرقص المجنون، وبتحريك أعضاء جسدها العاطلة عن أى عمل، ورغم أن هذا النوع من الحفلات يكون عادة مقصوراً على النساء فقط، ماعدا ورجل أو رجلين من ضاربى الآلات الإيقاعية الشعبية ذات الأصل الأفريقى، هما عادة فوق مستوى الشبهات من زاوية الإحتشام أو، العفة الجسدية، إلا أن العم لم ينظر بعين الرضا أبداً إلى تلك الحفلات المسائية الممتدة حتى وقت متأخر من الليل، وينفق على الحفلة الواحدة منها مبالغ كبيرة، تفوق كثيراً ما ينفق على دستة القطط، بسبب الطلبات والشروط الصعبة، التى تكاد أن تكون مستحيلة أحياناً، والتى يطلبها أولئك الخبراء، المنظمين لتلك الحفلات، والمشرفين على طقوسها، كطلبهم مثلاً

زوجاً من الماعز كامل البياض ما عدا غرة سوداء فى الوجه، أو نقطة بنية فى الذيل، أو طلبهم تجهيز طيور وحيوانات من الصعب الإتيان بها فى بلد يقع على مدار السرطان، وليس على خط الاستواء، ففى إحدى المرات طالبوا الأرملة ببَغاء هندى، ذى ريشات حمراء، وصفراء، يوضع فى قفص على شباك بالحجرة، التى يقام بها الزار، ليظل مشاركاً بتعليقاته طوال الليل، ومردداً مقاطع من الأغنيات السحرية العنيفة التى ينشدونها، وقد استدعى ذلك أن تشترى زينب الببغاء المطلوب من حديقة حيوانات الجيزة بمبلغ باهظ، بعد توسط واحد من أقربائها، كان أحد كبار المديرين لهذه الحديقة، على مدى سنوات.

رغم أن المحكمة، فى جلستها التى عقدتها لمناقشة طلب العم رفع الوصاية من الأم على الولدين، ومنحها له، لم تعتد بوجهات نظر العم، وحججه، عبر محاميه الحاذق، الذى حاول بكل الوسائل إثبات عته الأم، وعدم أهليتها للوصاية على ولديها وإدارة أموالهما، وكان على استعداد لعرض شريط فيديو لها وهى ترقص مترنحة كالسكارى فى إحدى حفلات الزار، الأمر الذى رفضه القاضى، الذى كان يريد أن ينتهى بسرعة، ليذهب إلى مأدبة غداء كان أحد كبار الأطباء قد دعاه إليها، وكان الجوع قد قرصه فعلاً، أما هيئة المحكمة، فارتأت أن حجج العم ضعيفة فى هذا الجانب ولا يعتد بها، لأن كلاً من موضوعى القطط والزار لم يكن بالأمر المستغرب، المعبر عن سلوك شاذ، فى مجتمع ترتع فيه الخرافات، ويتمسك عبر عاداته وتقاليده، بأفكار، لا تعود إلى افريقيا البدائية، ولا إلى القرون الوسطى فقط، ولكن ترجع أيضاً، لعدة آلاف من السنين قبل الميلاد، وقد ساعد محامى الأرملة، الذى لم يكن أقل حذقاً من محامى خصمها، هيئة المحكمة كثيراً فى التوصل إلى حكمها بعدم العته، بعد أن أكد أن الاهتمام بالحيوانات الأليفة، يعد مظهراً من مظاهر التمدن والترقى، واستشهد بأمثلة عدة كانت عبارة عن أخبار اقتطعها من صحف محلية نشرتها نقلاً

عن وكالات الأنباء، وأخرى منشورة بصحف أجنبية، عن أناس أولعوا بحيواناتهم الأليفة، إلى حد جعلهم يوصون بثرواتهم كلها للأثير منها، سواء أكان قطاً أم كلباً، وذكر أنه شاهد بأم عينه- وكان كاذباً هنا- فى عاصمة الثقافة والنور، باريس، جامعى قمامة غاية فى النظافة والاحترام، تخصصوا فقط فى جميع فضلات الكلاب من الشوارع، بينما أطفالنا يتبرزون فى الحارات الشعبية قرب الحوائط، وتحت الشبابيك، دون أن نبالى، ثم عرج إلى مسألة الزار، فأشاد به كوسيلة من وسائل العلاج النفسى، تعد أصدق دليل على عبقرية الشعب، الذى اكتشف دوره الخطير فى تفريغ شحنات الكبت وتحرير الروح والجسد، قبل أن يكتشف ويثبت بالوسائل البحثية الأكاديمية المتخصصة، وراح يؤكد على ضرورة الإهتمام بكافة فروع الطب الشعبى، الذى يجب احترامه والتعامل معه بجدية، لمواجهة الهجمة الإمبريالية الشرسة، التى وصلت ذروتها فى هزيمة ١٩٦٧، والمستهدفة ليس حرية البلاد ومقدراتها فقط، بل وثقافتها وتراثها أيضاً، ورغم استماع المحكمة إلى خطبته البليغة المطولة، التى زاد وعاد فيها، خالطاً عباس بدرياس، كما أرتأت زينب، فإن القاضى ألقى بمفاجأة لم يجعلها تستمتع وتستريح بما يكفى بعد سماعها الشق الأول من حكمه الذى يدفع عنها العته، إذ أعلن قراره بانتقال الوصاية إلى العم، وانتزاعها من الأم، لأنها وإن كانت قواها العقلية سليمة كما أكدت التقارير الطبية المرفقة بملف القضية، إلا أنها مبددة، متلافة، لا تؤتمن على مال ولديها من ثابت أو منقول، وبما أن العم من رجال الأعمال، فإنه أكثر أهلية، وأنفع فى هذه الوصاية، وكان العم قد أثبت للقاضى أنه، فعلاً، من رجال الأعمال، إذ سلمه، عبر أطراف وسيطة، عقد بيع شقة، مؤقتاً فى عمارته الفاخرة بمدينة نصر.

بعد ذلك بقليل، وبمنتهى الثقة والهدوء، وقفت زينب منصور على باب المحكمة تنتظر الوصى الجديد، وما أن لاح على الباب، قادماً من داخل

قاعة الحكم، حتى أخرجت مسدس زوجها المرخص، الذى حشته فى الليلة الفائتة بثلاث رصاصات، وسددته إلى صدر العم، الذى كان قد رسم على شفتيه ابتسامة ساخرة متشفية، استبدلها الألم المنبعث من داخله بعضة قوية على نواجذه، ردت لزينب روحها، التى كانت قد ضاعت منذ علمت بمقاضاته لها على وصاية الولدين، بعد كل الانهيار النفسي، الذى عاشته منذ ذلك الحين، وحتى وقت صدور الحكم، والذى دفع بها لأن تختار أن تكون غالبة بيدها، وليست مغلوبة بيد أحد، وهى التى ما تحملت الغلب يوماً، ولا عاشت الذل، كمرهفة مدللة، لم تتعود من الدنيا عناداً، بل وكانت دائماً إذا ما وضعت فى تحد، منتصرة مهما كلفها الأمر، باعتبارها أميرة الإختيار، مثلما كانت زنوبيا تدمر فى الزمن القديم.

بالمساعى القضائية الحميدة، وباستخدام النفوذ، حصلت زينب على حكم مخفف بالسجن لم يتعد سبع سنوات، وقد كانت ممتنة جداً لأن المسألة لم تزد عن ذلك.

أوكلت زينب كل ما يخصها من أملاك وميراث لابنة خالة لها، كانت، بمثابة شقيقة لها، وأم أخرى لولديها، الذين ورثا العم المقتول أيضاً، لأنه لم يكن قد تزوج أبداً، وليس له من وريث آخر.

فى السجن استلطفت زينب الطبيبة الشابة، وشعرت باحترام كبير لها، منذ الأيام الأولى لإلحاقها بالعنبر، وبعد مرور وقت قليل، اكتشفت زينب أن بهيجة هى ضالتها المنشودة فى عالم الصداقة والرفقة، ليس فى السجن فقط، ولكن فى الحياة أيضاً، لأن زينب، وطوال السنوات التى عاشتها، لم تكتشف أبداً بهجة الصداقة الحقيقية، التى يمكن أن تنشأ بين امرأة وامرأة، فطوال حياتها، كان الرجال يقفون حائلاً بينها وبين ذلك، فهى ما اهتمت يوماً، كامرأة جميلة، إلا باهتمامهم بها، وبأن تكون دوماً محط أنظارهم، ومستأثرة بإعجابهم، لقد كانت تعرف نساء كثيرات لكنها لم تعرف امرأة بعمق أبداً، مثلما عرفت بهيجة عبد الحق فى السجن، فمنذ

أن تصادقتا، وهما تتشاركان فى معظم تفاصيل حياتهما اليومية، وباتت بهيجة بديلاً للأسرة المفتقدة عند زينب، وباتت زينب العزاء الوحيد لبهيجة فى حياتها الموحشة، فهى لم تكن يوماً حميمية مع إنسان، قدر حميمتها مع زينب، وما وجدت أبداً امرأة قريبة منها، تبثها همومها وآلامها النفسية، إلاها، وقد كانت بهيجة تبهر زينب، بقدرتها على صنع ألعاب ورقية جميلة، وعصافير وأباريق وعرائس طريفة، من بقايا الأوراق، التى يتصادف وجودها فى السجن، إضافة إلى ألعاب أخرى مسلية، كانت تعدها من أعواد الكبريت وحبات المكرونة المقصوصة، وتشرك زينب فيها وهى ألعاب أقرب إلى المسائل الرياضية والألغاز الصعبة. أخذت زينب تسدى لبهيجة خدمة جليلة جداً، وهى تعليمها اللغة الفرنسية، التى تجهلها بهيجة، لأنها من الجيل الذى نشأ فى ظل احتقار اللغات الأجنبية، كرد فعل طبيعى لسنوات طويلة من الاستعمار الإنجليزى، والهيمنة الأوربية على البلاد، وتأثراً بالنزعة القومية التى تعتبر لغتنا سيدة اللغات، وهو الجيل نفسه الذى أثبت أن ذاكرة الشعوب يمكن أن تضعف فى بعض حقب التاريخ، لأنه سرعان ما ألقى بأبنائه فى أحضان التعليم الأجنبى، على أمل الالتحاق بقطار المدنية، الذى فاته كثيرا، وأهمل سيدة اللغات، ناسياً أن الهنود يتقنون الإنجليزية أكثر من إتقان اليابانيين لها.

كانت بهيجة هى التى عرفت عزيزة بزينب، وحكت لها حكايتها، بعد أن نشأت علاقة طيبة بينهما، بسبب نصائح بهيجة الممتازة لعزيزة بخصوص ألم البواسير الحاد، الذى بات مزمناً عندها، لكونها تجلس كثيراً دون حركة كافية تساعد أمعاءها على الإخراج، وبسبب عدم أكلها أكلات مناسبة تحتوى على السيليلوز النباتى، وكانت عزيزة، عبر جنونها الخفيف، تقدر بهيجة تقديراً جماً، بسبب علمها، وتهذيبها، وطريقتها، البسيطة، السهلة فى تناول الأمور، ولأنها كانت خلافاً لبقية النساء، اللاتى عرفتهن، لا تلجأ إلى المخاتلة وأساليب الخداع، فى التعامل مع الآخرين،

كما أنها تسلك بجدية واستقامة دون ميوعة أو تدلل سخيف، لذلك قررت ذات ليلة قمرية، صافية السماء، وهى ترمى ببصرها بعيداً، حيث ذؤابات الأشجار العالية، التى يمكن أن تلمحها من شباكها أن تضم بهيجة، وصديقتها زينب إلى ركب العربة الذهبية، ذات الأفراس المجنحة، الصاعدة إلى السماء، وكان من مرجحات قرارها الخطير، أنها لا بد ستحتاج إلى طبيبة بارعة مثل بهيجة، لمواجهة أية أزمات قد تطرأ على واحدة من راكبات العربة المختارات، وإلى امرأة رقيقة راقية كزينب لتعلم اولئك البائسات قواعد السلوك وآداب التعامل، لأنها طالما نفرت من السلوك الخشن، وأسلوب الحديث البذىء الذى تتداوله معظم السجينات. لذلك، وبينما هى جالسة تحتسى خمرها المائى، وتتلذذ بآخر نفس من أنفاس سيجارتها، حدقت، إلى ذؤابات الشجر أكثر وقالت:

– عندى خبر حلو لك يا بهيجة، بكرة لما تطلعى معنا، عندى لك عيادة من مجاميعه، ثم أضافت:

– وانت يا مدام زينب، همتك والنبى فى توضيب الهدوم، قبل ما نطلع.

حزن العصافير

تلك النحيلة البيضاء بياض قلب اللفت، التى تبدو لفرط نحولها وكأنها نصف إنسان اختفى نصفه الآخر، أو ضاع منه، هى الشابة الذاهلة، التى أطلق عليها جميع من فى سجن النساء إسم شفيقة المتوولة، لأنه ما من أحد يعرف على وجه التحديد، من أين جاءت، وما هى حكايتها، التى دفعت بها إلى سجن النساء، بل وما هو إسمها الأصلى، الذى أطلقه عليها أهلها المجهولين بالنسبة للجميع.

جاءت ذات يوم إلى ذلك السجن، متهمة بالشحاذة والتسول، وهى تهمة ستجعلها تتردد عليه عدة مرات بعد ذلك، كنزيلة لبعض الوقت، من نزيلاته الكثيرات، على الرغم من أن أى إنسان يستطيع أن يلحظ، وبقليل من الذكاء والفطنة، حالة الذهول والضياع الذهنى، التى تعيش فيها شفيقة ما عدا الأطباء، الذين أصروا علىٰ أنها عادية وليست بمجنونة، وبالتالى لا يحق لها الحصول على شرف دخول مستشفى الأمراض العقلية التابع للحكومة، والذى هو أحد معالم البلاد، منذ زمن بعيد، ومحطاً هؤلاء الذين لا يحتملون تناقضات وعبثية الحياة فيها، فيأتون إليها إتيان المستجير من الرمضاء بالنار، ولعل أطباء الأمراض العقلية معذورون فى ذلك، فشفيقة كائن بالغ الهدوء، لا تشاكس، ولا تتشاجر، ولا تعتدى على أى مخلوق حتى لو كان نملة صغيرة، تستطيع سحقها بقدمها أثناء عبورها الطريق، وفوق

ذلك، هى دائمة الإبتسام، صحيح أنها لا تتكلم أبداً، ولا ترد على أى سؤال يوجه إليها، لكن أليس الصمت فى عالم صاخب بالكلام الفارغ هو منتهى العقل، وليس الجنون؟

عموماً، فى سجن النساء متسع للجميع، خصوصاً إذا كان من نوع شفيقة، التى تحدث أقل ما يمكن من مشكلات، سببها الأساسى عذاب الآخرين بسبب حالتها، وحيرتهم الدائمة، وشفقتهم عليها، لشعورهم بالعجز، وعدم القدرة على معاونتها لتصبح كائناً عادياً فى مأكلها، وملبسها، قادرة على تجاوز الحالة التى هى فيها، فهى لا تستحم تقريباً، ولا تخلع جلبابها، الذى ترتديه دوماً على اللحم دون أية ملابس داخلية، أو خارجية، تحته أو فوقه، ثم إنها لا تسأل أو تصارع أبداً على طعام، سواء أكان خبزاً، أو نوعاً نادر الظهور فى السجن كاللحم مثلاً، وإذا لم تجد عليها واحدة من السجينات بشىء يؤكل أو يشرب، فإنها تظل مُدداً طويلة، تصل أحياناً إلى أيام متصلة دون تناول أى شىء يذكر، بل كثيراً ما كانت ترى وهى تلقى بمقررها اليومى، الذى هو ثلاثة أرغفة من الخبز الأسمر الردىء إلى القطط الضالة فى فناء السجن، أو تقطع رغيفاً، إلى فتيتات صغيرة، تتركها على إفريز شباك زنزانتها، لعصافير الأشجار القريبة من السجن، والتى تأتى وتحط، بين الحين والحين على شبابيك الزنازين.

فى بعض الأحيان كانت شفيقة المتوولة تشاهد وهى تنحنى ساجدة على الأرض لفترات طويلة، وكأنها تلعب اليوجا، فى أوقات أخرى ترى رافعة يدها النحيلة، ذات الأصابع الدودية الرفيعة، لتضعها فى مواجهة أشعة الشمس، بينما تتأمل خطوط كفها، المتقاطعة المتداخلة، لزمن ممتد، دون أن ينفذ صبرها، أو يبدو عليها الضيق، مما يجعلها وكأنها تمثال قدّ من صخر، وهكذا، اكتسبت صفة المتوولة، وعاشت بين الجميع دون كراهية، أو خصومات، أو أحقاد تتبادلها مع واحدة من السجينات.

كل هذا لم يعن، أبداً، أن شفيقة لا تعرف حكايتها، ولا تشعر بكل ذلك

الألم الرهيب، الذى أخرس لسانها وجعلها تفضل العزلة الإختيارية عن الدنيا، والإنقطاع الكامل عن الناس، رغم كل المحاولات التى جربت معها لإجبارها على الكلام، بعد أن أكد أطباء الطب النفسى والعصبى، ومتخصصى الأنف والأذن والحنجرة، وخبراء الكلام والنطق، سلامة جهازها الصوتى، وأدوات السمع، والنطق، لديها، وقدرتها المفترضة على الكلام، فلما يئسوا، رجحوا أن يكون امتناعها عن النطق ناتجاً عن صدمة عصبية تعرضت لها، ومشكلة حادة ألمت بها. بذلك ظلت حكايتها سراً مجهولاً للجميع ماعداها، وهى التى عاشت تفاصيلها لحظة بلحظة، وتحملت خلالها ما لم يتحمله بشر من ألم، وعذاب، ربما كان السبب وراء ابتسامتها غير المفهوم، الذى أخذت تنفرج شفتيها الرقيقتين، المضمومتين، دائماً عنه، عندما جاؤوها بمتخصص فى التعامل مع الصم والبكم، ليحاول التفاهم معها أثناء التحقيق فى النيابة، حتى يتمكنوا من تسجيل أقوالها فى محضر رسمى، يكون بمثابة مستند لإدانتها، وكانت ابتسامتها تتسع كلما أخذ ذلك الخبير يشير بأصابعة ويديه، محاولاً التفاهم معها، فقد كانت على الأغلب تسخر ليس من تلك المحاولة الفاشلة لاستعادتها إلى دنيا الناس مرة أخرى، بل من كل ما يحيط بها، والذى اكتشفت عبر آلامها كم هو زائف، وشرير مما جعلها تقرر أن لا تفاهم، ولا إتصال مع الآخرين، مهما بذلوا من محاولات، ومهما بلغ الأمر بها.

الغريب، أن شفيقة لم تكن شحاذة، ذات يوم أبداً، فهى لم تستجد من أى كائن كان، ولم تسر فى الطرقات مادة يدها، تطلب حسنة من الناس، سواء كانت نقوداً أم شيئاً يؤكل أو يشرب، فقد كانت فقط تجلس إلى جانب جدران الجوامع، أو تنام تحت شجرة فى حديقة من الحدائق العامة، أو تسير بجوار شاطىء النهر حتى تتعب قدماها الحافيتان، فتجلس على الرصيف، واضعة يديها فى حجرها، بلا حول ولا قوة.

عندئذ، كان منظرها البائس يثير العابرين، الذين ترق قلوب بعضهم

لها فيميلون عليها، ويرمون إليها ببعض النقود، أو بكسر من سميذ، كالذى يأكله العشاق أثناء سيرهم عند الغروب بجوار ضفة النهر، ومع أنها لم تكن لتفعل شيئاً بالنقود، أكثر من دسها فى قرطاس ورقى، تصنعه عادة من ورقة ملقاه في الطريق، إلا أن الشرطى، الذى قادها إلى قسم البوليس اعتبر قرطاس الفلوس هو دليل إدانتها كمتسولة، محترفة، تبتز مشاعر الناس، وتستغل عواطفهم الطيبة، ليجودوا عليها ببعض مما لديهم، كما ورد فى تقرير النيابة.

ظل حزن شفيقة، وأساها، العميقان، اللذان لا ينقطعان هما كل ما تملكه من مشاعر تجاه الحياة، وهذا ما يبدو واضحاً لكل ذى عين، بمجرد التطلع إلى وجهها، والنظر فى عينيها الواسعتين، ذات النظرات النبيلة الأسيانة، التى تطفر، دوماً، دموعاً محسوسة، غير مرئية أبداً، ربما كانت تقف وراء المعاملة الطيبة الرقيقة، التى تتلقاها، بدلاً من الفظاظة والعنف، ومحاولات الاعتداء، التى تتعرض لها عادة من هى فى وضعها، من إعتداء ساخر بالكلام، أو بالألفاظ النابتة، أو اعتداء جسدى يمكن أن تتعرض له إمرأة شابة وحيدة بلا مأوى، ولعل قذراتها، واتساخها الدائم، لعبا دوراً كبيراً فى هذا الجانب أيضاً، إضافة إلى أنها كثيراً ما قضت لياليها فى أماكن مهجورة مظلمة، وخرابات لا يعبرها عابر، مما زاد فى وحشتها، وشعور الناس بغرابتها.

قبل سنوات التشرد والإعتزال، عاشت شفيقة، كأية فتاة عادية تنتمى إلى الشريحة السفلى من الطبقة الوسطى، فى بيت هادىء، بلا أم، تديره وتشرف على تنظيم أموره، شقيقة أرملة تكبرها بحوالى ثماني سنوات، لعبت باقتدار، دور الأم الحنون، والأخت العطوف، ليس مع شفيقة وحدها، ولكن مع أخين آخرين أحدهما يكبرها، والآخر يصغرها بأربعة أعوام، مما جعل الأب، الذى كان حريصاً على وحدة أسرته، وضمان نجاحها لا يتزوج مرة أخرى بعد وفاة زوجته، رغم معاناته وشعوره الدائم بالوحدة، مما جعله

قلقاً، متوتر الأعصاب، يثور لأتفه الأسباب، ويتعامل بتشدد كبير مع عياله، خصوصاً البنات منهم، خوفاً من انفلات زمامهن، بسبب غياب الأم، وحرصاً على سمعة أسرته، التى يجدها فوق أى أعتبار آخر فى الحياة، بصفته رجلاً صعيدياً يحرص على القيم والتقاليد، التى تمتد إلى عدة آلاف من السنين.

كانت الأخت الأرملة على جانب كثير من الأنوثة والجمال، إذا كانت ملامح وجهها تحمل بصمات واضحة تثبت أن الدولة العلية العثمانية مرت من هنا، وهى البصمات، التى دفعت إليها بخطاب، يرغبون فى الزواج منها، مذ كانت فى الخامسة عشر من عمرها، وأدت إلى تزويجها عند بلوغها السابعة عشرة، من ضابط ميسور الحال، خرج من منزل الزوجية تاركاً إياها وثلاثة أطفال أصغرهم كان يرضع من ثدييها، صبيحة يوم الخامس من يونيو فى العام ١٩٦٧، ولم يعد بعد ذلك أبداً، وقد اعتبر شهيداً، فاستحقت عنه الأرملة الحزينة كل الإمتيازات التى تمنح لأسرة شهيد.

منذ صدور الفتوى القانونية لوفاة زوجها، وعلى ضوئها، باتت تلك الجميلة، رسمياً، أرملة فى مستندات الدولة، ظلت، حتى آخر لحظة رأتها فيها شقيقة المتوولة، دون زواج، إذ كانت قد قررت منذ غياب زوجها ألا تخوض التجربة مرة أخرى، وعاشت لسنوات طويلة، بعد انقطاع كل أمل فى عودة الزوج، لا تسعى لربط حياتها بحياة أسرية جديدة، مع رجل آخر، كالتى عاشتها من قبل مع زوجها الضابط، لكن قانون الطبيعة المعروف أدخلها التجربة مرة أخرى مع فارق بسيط، إذ أن التجربة الجديدة ظلت تجربة عشق، لا يمكن أن تتحول أبداً إلى تجربة زواج، بسبب اختلاف دين المعشوق عن دينها، وهو السبب ذاته، الذى جعلها تحيط تلك العلاقة بسرية تامة، خوفاً من اكتشاف أمرها، لدى أبيها، وبقية أفراد أسرتها، خصوصاً إخوتها الذكور، فقد كانت الأخت الدقيقة،

الحريصة، التي تعمل مدرسة، تتذرع دوماً لخروجها، في أوقات غير أوقات العمل الرسمية، بدروس خصوصية تعطيها لتلاميذها الصغار من البنات والبنين، لكي تستغل الوقت لملاقاة حبيبها، وعندما تعود، كانت تسارع بإخفاء كل أثر يدل على علاقتها به، كالهدايا الصغيرة، التي يقدمها لها بين الحين والحين، والتي لم تتجاوز أساور، أو خواتم فضية، وزجاجات من العطر المحلي المسمى قسمة، لأن العطور المستوردة لم تكن قد شاعت وقتئذ بما يكفي، بسبب المقاطعة الإقتصادية للغرب، التي زادت حدتها بعد هزيمة الخامس من يونيو، وأنتهت كزوبعة في فنجان بمجرد تطبيق السياسة الإقتصادية الجديدة، زمن السادات، وراحت تقدم هذه الهدايا البسيطة لشقيقتها الصغرى، مجدداً كهدايا تزيد من حبها وتقديرها لها، ومن تعلقها بها، وتقوى سطوتها عليها، وقد كانت محل تقديرها وإعجابها، بسبب كونها بمثابة أم لها، عوضاً عن الأم الحقيقية، التي أخرجتها من رحمها، ولكن بسبب جمالها وأنوثتها الفائقة، التي كانت تشعر شقيقة بأنها شابة باهتة الجمال، محدودة الأنوثة، حلمها أن تصل في هذا الجانب إلى ما وصلت إليه أختها الكبرى، التي تكن لها كل أعجاب وتقدير، ظلت الحبيبة الأرملة، وفية لحبها، الذي كانت تزيده الأيام اشتعالاً، بسبب قسم الحبيب على الإخلاص والوفاء لهذا الحب، وأن يستمر في العلاقة، ولا يقطعها أبداً مهما كان الأمر، ومهما بلغت ضغوط أمه العجوز، التي وصلت، بعد البكاء كل يوم، إلى حد تقبيل يده، والتوسل إليه أن يتزوج بأسرع ما يمكن، لأن أخيه الصغير، ووفقاً لتقاليد العائلة، سيظل محروماً من الزواج إلى الأبد، إن لم يتزوج قبلاً منه شقيقة الأكبر، وكان الحبيبان قد تعاهدا على الوفاء تحت شجرة ضخمة بحديقة الحيوانات، ربما غرست زمن الخديوي اسماعيل، وحفرا بمبرد قصافة الأظافر الحروف الأولى من اسميهما، فقط، ضماناً للسرية، على جذعها الضخم داخل خرطوش لم يكن فرعونيا ملكياً، لأنه جاء على شكل قلب يخترقه سهم، وحلفا أن يكون

هادم اللذات ومفرق الجماعات، كما تقول شهرزاد فى ألف ليلة وليلة، هو الحائل الوحيد، الذى يحول بينهما، ويقطع وصال الوجد الممتدة بين قلبيهما.

تعرضت العاشقة المسكينة، التى طالما سفحت مشاعرها وأعصابها خوفاً من انكشاف أمرها، لضغوط نفسية بسبب جمالها وفتنتها الجاذبة للرجال، الذين رفضت عدداً منهم، تقدموا للزواج بها، مع استعدادهم لإحتضان أطفالها، متذرعة بحجج متينة لا تحيد عنها، أبداً، من نوع تفرغها لتربية أولادها، وانقطاعها لخدمة أبيها وإخوتها، وقد حاولت إخفاء جانب من فتنتها، حتى لا تلفت الأنظار، وتثير الانتباه، فتحجبت، لتخفى شعرها الأسود الفاحم الجميل، المكلل لرأسها، ذى الوجه الأبيض المتناسق القسمات، ولتبدو فى عيون الناس كما يجب أن تكون أرملة شابة عفيفة تنتمى لأسرة صعيدية محافظة، حريصة على سمعة زوجها الشهيد، وفية لأبنائه، ورغم كل ذلك انفضح أمرها ذات يوم، إذ ألتقط أو خيط العلاقة، قريب لها، كان مدلهماً بحبها منذ فترة طويلة تعود إلى، قبل زواجها، لكنه، حينئذ لم يتجرأ على طلب يدها لأنه كان صاحب دكان صغير لبيع السجائر، والملبس والأرواح النادلر، المقررة على عدة أجيال من الأطفال قبل ظهور الشيكابوم، والشيكلتس، ومنتجات مصنع حلويات سيما، لكن رواج السياحة أنعش أحواله كثيراً، وخاصة بعد أن حول إلى مطعم سياحى للأكلات السريعة دكانه، الذى لم تعد أهم معالمه لمبة كيروسين نمرة خمسة التى كانت موضوعة على طاولة البيع الزجاجية، لاشعال السجائر التى يشتريها الزبائن، وقد أمده برأس مال ذلك المطعم المسمى سفرة العز، شريك، كان قد جلب عدة آلاف من الدولارات بعد سنوات قضاها فى السعودية كعامل فى محطة بنزين. غير أن انتعاش الأحوال المالية للعاشق القديم، أنعشت مشاعره الكامنة فى قلبه المحب وأيقظتها مرة أخرى، رغم مرور سنوات طويلة على خمولها، بسبب زواج

الحبيبة، والتركة المتخلفة عنه، والممثلة فى الأطفال الثلاثة، لذلك تقدم لها عارضاً عليها الزواج بشروط مغرية جداً، بالقياس لشروط سوق الزيجات الراكد آنذاك، لكن قلب الأرملة المطلسم بالقسم على الوفاء للحبيب، صدّ العرض المغرى، وتذرعت صاحبته بالحجج التقليدية، التى كانت تزيدها احتراماً لدى أبيها وإخوتها، بإعتبارها رمز الوفاء للزوج المرحوم، والتفانى لأولادها، الذين حرصت كل الحرص على سعادتهم وراحتهم.

ومع ذلك، فإن صاحب الدكان، الذى بات يسمى رجل أعمال، منذ الوقت الذى تحول فيه دكانه إلى مطعم، ومشاركته فى أنشطة استثمارية أخرى، بسبب العائد الكبير من الأكلات الشعبية المتميزة بالطعم الشرقى بالنسبة للسياح، والأجانب المقدمة فى مطعمه، لم ييأس، ولم يقطع الرجاء فى المرأة، التى طالما اشتهاها، بل وبات يشتهيها أكثر، بعد دخولها ديوان النساء، واكتمالها كثمرة شهية تنتظر القطاف، إضافة إلى ذلك، فإن اصرار الرجل على التزوج بها، كان محاولة لمصالحة النفس، واستعادة ثقة مفتقدة بها فى الماضى، جعلته يحجم عن التقدم لها زمن الأرواح والملبس، غير أن السبب الأقوى، الذى جعله مصراً على الظفر بها أكثر من أى وقت مضى، كان شعوره المتفاقم، بعد أن دخل غابة الأعمال، بأن كل شىء فى الدنيا يمكن الحصول عليه بالمال، باعتباره المصدر الوحيد، الذى أصبح يستمد منه كينونته، ومعنى وجوده فى الحياة، لذلك حاول رجل الأعمال التقرب من الأرملة العاشقة، بكل الوسائل الممكنة، ابتداء من محاولته الناجحة لاستمالة أبناءها وأسرتها بالهدايا، لأنه لم يكن من الممكن تقديم الهدايا لها مباشرة، خبط لزق، إذ أنها سوف ترفضها على الفور وانتهاء بتقديم خدمات، يصعب على من فى مثل وضع أسرتها الحصول عليها، مثل توظيف أخيها الكبير كمحاسب فى مكتب سياحة، وتقديم سماعة طبية مستوردة من سويسرا لأبيها، الذى كانت تستلزم حالة أذنه اليمنى وضع سماعة طبية حساسة، وإلا بات يسمع الأصوات، وكأنها صادرة من أسفل

جب عميق، لكن رغم كل محاولات التقرب هذه، فإن الزوجة المنشودة، كانت ترده، ليس علي أعقابه خاسراً، كما اعتيد القول فى مثل هذه المناسبات، فقط، ولكنها تصده أيضاً بالريق الناشف فى الكلام معه، والنظرات المستخفة، فهيهات أن يكون موضعه فى القلب، بصلعته التى لا يبخل الزمن عليها بمزيد من التوسعة، وكرشه، النامى بنمو ثروته وفلوسه، كموضع الحبيب، الذى يصلح وجهه لأن يكون أيقونة كأيقونات مدرسة الفيوم فى فن التصوير، ثم أنها لا تظن- وقد كانت محقة فى ظنها- أن رجل الأعمال هذا، سوف يعامل أبناءها معاملة حسنة ويعطف عليهم إذا ما تزوجته، لأنه ما عاملهم يوماً برقة، ولا بود، إلا ساعة عرضه الزواج عليها.

بخبرة رجل سوق، وتاجر خبر الحياة، وتعامل مع أنواع مختلفة من البشر، سواء أكانوا رجالاً أم نساء، خمنّ عارض الزواج، اللحوح، أن فى الأمر سراً، أو بالأحرى، لا بد وأن يكون هناك رجل آخر غيره، فمن غير المعقول ألا تشعر امرأة، كهذه الأرملة الجميلة، بالرغبة فى الإرتباط بعلاقة مع أحد من جنس الرجال، ثم أنها رغم كل محاولاتها لإخفاء رغبتها هذه، فإن تفاصيل صغيرة، لاحظها، كثيراً ما فضحتها، فهى تتفرج بشغف شديد على المسلسلات، والأفلام العاطفية، التى يعرضها التلفزيون، ويصادف وجوده، أثناء عرضها، فى بيت أهلها، أحياناً، حتى أنها تتباطأ فى إعداد الشاى أو القهوة له، حتى لا يفوتها بعضاً من مشاهد هذه المسلسلات، ثم أنها رغم تحجبها تتأنق، وتضع عطوراً فى أوقات خروجها لإعطاء الدروس الخصوصية، إضافة إلى حرصها على الإلتزام بمواعيدها، كما لو كانت عسكرياً فى الجيش ذاهباً للإلتحاق بوحدته العسكرية، وقد حاول إغراءها بالإمتناع عن إعطاء كل هذه الدروس مجتمعة، مقابل درس واحد، لأحد أبناء ثرى عربى، سيدفع لها ضعف ما تحصل عليه من دخل هذه الدروس، إضافة إلى ذهابها وعودتها بإحدى

سيارات ذلك الثرى الخاصة، التى يقودها سائق، لكنها رفضت بشدة متذرعة بأنها تخشى على نفسها من دخول بيوت العرب القادمين من الخليج، حتى لو كان بها زوجات وأولاد، حرصاً على سمعتها.

لم يبق أمامه بعد ذلك، إلا أن يبحث بنفسه عن سبب رفضها له، رغم حالته المالية الميسورة التى تتمناها، ليس أرملة لها ثلاثة أبناء، أو عانس تحلم بالزواج، بل وكل بنت بكر كفلقة القمر فى عز شبابها وتضارتها، ثم أنها- أى الحبيبة العاقة- تدرك جيداً أنه لو أشار بإصبعه لمن هى أجمل وأشبّ منها، لجاءه بدلاً من المائة ألف. وفى الحقيقة أن الرجل كان محقاً برأيه هذا بسبب عجز الشباب عن الزواج، وتحمل أعباء تأثيث منازل زوجية، والإنفاق عليها، إذ التهم زمن الوساطة والسمسرة كل الأحلام الممكنة التحقق، والطموحات بحياة أفضل مختارة وفقاً لخيارات العمل، التى باتت نادرة، بعد سقوط شعار التصنيع من الإبرة للصاروخ سقوطاً عمودياً لم يسمّ عليه أحد. إضافة إلى ذلك فهو لو أراد لتزوج بسنيورة، من بنات الخواجات، اللواتى تقذف بهن رياح السياحة إلى مطعمه، دون أن يدفع مقابل الزواج بها أسود أو أبيض، لذلك فقد أخذ فى مراقبتها، ورصد حركتها أثناء الخروج، خصوصاً بعد الظهر، عندما تتجه لإعطاء الدروس الخصوصية، إذ كان يأتى لزيارتهم فى بيت أبيها قبل موعد دروسها بقليل، ثم يتذرع بأعمال لديه، ويقوم بتوصيلها بسيارته الخاصة إلى مكان الدرس المفترض، ليتابعها بعد ذلك، ولم يمر، بالطبع، وقت طويل، حتى اكتشف حبيبها المجهول، بعد أن تابعها حتى التقت به فى أحد المحلات المغلقة، غير المطروقة كثيراً من قبل الجمهور، إلا لذلك النوع من الأحبة، الذين يفضلون تبادل غرامهم فى أماكن هادئة، ذات إضاءة شاعرية خافته، ونوادل يهمسون همساً أثناء خدمتهم للزبائن الهامسين.

لسوء حظ أخت شفيقة، لم تر العزول الذى رآها، فربما كانت سوت الأمر معه، حتى لو وصل إلى حد قبولها الزواج منه، لأنها تدرك جيداً أن

انكشاف أمرها- إذا ما تم- أمام والدها لن يكون نتيجته إلا العدم، لكنها، ولأنها لم تره، مضت إلى مصيرها البائس، مسيرة وليست مخيرة، إذ قام رجل الأعمال بحركة إنتقامية وقحة، بعد أن حسب عمليات المكسب والخسارة فى الزواج منها، على أساس أنها رفضته، وستظل ترفضه، بسبب وجود ذلك الرجل الآخر، الذى يعتبر فى رأيه، الخنجر الذى سددته إلى موضع جرح كرامته، المنكوء منذ زمن بعيد، فقام بإبلاغ والدها بأنه رآها تجلس مع رجل غريب فى كافيتيريا أبو منجل سيئة السمعة، والمعروفة بكونها وكراً للعشاق والمحبين، أساساً، حيث كانت تضع ساقاً على ساق، ويدها تحت يد ذلك الرجل، الذى كان آنذاك يحوطها بذراعه، ويهمس فى أذنها بكلمات وهو فى غاية الوجد والغرام.

بهدوء، وفى ليلة شتوية باردة، عُقب ذلك اليوم، الذى عرف فيه الأب بسلوك ابنته، الذى اعتبره، مشيناً إلى حد لا يصدق، ومنحرفاً بشكل لم يكن يتصور أن يصدر عن واحدة مثلها، رُبّيت كأفضل ما تكون التربية، فى أسرة صعيدية محافظة، خصوصاً وأن الرجل، الذى شوهدت معه، أثبتت التحريات التى قام بها أخوها، أنه لا ينتمى إلى دينها، اتخذ الوالد، ذلك العجوز المتزمت، قراره الخطير، بعد مشاورة مع إبنه، الذى لم يكن أقل غضباً ولا تزمتاً من أبيه تجاه سلوك أخته الأرملة، التى اعتبر أنها قد مرغت شرف أسرتهم فى التراب، وقد ترتب على ذلك القرار، أن احتال الأخ على أخته، ذات يوم، بعد غروب الشمس، متذرعاً برغبته فى مرافقتها لشراء قمصان، وجوارب له، كما اعتاد أن يفعل فى مناسبات من هذا النوع، وبعد أن هدأت صغارها الثلاثة الصارخين لرغبتهم فى الخروج معها، ووعدتهم بإحضار علب عصير فواكهه من النوع الذى يحبه كل منهم، قبلتهم مودعة، طار بها فى سيارته، الأخ، الذى طالما حملته على يدها، بعد وفاة أمها، وغسلت له ملابسه، بل وألقمته صدرها الصغير الخالى من اللبن، لتشعره بأن صدر أمه ما زال رهن حاجته، خلال الليالى

العصبية، التى أعقبت وفاتها، وهى الليالى التى طالما قطع سكونها، ونياط القلوب، بصرخاته طلباً للرضاع، طار بها، ليس إلى محلات عمر أفندى، التى باتت تبيع أفخر القمصان، بعد تجديدها لتلائم روح العصر، وتوقفها عن بيع الكساء الشعبى من الكستور والدامور والبوبلين، ولكن إلى منطقة صحراوية نائية تبعد عن المدينة والعمران، عدة كيلو مترات، ليتركها هناك إلى مصيرها المحتوم، حيث كان فى انتظارها، تحت جنح الظلام قاتل مأجور، اتفق معه الأب قبل ذلك، وقد ضرب أخوها عرض الحائط بقسوة، بكل تضرعها، وتوسلها إليه، بألا يتركها للموت، لأجل أطفالها الصغار، الذين كانوا، آنذاك، ينتظرون فى شوق العصير المعلب، المرتبط بعودتها.

بعد ذلك، فى البيت الرهيب، وبقلب جامد كالصخر، وعيون باردة ميتة، النظرات، ككل عيون القتلة، أعلن الإبن انتهاء المهمة ونجاحها، للأب الذى كان جالساً ينتظر بفارغ الصبر، نتيجة خطته، والإطمئنان على غسل عاره، وبمجرد أن تلقى النبأ الذى أراح قلبه، نادى على الأخت الصغرى، التى لم تكن إلا شفيقة المتوولة، وأعلن لها، بينما هو ممدد على سريره فى حجرة النوم، ما جرى للأخت الأم، ثم هددها هى الأخرى بالموت، إن هى فتحت فمها بكلمة واحدة، لأى كائن كان، حول هذا الموضوع.

فى تلك الليلة، باتت شفيقة، التى كان إسمها، حتى هذه اللحظة، تغريد، على السرير كجثة متيبسة فى انتظار غسلها، مفتوحة العينين عن آخرهما، عاجزة بفعل قوة خارقة مجنونة، تنبعث من داخلها عن الإتيان بأى فعل صغير حتى إغماض جفنيها، وعندما طلعت الشمس، كانت قد فقدت ثمانية كيلو جرامات من وزنها دفعة واحدة، كما لو أنها قطعة صغيرة من الزبد، ذابت ذات ليلة حارة، فلما صحا أبناء أختها، المغدورة من نومهم، ولم يجدوا أمهم إلى جانبهم فى البيت، أخذوا يبكون بشدة فلم تجد الخالة ما تقوله لهم، إلا أن أمهم ذهبت لعمتها العجوز، لأنها مريضة جداً، وأنها اضطرت للمبيت عندها، لكن عند حلول المساء، كانت الشابة المصدومة

المفجوعة فجيعة لا حد لها، قد فقدت كل قدرة على مواجهة الأمر، وأصبحت كائناً غريباً طوله مائة وسبعة وستين سنتيمتراً، ووزنه خمسة وأربعين كيلو جراماً من العظم واللحم البشرى، وما أن حل منتصف الليل تقريباً، وبعد التأكد من نوم الجميع، بما فيهم الأب والأخ، تسللت الشابة المسكينة على أطراف أصابعها، وفتحت باب الشقة خارجة بحذر وهدوء، بينما كان أبوها يغط فى نومه، فلم يكتشف هروبها، إلا عندما قلب قط شريد حلة طبيخ، كانت بالمطبخ، وهو يحاول إزاحة غطائها المعدني، بعد أن دخل من الباب، الذى ظل مفتوحاً بعد خروجها، فحدث ضجيج ناتج عن وقوع الغطاء على الأرض، صحا الأب عليه.

ظلت تغريد التي أصبح اسمها شفيقة من الآن فصاعداً، تجرى وتجرى، وكأن قوة جامحة كقوة فرسين فتيين تدفعها للجرى، أخيراً، وبعد زمن ممتد من الهروب بسبب مطاردة تصورتها في مخيلتها، سقطت من الإعياء، إلى جوار أحد الأسوار، لم يكن إلا سوراً قرميدياً عالياً لمدرسة متبقية من زمن الإرساليات الإستعمارية، فى القرن الماضى، وقد ظلت إلى جوار السور حتى أوشك الفجر على الطلوع، فرآها أحد أولئك الذاهبين لكسب ثواب صلاة الفجر فى الجامع، القريب من المدرسة، فارتعب، واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم عند رؤيتها، لأنه لم يكن قد رأى طوال عمره، الذى جاوز الستين عاماً، بشرياً بهذا القدر من النحول واتساع العينين، يجلس محملقاً فى اللاشىء فى هذا الهزيع، الذى ينام فيه معظم الناس، وعندما عاد مع بعض المصلين، فور أنتهاء الصلاة، ليرسم ما رآه وشاهده بأم عينه، كان البشرى المرعب، قد فارق المكان، مما جعلهم يتندرون عليه قائلين له، إن ما رآه لم يكن أكثر من تخيلات دارت برأسه.

منذ الليلة الأخيرة، التى قضتها فى بيت أبيها، لم تفتح شفيقة شفتيها بكلام أبداً، وهامت على وجهها أياماً وليالى، تقتات من مقالب القمامة، وتنام بجوار أى حائط، حتى لو كان حائط مقبرة، وكانت جل نهاراتها

تسير دون توقف يسمح للناس بالإنتباه أو الإلتفات إليها، لأنها ما كانت تعود للأماكن التى تعبرها أبداً، وقد قطعت شوارع وحارات المدينة من أقصاها إلى أقصاها، ولم تمض شهور إلا وأصبحت ملامح وجهها، ملامح أخرى، لا تشبه ملامحها الأصلية أبداً، خصوصاً وأن شعر رأسها كان قد شاب دفعة واحدة، منذ الليلة التى تلقت فيها خبر قتل أختها، فأصبحت تبدو فى عمر يزيد عن عمرها الحقيقى خمسة عشر سنة على الأقل.

بعد شهور من ذلك، دخلت شفيقة السجن لأول مرة، بتهمة التسول، وهى التهمة التى سوف تجعلها تتردد عليه بعد ذلك عدة مرات، وتصبح واحدة من نزيلاته الدائمات.

لم تقرر عزيزة ضم شفيقة المتوولة إلى زمرة نساء العربة الذهبية السماوية، إلا بسبب شفقتها عليها، وشعورها بمدى تعاستها ومعاناتها الفظيعة، التى بلغت معها ما هى عليه من حال، إضافة إلى سلوكها المستكين الزاهد فى كل ما يتكالب عليه أهل الدنيا، وكان أكثر ما يجذب عزيزة إليها، حنوها على العصافير، ورقتها البالغة وهى تضع لهم فتيتات خبزها على إفريز الشباك لتطعمهم، ولو ألمت عزيزة بحكاية شفيقة المتوولة، لوضعتها فوراً ودون أى تردد على رأس قائمة راكبات العربة، دون أدنى شك. ولأجل شفيقة عزمت عزيزة على إلحاق الحاجة أم عبد العزيز بالعربة، ولم يأت هذا لأن عزيزة ترى أن أم عبد العزيز مظلومة، لا تستحق عقوبة السجن، ولا لأنها ضحية من ضحايا الحياة اللواتى قذفت بهن الأقدار فى ذلك المكان الكئيب، مثلما تلقى أمواج البحر بالجثث الغارقة على الشطآن المهجورة، ولا بسبب صلواتها، التى لا تنقطع، ليل نهار، وقراءتها الدائمة فى دلائل الخيرات، أو تلك الأوقات الطويلة، التى تجلس فيها للإستماع إلى محطة القرآن الكريم بواسطة راديو ترانزستور صغير تلصقه بأذنها- من ماركة تليمصر، بقى كشاهد على محاولة فاشلة للدخول فى مجال التصنيع، والإعتماد على الذات، أيام الطنطنة الإعلامية للصاروخ القاهر

وشقيقة الظافر، اللذين لم يظفرا بأى نصر فى حرب ١٩٦٧، ولكن عزيزة قررت الحاقها بالعربة بسبب ذلك الحنو الدائم، الذى كانت تغدقه على شفيقة المتووله، والإشفاق عليها، ومراعاة أحوالها، والحصول على ما يصرف لها من طعام وإعطائه لها، فلولا انتباهها الدائم لحالتها، لكانت تلك البائسة قد انتهت حياتها على ظهر الدنيا، منذ زمن طويل.

كانت أم عبد العزيز، حريصة على مراقبة ومتابعة شفيقة المتوولة طوال الوقت، وخصوصاً عندما تجتاحها حالة التشنج العصبى، فجأة، والتى تداهمها بين الحين والحين، فتتحول الفتاة النحيلة إلى لوح من الخشب اليابس، وسرعان ما ترتمى على الأرض، زائغة النظرات، جاحظة العينين على نحو مخيف، يحوّل رأسها إلى ما يشبه رأس عجل صغير، جرى ذبحه للتو، بينما يخرج من فمها زبد أبيض برغاوٍ خفيفة كرغاوى صابون شركات القطاع العام، الذى يوزع إجبارياً مع حصص الدعم التموينى عند البقالين، وتقف جميع السجينات والسجانات، اللواتى يصادف وجودهن، عند حدوث هذا المشهد حائرات، لا يمتلكن القدرة على فعل شىء، عندئذ، تتقدم أم عبد العزيز وهى تتمتم بالشهادتين، ثم بسورة قل أعوذ برب الناس، فتنحنى على الفتاة الملقاه على الأرض، لتؤذن فى أذنها اليمنى آذاناً جميلاً، تعقبه بتلاوة ما تيسر لها من أسماء الله الحسنى، لتطلب، بعد ذلك، الشفاعة من رسول الله "صلعم" للفتاة، ولا تتركها، حتى تعود الحياة، والليونة البشرية، إلى جسدها مرة أخرى، فتسارع بمناولتها شربة ماء، وتربت عليها بحنو، بعد أن تأخذها فى صدرها، الضخم، المستعد لاستيعاب كائن آخر فيه، إلى جوار شفيقة، بينما تنهمر دموعها على خدها بحرارة.

كانت شفيقة تثير فى أم عبد العزيز ذكرى إبنها الذى استشهد فى حرب ١٩٧٣ لأنها تشبهه إلى حد كبير، خصوصاً فى الحاجبين الكثيفين المعقوفين، والعينين الواسعتين، وفلجة السعادة فى أسنانهما الأمامية، التى

أثبتت الأيام، كذب ارتباطها بالحظ السعيد، كما يشاع عنها دائماً، فالبنت المسكينة أوصلها حظها إلى السجن، وفلذة القلب واراه حظه التراب، دون أن تعرف له مكان قبر، تذهب إليه أو تقيم عليه شاهداً يخلد أسمه، لأنه استشهد في سيناء، وتركها تعاني مرارة فراقه، وحسرتها الدائمة عليه، وهى الحسرة والمرارة التى لم يقلل أو يخفف منها أبداً، أنها حصلت كنتيجة لاستشهاده على تعويض مالي لا بأس به أتاح لها بعد أن باعت زوجاً من الثعابين الذهبية، تبقيا لها من مصوغات زواجها، أن تعلى دورين فى بناء بيتها القديم، بعد أن دفعت المعلوم لموظفى البلدية، وحصلت على ترخيص بناء، مخالفة بذلك القانون، الذى لم تأت بسبب مخالفته هذه إلى السجن، ولكن بسبب تقاضيها خلوات من سكان الشقق، الذين أجرتها لهم، مما جعل ربحها من عملية البناء، والتأجير، يقفز ليصل إلى ثلاثمائة فى المائة على الأقل، لكن المستأجرين المقهورين، الذين كانوا من موظفى الحكومة ذوى الرواتب القليلة، والدخل المحدود، والذين دفعوا الخلوات للحاجة أم عبد العزيز، بصعوبة بعد أن ربطوا الأحزمة على البطون، واقتطعوا أجزاء ضرورية من رواتبهم، للدخول فى جمعيات شهرية مع زملائهم فى العمل، تتيح لهم سيولة نقدية، تفى بالخلو المطلوب من كل منهم، هؤلاء الموظفون، سارعوا بالإبلاغ عن ما حصلته منهم أم عبد العزيز من خلوات يجرمها القانون تجريماً لا بأس به، لكنه لم يساعد فى حل أزمة الإسكان، التى تفاقمت، إذ تحول الملاك إلى نظام التمليك بدلاً من تقاضى الخلوات، ونتيجة لهذا حكم على أم عبد العزيز بالسجن، ووجدت هى ذلك حلاً لا غبار عليه، لأن مدة الحكم لم تكن طويلة بسبب سنها وشفقة القاضي، الذى أصدر الحكم، عليها، ومراعاته لكونها أم لشهيد فى الحرب.

ظلت أم عبد العزيز سجينة مثالية السلوك على كل المستويات، فهى عاقلة، رزينة، نظيفة الملبس، ذات لسان عفيف، ويد ممدودة بالخير الصغير

قبل الكبير، وكانت تهمتها من ذلك النوع الذى يبعث على الإحترام بين السجينات والسجانات، فهى تهمة ليست مخلة بالشرف من وجهة نظرهن. ولا تقلل، على الإطلاق، من شأن صاحبتها، التى عيبها الوحيد هو شخيرها المستمر، الشبيه بصوت تنقيط الماء من صنبور تالف، بمجرد أن تضع رأسها على الوسادة لتنام، وهو الشخير الذى كانت أم رجب وأم الخير تساهمان فى تحويله إلى سيمفونية كاملة للقلق والإزعاج، باعتبارهما تنامان فى العنبر نفسه مع أم عبد العزيز، فى ما عدا ذلك ظلت أم عبد العزيز موضع تقدير، خصوصاً بعد أن صارت كثيرات من المسجونات، يؤمن بها، كامرأة تقية واصلة وصول العارفين بالله، لكثرة صلاتها، ولصيامها كل اثنين وخميس، عدا شهر رمضان والأيام الست البيض، التى تعقبه، وأول رجب ونصف شعبان، وغرات الأشهر الحرم، وكذلك لبركتها الواضحة، وقدرتها على إعادة شفيقة المتوولة إلى حالتها الأولى بعد أن تؤذن فى أذنها اليمنى، عندما تجتاحها نوبات المسّ الشيطانى، التى لم تكن فى الحقيقة إلا نوبات صرع عنيف لم تعالج منه أبداً، وكنتيجة لهذا الإيمان والاعتقاد، فى أم عبد العزيز من قبل المسجونات، والسجانات كذلك، باتت تقضى أوقاتاً كثيرة فى السجن، تقوم بعمل الأحجبة للمسجونات، وترقى بعضهن وتمسح رؤوسهن، وقراءة بعض الآيات البينات، عندما تنتابهن حالات صداع شديد لا تقوى على قمعها منتجات شركة باير، وسويس فارما، وهوكست من الأقراص المسكنة للألم، لأنها فى واقع الأمر حالات ناتجة عن ضعف البصر المتزايد، لغياب ڤيتامين أ، تقريباً، من الغذاء، أو عن الإمساك المزمن لقلة السليللوز النباتى فى وجبات السجن، إضافة إلى ذلك، فقد وصل الاعتقاد فى أم عبد العزيز، إلى حد شجعها على القيام بتفسير الأحلام، التى كانت تقوم بتفسيرها عادة بينما تتجمع حولها مجموعة من السجينات اللواتى كن يجدن ما تقوم به هذه المرأة، نوعاً من النميمة اللذيذة، وقد ثبت الإعتقاد

فى قدرة أم عبد العزيز على تفسير الأحلام تفسيراً دقيقاً صائباً، عندما قالت لمحروسة، السجانة، أن لها أبنة سوف تتزوج قريباً، خلافاً لإرادتها، لما حكت لها محروسة، ذات يوم، عند الصباح أنها رأت فيما يرى النائم، أن إحدى بناتها، التى هى أجمل واحدة فيهن، كانت تلتهم إصبعاً كبيراً من الموز، فحاولت أن تمنعها من أكله، لتأكدها من أنه مسموم وسوف يضرها، لكن الفتاة أصرت على التهامه، مما جعل محروسة تبكى وتصرخ طالبة النجدة، لكنها أفاقت على صوت بائع الفول، الذى كان ينادى بالحارة، فهبت مذعورة من نومها إلى المطبخ، وحملت السلطانية الاستامبولى الخزفية، التى قايضت عليها ببنطالين من بنطالات ابنها القديمة، واشترت الفول، وعندما عادت بعد الظهر إلى البيت، بعد انتهاء عملها فى السجن، فاتحتها ابنتها، التى هى فى رأيها فتاة لعوب، تستحق قصف الرقبة، برغبتها فى الزواج من الكهربائى، الذى أصرت على الزواج منه.

الطريف أن أم عبد العزيز، وبمرور الوقت، باتت تعتقد وتؤمن بقدراتها الخاصة فى تفسير الأحلام، وكشف الحجاب عنها، مما جعلها تزيد فى صلواتها، ولا تكف عن قراءة الأوراد، والأدعية، وكل ما تمدها به محروسة، التى كانت لا تشبع من تفسير الأحلام أبداً، من كتيبات دينية رخيصة، تشتريها خصيصاً لها من أولئك الباعة المنتشرين إلى جوار سور جامع السيدة زينب، وسور جامع الحسين رضى الله عنهما لكنها ذات ليلة من الليالى أيقنت بانكشاف الحجاب عنها، وانفتاح الطريق، الموصل إلى الله، أمامها، إذ أنها بينما كانت جالسة على سريرها، تسبح بمسبحتها القديمة، التى خرطت حباتها المستديرة من خشب العنبر، والتى كانت قد اشترتها من خان الخليلى، وإلى جوارها قطة السجن المدللة، تهر بإطمئنان، فاض بها الوجد والشوق، وغلبها الحنين لرؤية وحيدها الشهيد، الذى حرمت منه، إلى حد شعورها بأن دقات قلبها تسرع، ورأسها يسخن،

سخونة غير عادية، وأصابعها لا تقوى على تحريك حبات المسبحة بيسر وسهولة، عند ذاك، ورغم الصخب، الذى كان يملأ عنبر العجزة، وقتها، لأن أم رجب كانت تتشاجر مع لولا الكوافيرة على علبة كبريت ضاعت من لولا، فاتهمت أم رجب بسرقتها، ورغم الأصوات المتداخلة، بسبب محاولات أطراف أخرى لفض الشجار، شاهدت أم عبد العزيز بعينيها، اللتين سوف يأكلهما الدود، أبنها الغالى العزيز، عبد العزيز، يجىء إليها بملابسه العسكرية، وهيئته الجميلة، التى هى على هيئة شفيقة المتوولة، إلى حد كبير، فيجلس قبالتها على حافة السرير، ويربت بيده على رأس القطة، التى امتنت لذلك كثيراً، ورفعته قليلاً عله يهرش لها رقبتها وذقنها، اللتين كانتا تضايقانها بسبب نغش البراغيث بها، بل وتسمع صوته بأذنيها الحادتين، رغم شيخوختها، واللتين يمكنهما الإنصات إلى دبيب نملة، وهو يقول لها فى رقة:

– عاوزة أى شىء يا حاجة قبلما أرجع.

ثم لم تمر ثانية على كلماته، إلا وكان قد اختفى، مما جعل الأم الثكلى، تفتح عينيها بشدة، وتغلقهما عدة مرات، لتتيقن من كونها صاحية لم تغفو، ولتؤكد لنفسها أن ما شاهدته كان حقيقة وعلماً وليس بحلم من الأحلام، ولما تأكدت تماماً من ذلك، بعد أن تحسست بيدها الموضع الذى كان يجلس عليه من السرير، فوجدته ساخناً، كما لو أن إنساناً غادره لتوه، صرخت صرخة عظيمة، ولطمت، ضاربة بكفها على صدرها، منادية ولدها العزيز، مما جعل الدهشة تعم جميع من بالعنبر فيتوقف شجار أم رجب ولولا، التى رفست القطة رفسة قوية بقدمها، عندما قفزت الأخيرة مذعورة من صراخ أم عبد العزيز، فتعثرت برجلها.

استعادت الأم الحزينة نفسها، بعد مدة، من اللطم والندب، اللذين شاركت فيهما عظيمة الندابة، ووجدتها أم رجب فرصة سانحة، لبكاء ابنتها ونعيها، وبعد أن بذلت حنة جهداً خارقاً فى إسكاتها وتهدئتها،

بمسح وجهها بقطنة مغموسة فى ماء الزهر، ولم شعرها فى منديل آخر، بدلاً من الذى خلعته لتمسكه، بيدها، وتعدد به صفات ابنها الخَلقية والخُلقية، التى أضاعها، وأفناها الموت الغادر وأسكنها التراب، وعندما همدت قواها تماماً، ولم تعد قادرة على بذل المزيد من المشاعر الأسيانة، التى بذلتها بكل خلجة من خلجات نفسها، ظلت ساكتة ساهمة، لا ترد على كل الاستفسارات التى وجهت لها، والباحثة عن سبب صراخها وعويلها المفاجىء على وحيدها، لأنها لم تشاهد من قبل فى مثل هذه الحالة الشنيعة من الإنهيار والحزن، فقد كانت تتذرع بالصبر وبقراءة القرآن دائماً، وحتى عندما سألتها حنة سؤالاً مباشراً عما جرى، آثرت أم عبد العزين، الاحتفاظ بالسر لنفسها، وكتمان الأمر عن الجميع، إذ اعتبرت أن رؤيتها لأبنها بأم عينها، وهو ميت، نوع من العطف والكرامة، التى خصها الله بها، والتى تستوجب الشكر، والحمد، والكتمان فى النفس.

قامت أم عبد العزين، بعد أن استعاذت من الشيطان الرجيم، فتوضأت وصلت صلاة أخلصت فيها إخلاصاً كبيراً، واستغفرت الله، عما فعلته منذ قليل، لأنها لم تقصد الاعتراض على مشيئته، وأمضت ليلتها ساهرة، حتى غياب النجم عن سماه، تقرأ ما تيسر لها من آيات وأدعية تريح الميت فى قبره، وتصبر ذويه فى دنياهم.

فى ذلك الوقت، وبينما كان كل ذلك يجرى، كانت عزيزة فى زنزانتها الإنفرادية المجاورة لعنبر العجزة حيث دارت هذه الأحداث، تحملق فى السقف، بعد أن استمعت إلى ما حدث، وخصوصاً الصراخ والعديد الحار، وفكرت مرة أخرى فى أم عبد العزين، وأحوالها، وعذابها المرير، الذى قلما عبرت عنه مذ جاءت السجن، وبينما هى تطفىء الجمرة الصغيرة لبقايا سيجارتها فى كوز الصفيح القديم، الذى كان ذات يوم علبة مربى التين البرشومى، صنعته شركة قها، شعرت بتأنيب الضمير، وبالخجل من نفسها قليلاً، لأنها أخطأت فى حيثيات قرار إلحاق تلك العجوز البائسة بالعربة

الذهبية الصاعدة إلى السماء، لذلك قامت من مكانها، وذهبت إلى الشباك، حيث أسندت رأسها بين قضيبين من قضبانه الحديدية، وقالت بصوت خفيض شابه الخجل:

- حقك عليّ، خاطرك قبل خاطر شفيقة!

لحن الصعود السماوي

لم يعرف أحد أبداً، ما الذى كانت تفعله عزيزة الإسكندرانية، عندما تبقى وحيدة فى زنزانتها الإنفرادية، لمدة أربعة عشر ساعة يومياً، بعد أن يغلق عليها باب الزنزانة من الخارج، حوالى الساعة الخامسة بعد الظهر، حتى تفتحه السجانة المناوبة فى السابعة من صبيحة اليوم التالى. كانت نزيلات عنبر العجزة المجاور لزنزانتها يسمعن وقع قدميها معظم الليل وهى تتمشى فى حركة دؤوبة، قلقة، قلما تنقطع، أما ما خلا ذلك، فلا صوت يُسمع طالعاً من جهة زنزانتها، وهكذا ظلت أحاديثها الطويلة الممتدة، وحواراتها التى لا تنقطع مع أمها وزوجها المقتول، ونفسها، وأولئك المصطفيات للصعود فى العربة الذهبية المسحورة المجنحة، إلى العالم الآخر الجميل فى السماء، سراً أبدياً، لا تعرفه، غير عناكب سقف عنبرها، التى تقاسمها سهر الليالى مقتنصة ما تيسر لها من هوام، ويراع غرّه الضوء المنبعث من العنبر فى الليل، وكذلك جنادب الغيطان، التى كانت ترسل بتحيات المؤانسة، لتلك الوحيدة، الجالسة تتجرع خمرها الوهمى، فتُسمعها، عبر شباك الزنزانة المفتوح، صريرها المرسل من أماكنها فى الحقولَ القريبة من شاطىء النهر، الذى لا يبعد عن السجن كثيراً.

نجحت عزيزة فى البقاء بسجن النساء، طوال سنوات طويلة، بدلاً من نقلها إلى مستشفى المجانين، إذ ظلت حالتها تحير الأطباء، الذين لم

يجدوا شواهد فعلية تستدعي ضمها لزمرة الذين فقدوا عقولهم، فخرجوا عن حدود المتفق عليه، المألوف في القطيع البشري، أما التصرفات القليلة المحدودة، التي بدرت منها، خلال سنوات وجودها في السجن، فقد أثبت التحقيق فيها، أن الملائكة أنفسهم، لو تعرضوا لها لأبرزوا أنياب الشياطين الجارحة، وأظافرهم الحادة، في مواجهة الذين استفزوهم، وعملوا على استثارتهم، لكن عزيزة، كانت تكتفي عادة، في المواقف الإستفزازية، بالعض الخفيف، كما فعلت ذات مرة مع لولا الكوافيرة لوقاحتها، أو بشد الشعر، أو ربما بالضرب بالقبضة في صدر وأنف الغريم، كما فعلت ذات مرة مع سجانة نكدة، ذات وجه كئيب مصفر، كأنها، في الأصل، نباشة من نباشي القبور، ظلت تضع نقرها من نقر البنت جمالات، وتقف لها على الواحدة، مترصدة لها في الكبيرة والصغيرة، لأن البنت رفضت في مرة من المرات أن تغسل لها هدومها، لأن يدها كانت قد احترقت بعد انسكاب الزيت عليها، وهي تقلي البطاطس. فيما عدا حوادث بسيطة كتلك، لم تكن عزيزة لترتكب أي فعل آخر، يلفت النظر إليها، ويشير إلى جنونها، عدا كونها تكلم نفسها أحياناً في حضور الآخريات، وهذه مسألة يفعلها كل الناس تقريباً، مع فارق واحد بسيط، هو أن عزيزة تفعل ذلك بصوت عال مسموع، فتقول ما تود قوله للآخرين، دون اعتبار لما يصح أو ما لا يصح، وما يجب وما لا يجب، فتقول للأعور: أنت أعور، في عينه، وهو الشيء الذي كثيراً ما يود الناس فعله وقوله، لكنهم يحجمون عن ذلك، عادة، بسبب خيانات شجاعاتهم.

على أي حال، لم تكن حالة عزيزة، وحديثها المسموع مع نفسها في فناء السجن، أو الدهليز الطويل، المطلة عليه زنزانتها، وبعض الزنازين الأخرى، يشكلان في أي وقت قلقاً، لأي كائن كان، بما في ذلك إدارة السجن نفسها، التي ارتأت وضعها في زنزانة إنفرادية، تحسباً لعواقب حوادث، قد ينتج عنها مشكلات لا لزوم لها.

طالما تأملت عزيزة وهى فى زنزانتها فكرة السجن، باعتبارها الخيار الجماعي، الذى اختاره البشر، لعقاب بعض منهم، وكانت ترى أن فكرة العقاب لجعل المرء عبرة لمن لا يعتبر، لا تنطبق عليها أبداً، وأنها لا يمكن أن تكون عبرة لأى بشر آخر، لأنها عاشت حياة فريدة، من نوع خاص، لا يمكن لأنسية غيرها أن تعيشها، ولا تقوى على الإستمرار فيها إلا جنية من جنيات البحر، القادرات على الغوص فيه، بعيداً، بعيداً فى الأعماق، دون خوف أو وجل، لأنهن عرفن اسراره، وخبرن أمواجه العاتية، مثلما خبرت هى بحر العشق، وعرفت أهواله وآلامه، بالإضافة إلى أنها لم تقتل رغبة منها فى القتل، أو الانتقام، ولا بدافع الغضب، أو الكراهية، لكنها قتلت، من أجل الحفاظ على عشقها الفريد، الذى ما عاشت إلا لتظل شجرته أبداً، يانعة، مزدهرة، وهى لم تقتل إلا ذلك الآخر الشبيه، الذى قررت التخلص منه بعد أن تجسد لها فى هيئة زوج أمها، فسرق النار الأبدية لعشقها، واقتلع شجرة الحياة فى نفسها من أعمق جذورها، لتحافظ على ما حافظت عليه طوال سنوات عمرها كلها.

لم تندم عزيزة لحظة على قيامها بالقتل، ولا على حرق المنزل الواسع الجميل، بعد أن غمرت بالكيروسين كل ركن فيه كان قد شهد تفصيلة من تفاصيل عشقها، وكل موضع عاش لحظة من لحظات الغرام المشبوب، الذى لم يلم بسره إلا هذا البيت، الساكن فى قلب حديقته الفسيحة، والصاخب بحياة سرية لم يعرف البشر مثلها أبداً، كما أنها لم تندم، فى أى وقت من الأوقات، لأنها أمضت حياتها، كما صوفى ورع، تصلى فى محراب غرامها المجنون، لكنها ندمت أشد الندم على شىء واحد، وحيد، هو أنها سمحت لذلك الحبيب المؤله أن يتعلق بأخرى، وأن يصل به الأمر إلى اعتزام الزواج بتلك التى أحبها، وكانت عزيزة تعض أصابع الندم لأنها أتاحت لحادث، كالخدش الصغير، أن يعكر صفو غرامها الجميل، فلم تقض على المهزلة فى مهدها، ولم تقدم على ما فعلته بعد ذلك، فى ذات

اللحظة، التى انتفض فيها قلبها وجلاً ورعباً، إذ رأت معبودها الأثير، ينظر إلى نادرة تلك النظرة، التى ما اعتاد، أبداً، أن يوجهها إلى غيرها، فشعرت أن ما فى قلبه من حب وغرام، لم يعد لها منذ تلك اللحظة، وقد كان عليها ألا تؤجل، أو تسوف، أو تراهن على أن ما حدث لم يكن إلا سحابة صيف عابرة، تذهب فى سبيلها، دون أن تغمر بفيضها جزيرة العشق السرية الصغيرة، التى رتعت فى مباهجها، وعاشت فيها، وطالما تمنت أن تعيش فيها إلى الأبد.

كثيراً ما أمضت عزيزة ساعات لياليها، تتحدث إلى ذلك المعشوق الأبدي، الذى طالما ظنت أنها لم تخلق إلا لتعشقه، وما عاشت إلا لأن نفحات من روحه كانت تسرى فى دمائها، فتجعلها امرأة بألف امرأة، تبذل من روحها، لذلك الحبيب القدس، حتى يراها نضرة متجددة دوماً، كما لو كانت طائر الفينيق الجميل، الذى لا يفنى، ولا يرتوى أبداً من ماء الحياة، ولطالما تحدثت معه فى لياليها، ذات الخمر النيلية العذبة، التى ما أسكرتها، إلا بنشوة ذكريات حياتها، التى تتسرب منها، وهى مبعدة عن مدينتها البحرية الأثيرة، خلف أسوار السجن العالية، ولطالما بثت حنينها، لتلك الأم- الصديقة، شقيقة الروح، وشريكة الجسد، ونديمة الأيام الخوالى، التى عصف بها الزمان، ووردة البيت اليانعة، التى باركت، دوماً، ما بين زوجها وابنتها من تعاطف، ومودة، وغذت شجرة محبتها بمدد من عطفها وحبها، وما حاولت يوماً، أن ترى ببصيرتها، أو تجلو بأذنيها وببقية حواسها المستطيعة، ما عجزت عيناها عن تبيانه لها، من صخب صامت واش بأواصر الغرام بين زوجها العشيق، ووحيدتها الصغيرة القلقة دوماً بهواجس العشق فى ذلك البيت القديم، الذى شهد لحظات الميلاد ولحظات الموت الأليمة أيضاً.

كانت عزيزة تفكر، وهى تجلس وحيدة فى زنزانتها، أن من المحتمل، أن تكون أمها قد اكتشفت حقيقة العلاقة بين ابنتيها وزوجها، فارتضت ذلك،

وآثرت الصمت لأسباب كثيرة، ربما كان على رأسها أنها كانت ترى فيها مكمن سعادة حشاشة قلبها، وضياء حياتها، الذى تستضىء به، وهى المحرومة من نور عينيها، فلطالما رحبت بأن يخرجا سوياً، فى أيام وليال كثيرة للنزهة أو للسهر خارج البيت، وهى التى ألحت على زوجها ليصحب ابنتها إلى المدينة- العاصمة، التى هى أم الدنيا فيطوف معها فيها، وما أكثر ما حفزت ابنتها على أن تولى زوجها الرعاية والاهتمام، فجعلتها تشرف على تحضير ملابسه بنفسها، كلما تأهب للخروج، وتعد له الطعام عندما يعود إلى البيت متأخراً، فى بعض الأمسيات، بالأحرى، لقد أرضعتها حبه وعشقه، مثلما أرضعتها حليب صدرها، فلعلها كانت عالمة أن ذلك العطف، والحنان، يمكن أن ينمو وينضج إلى ما هو أبعد.... بل إلى منتهى العشق والغرام.

لكن ما كان يؤلم عزيزة، ويشعرها بالضيق، بل وبالخجل من نفسها أيضاً، هو أنها ما كانت لتسمح لأمها أن تكون ذات يوم فى الوضع الذى كانت هى فيه، لو كانت فى مكانها، ولما قبلت أبداً أن تعشق ابنتها زوجها، وأن تتدله بحب الرجل الذى أحبته، وعشقته، وتزوجته أيضاً، وكان شعورها بالخجل والضيق، بسبب اتهامها، لنفسها بالقسوة وغلظة الفؤاد، إضافة إلى ما هو أهم من ذلك، وهو الجحود البالغ، تجاه هذه الأم الطيبة، المتسامحة، كريمة النفس، التى لم تتوقف للحظة عن إحاطتها بالحب والحنان.

عند ذلك الحد من التفكير، كان غضب جامح يتملك عزيزة... غضب من نفسها، وغضب عليها، لأنها ما كانت أبداً الإبنة الوفية البارة، التى يلهج لسانها بالشكر والإمتنان، لتلك الأم العظيمة، بل كانت ابنة ناكرة للجميل، أنانية، تحب لنفسها ما لا تحبه لأمها، التى لولاها لما عرفت ذلك الرجل المعشوق، ولا عاشت معه كل ذلك الزمن الجميل، وإذ يأخذ عزيزة الغضب، وتثور بداخلها قوة الألم، التى تهز كيانها، فتعصف بروحها المعذبة، التى

طالما نأج فيها البوم والريح، تهب واقفة، وتتمشى جيئة وذهاباً بين جدرانها الأربعة العالية، وعندما يبلغ ألمها مداه، تتجه إلى الشباك، فتمسك بقضبانه الحديدية الصدئة، وتهزها، بكل ما تجمع فى قبضتى يديها من غضب وألم، وكأنها تود أن تحطمها وتدفع بنفسها خارجها، بعيداً، عالياً فى السماء، عندئذ كانت ساكنات عنبر العجزة يسمعن صوتاً صادراً عن غرفة عزيزة المجاورة فيحسبن أن القطط لا تكف عن النط من الشباك، إلى زنزانتها، وكانت أم عبد العزين، تعتقد أن عزيزة مؤاخية جناً، يأتون إليها ليلاً، على هيئة قطط لا يمكن أن تكون كالقطط الأخرى، الشاردة، التى تتبسلل إلى العنابر ليلاً بهدف السرقة، فتكشف الأغطية عن الطعام، فى غفلة من صاحباته، وإلا كانت عزيزة نهرتها وطردتها، وقد تحدثت أم عبد العزين، ذات صباح، مع عزيزة فى موضوع القطط الليلية هذا، فنفت عزيزة نفياً تاماً وجود قطط تزورها أثناء الليل، وكانت الحاجة العجوز، التى ظنت أن حُجُبَ العالم المستور قد رفعت عنها، فى السجن، تود أن تحصل، من عزيزة، على معلومات تتعلق بهذا الموضوع، لتوسع مداركها الغيبية، وتكرسها لنشاطها الجديد، الذى أثبتت التجربة نجاحه فى السجن، والذى قررت الاستمرار فيه، وتصعيده، بعد خروجها منه، إلى حياتها الطبيعية.

بعد أن تفشل عزيزة فى تحطيم القضبان، وتؤلها يداها إلى درجة لا تعود معها قادرة على بذل المزيد من الجهد، لدفع ما يعوق فرارها من عذاباتها، وما يمنعها من الصعود عالياً إلى حيث تشاء، كانت تؤوب عائدة إلى فراشها الأرضى، مجرجرة جسدها المنهك بالألم، لتجلس كركام بشرى، حطمته الأيام، وتلاعب به الزمان، فأصبح شيئاً متوهجاً كالفضة فى الرأس، وخيوطاً محفورة بدقة حول العينين، اللتين ذبلتا، وانطفأت فيهما لمعة الحياة، فلم يبق منها إلا تلك النظرة الناعسة، المترفعة، كعلامة باهتة تدل عما كانت عليه صاحبتها، فى الماضى، وما أن ترمى بجسدها

على مرتبة الإسفنج الرقيقة، حتى تشعل لنفسها سيجارة جديدة، وتتجرع كأس خمرها المائي، في جرعات سريعة، لتطفئ بها ما لا يخبو في نفسها من آلام مشتعلة، ولتعاود التفكير فيما يجب إنجازه، حتى تقلع، على أكمل وجه عربتها الذهبية، الصاعدة إلى السماء.

كانت عزيزة ترغب في أن تبدو راكبات عربتها، الذهبية، في أجمل صورة يمكن أن يكون عليها بشر، عند ارتفاعها عن الأرض، باتجاه السماء، وكانت ترى أن هذا أقل ما يجب، ويليق بنساء مختارات من سجن النساء، عند صعودهن إلى هناك، لذلك فقد أمضت ليالي طويلة تحادث سونيا الأرمنية، التي كانت أشهر خياطة في الزمن الماضي بمدينة الإسكندرية، والتي طالما حاكت لعزيزة ولأمها أجمل الثياب، وأكثرها عصرية وأناقة، وقد كانت عزيزة، تناقش سونيا في أدق التفاصيل، المتعلقة بنوع القماش وألوانه، ومدى ملاءمة كل ثوب من الأثواب، التي سوف تصنعها، لصاحبته المختارة للإلتحاق بالعربة الذهبية، وكان كل هذا يتم بعد أن تستدعي عزيزة سونيا من مهجرها الجديد، في فرنسا، الذي استقرت فيه بعد أن لحقت بأبنائها، الذين كانوا قد افتتحوا مطعماً للمأكولات الشرقية فيها، وكانت تستدعي السجينات اللواتي سيلتحقن بالعربة، واحدة تلو أخرى، لتراهن، وتأخذ مقاييسهن، وتختار لكل واحدة منهن ما يناسبها من أثواب، وخلال ذلك تستشير زينب منصور، الجالسة إلى جوارها، وتسترشد بذوقها الأرستقراطي الرفيع، فيما يتعلق بتفاصيل الأثواب، التي كانت تريدها مصنوعة من أقمشة فاخرة، جميلة، منتقاه بعناية، وذات ألوان رقيقة، بهيجة، تجعلهن يبدين وكأنهن ملائكة، لا تقل جمالاً وبهاء عن ملائكة السماء عندما يقابلنها وهن يرتدين هذه الأثواب الطويلة الواسعة، المخصورة، والمصنوعة من الكريب دي شين، والشيفون الرقيق، والحرير الشانتونج، والساتان الدوشيس، والدانتيل المخرم، والتل الموشى بالقصب، وقشر السمك الذي يكب ألواناً سماوية

بهيجة، كتلك التى تكبها رقاب الحمام البلدى، ثم إنها اختارت لكل واحدة منهن تاجاً ذهبياً مرصعاً بالجواهر، والأحجار الكريمة، التى تسلب بسحرها العقول، وحرصت أن تكون هذه التيجان على غرار التاج الذى كانت تضعه الملكة فريدة على رأسها، ليلة زفافها إلى الملك فاروق، الذى كرهته عزيزة كثيراً، لأنه طلق فريدة، وتزوج ناريمان، لكن الله، الذى يمهل ولا يهمل، قلعه من عرشه، بعد ذلك بقليل، إذ قامت الثورة، فترك الجمل بما حمل، وخرج من البلاد غير معزز، ولا مكرم، بينما ظلت صورة الملكة فريدة فى ثوب زفافها الطويل الرائع، والتاج على رأسها، معلقة على الحائط إلى جوار سرير عزيزة، التى كانت تنظر إليها، وتمتع عينيها بها، بين الحين والحين، حتى أتى يوم شديد من أيام النوة البحرية الصغرى طير الصورة من الشباك المجاور لها، بعد أن فتح الريح مصراعه، الذى لم يكن محكم الإغلاق، بشدة، فضاعت معالم الصورة من كثرة ما انهمر عليها من مطر فى الحديقة.

أما بالنسبة للأحذية فلسوف تكون منسجمة تماماً مع الأثواب فقد اختارت عزيزة أن تكون من الساتان السادة، أو الجلد الرقيق، الذى تتخلله أجزاء من الفلترية، أو القطيفة الشمواه الدافئة، وجميعها بكعوب بسيطة غير مرتفعة كثيراً عن الأرض، ما عدا كعب حذاء حنة، الذى سيكون ارتفاعه سبعة سنتيمترات، أما عظيمة النداية، فإنها ستخصص لها حذاء دون كعب على الإطلاق، لكنه سيكون موشى بخيوط فضية جميلة، ثم أنها ستجعلها تجلس فى آخر العربة، حتى لا تحجب الرؤية عن الجالسات أمامها، وستفعل ذلك، دون أن تشعرها بشىء، أو تؤذى مشاعرها، مثلما كان الناس يفعلون معها فى السابق، فقد حكت لها عظيمة يوماً بأسى أنهم كانوا يجعلونها تقوم بتنظيف السقوف فى بيت أبيها لأنها طويلة، مستغنين بذلك عن شراء رأس العبد، المصنوع من الغاب، والذى يستخدم فى ذلك، بل وصل الأمر إلى حد جعل جارة لهم، ترسل ابنتها الصغيرة

لاستدعائها بين الحين والحين، لتجلب لها شيئاً من الاشياء، موضوعاً فوق الدولاب العالى القديم، لأنها لا تستطيع الوصول إليه، لإنزاله، وأن عظيمة كانت تتضايق جداً، لأنها تكره أى شىء يذكرها بطولها غير العادى.

بخصوص الشعور، قررت عزيزة أن يتولى أمرها عدلى حلاق النساء، الفنان، الذى لم يخلق لشىء إلا لرؤوس النساء، فهو يستطيع بفضل أصابعه الماهرة، الذهبية، أن يحولها إلى رؤوس شبيهة برؤوس حوريات البحر الساحرات، وهو حلاق مدينتها، الذى طالما تفنن فى تصفيف شعرها، بطرق حازت دائماً على إعجاب حبيبها، وبهرته، إذ كانت تزيد سحنتها فتنة وجمالاً. وقد قررت عزيزة، بعد تفكير عميق جداً، ضم قطة السجن المعذبة إلى ركاب العربة، إضافة إلى قطة أخرى، ذات لون أسود غطيس، لاحظت أنها باتت تتردد على السجن كثيراً، وكانت تجلس أحياناً إلى جوار قطة السجن فى الممشى، الذى ترى عزيزة جانباً منه من شباك غرفتها الآخر، فتهران سوياً بمنتهى الإرتياح، ودون نشوب أية معارك بينهما، وقد لاحظت أنهما لا تتصارعان أبداً على الطعام الذى تلقى لهما به، أحياناً، أثناء الليل.

رغم كل هذه الإستعدادات، التى أعدتها عزيزة لتكون الحال عند الصعود على أفضل ما يرام، ظلت هناك بضعة عقبات صغيرة، حاولت عزيزة تذليلها، فعلى سبيل المثال، كانت محروسة السجانة تكره أم رجب كثيراً، لأنها تلعب دور الجاسوسة على السجينات لصالح إدارة السجن، مما يسبب لمحروسة كثيراً من الحرج إذ تتهم بالتواطؤ مع بعض السجينات، الأمر الذى لا ترى محروسة أنه يتم من قبلها إلا لأسباب إنسانية بحتة، فأم الخير صنعت عروساً قماشية بحجم طفل لعايدة الصعيدية، إلا لتضعها إلى جانبها وهى نائمة، كما لو كانت إبناً لها، لكن أم رجب سرقتها، ولما واجهتها محروسة بهذه السرقة، وأحرجتها، انتقمت منها فأبلغت إدارة السجن، أن محروسة سمحت لجمالات، ذات ليلة، بالمبيت

مع هدى فى عنبر الجرب، وهو ليس عنبرها، لأن هدى كانت قد أغرتها بدعوتها إلى حفل ساهر فى العنبر، سيجرى فيه الرقص والغناء، بمناسبة خروج إحدى السجينات فى اليوم التالى بعد أن صدر قرار بالإفراج عنها لعدم ثبوت تهمة الجمع بين زوجين عليها، إذ اكتشفت المحكمة وفاة زوجها الأول، الذى لم تكن قد رأته منذ غادر البلاد قبل سبع سنوات، ولم تسمع أى خبر عنه أثناءها، فغيرت مكان سكنها، وسافرت إلى بلد فى الصعيد، وتزوجت بائع عسل أسود جوال، أنجبت منه ثلاثة أطفال، لكن أم زوجها الأول قاضتها لتدخلها السجن.

المشكلة الأخرى التى واجهت عزيزة، هى شفيقة المتوولة، التى كانت معظم السجينات لا يحببن وجودها بينهن كثيراً، رغم إشفاقهن عليها، بسبب قذارتها، وإصرارها على البقاء بأقل ثياب ممكنة على جسدها، حتى فى عز الشتاء، ورغم كل المحاولات المبذولة من بعضهن لإعطائها شيئاً تستر به جسدها. لكن عزيزة، كانت تراهن على أنهن سوف يقبلن عليها، ويحتفين بها، كثيراً، بعد أن تُحمم، ويُليَّف جسدها جيداً بالليف الخشن، ويفرك كعبها بالحجر البحرى الخفاف، حتى يصيرا ناعمين، نعومة حرير ثوبها الوردى الساتان، مكشوف الصدر قليلاً، والذى سوف تجعله سونيا، بمهارتها، محبوكاً عند الحضر، واسعاً عند الأطراف والذيل، ثم أن عدلى الحلاق، سوف يسرح لها شعرها الناعم الجميل، ويعقصه من الخلف عقصة بديعة، يمسكها دبوس كبير من العاج الأبيض المرصع بفصوص الماس، وعندئذ، فلسوف تبدو وكأنها أمرأة أخرى تماماً، لا علاقة لها أبداً بتلك الفتاة الكئيبة، الوسخة، التى كانتها، بل ربما بدت شبيهة بالممثلة الجميلة شادية، فى ذلك الفيلم الذى غنت فيه أغنية "دور عليه تلقاه"، والذى شاهدته عزيزة، ذات يوم، فى سينما مترو بالإسكندرية، عندما ذهبت إليها بصحبة حبيبها، الذى ظل ممسكاً براحتها، وأخذ يطبع على خدها قبلة بين الحين والحين فى الظلام، بعد أن ألحت عليه أمها

ليخرجها، ويرفه عنها قليلاً، بعد أن ظلت راقدة فى السرير عشرة أيام إثر إصابتها بالتهاب حاد فى القولون، رفع درجة حرارتها، فظن الأطباء فى البداية أنه حمى التيفوئيد.

أما ما كان يؤرق عزيزة أرقاً شديداً، ويجعلها تنتفض رعباً أحياناً، فهو تصورها وخوفها، أن يأتى مأمور السجن، ويحاول فرض نفسه على العربة، بعد أن يبهره منظرها، ويعرف أنها صاعدة إلى ذلك المكان الجميل فى السماء، حيث النعيم المقيم، والسعادة الأبدية الخالصة، والحب الصافى العميق بين البشر، الذين لا تؤرقهم مشاحنات أو صراعات دنيوية دنيئة، وقد ظلت عزيزة تحسب حساب هذه المشكلة، والطريقة التي سوف تواجهها بها إذا ما حدثت فعلاً، لذلك قررت أن يكون الإقلاع ليلاً، بينما يكون المأمور غير موجود فى السجن، على أن تتم العملية بسرية، وهدوء، وسرعة، ولهذا فإنها سترجو الأفراس، ألا تصهل صهيلها الجميل، وألا ترفرف بأجنحتها الذهبية القوية، ذات الرنين الموسيقى السحرى قبل لحظة الصفر لئلا تلفت الأنظار إلى العربة، وتجعل النائمات يفقن، ويحاولن الركوب بها، وستأمر كل من اختارتهن للصعود معها أن يتحركن بحذر وهدوء، وسرعة، لكي تتم العملية بنجاح، قبل وصول المأمور كى لا يكتشف أمر العربة ويحاول الصعود إليها مما يعقد المشكلة.

كان ذلك الهاجس، هو الذى يؤرقها، كل ليلة، عندما تنتهى من التفكير فى حبيبها، وأمها، وراكبات العربة الصاعدة إلى السماء، ذلك الأرق الذى يطرد محاولات النعاس للإستقرار فى عينيها، ويجعلها تسمع صياح الديكة وأذان الفجر، حتى آخر ليلة، عاشتها فى هذه الحياة، تلك الليلة التى استعادت فيها، كل ما يمكن أن تستعيده ذاكراتها، التى ظلت أنيسة لياليها الطويلة الموحشة فى السجن، ورتبت كل ما أرادت ترتيبه وتدبيره، لتصعد عربتها الذهبية إلى سمائها المنشودة، بعد أن نادت على راكباتها المختارات واحدة واحدة، نداءً سرياً لا يسمعه سواها، وألبست كلاً منهن

ثوبها الرائع المعد خصيصاً لها، وجعلت عدلي الحلاق يصفف لكل واحدة شعرها ويزين رأسها بما يجعله فى أجمل صورة، وعلى خيروجه، ثم أنها تأهبت بعد كل ذلك للصعود، كما تصورته، ورسمته، فى مخيلتها، بكل دقة، فارتدت ثوبها الأسود، المخملي، الطويل، ذا الأكمام الطويلة، والصدر المصنوع من الدانتيل، الذى نثرت عليه ماسات صغيرة، تتلألأ بألوان الطيف، على شكل زهور بديعة التكوين والصنع ثم أنها صففت شعرها بطريقتها المفضلة، التى طالما أتقنها عدلي، الذى تفنن فى إتقانها هذه المرة، أكثر من أية مرة أخرى، فجمعه وله فى نهاية رأسها، عند اتصاله بالرقبة، وأمسكه بشريط من الساتان الأسود، على هيئة فراشة جميلة، ثبتت فيها لؤلؤة صغيرة، ثم أنها بعد أن استعرضت نساء العربة واحدة، واحدة، وتأكدت أن زينتهن على ما يرام، بل إنهن فى تمام الجمال وغاية الفتنة، سمحت لهن بالركوب، وحملت قطة السجن المشمشية فى يدها، وكانت قد وضعت لها، حول رقبتها، شريطاً من القطيفة البنية الداكنة، يتدلى منها جرس فضي صغير، أما رفيقتها السوداء، فقد حملتها الفلاحة أم الخير، التى شعرت بسعادة غامرة، كما لو كانت قد عثرت على لقية من اللقى، بعد أن أحاطت عزيزة رقبتها بشريط من الحرير الأحمر الوردى، فبدت جميلة متألقة بسوادها اللامع، ولم تنس تعليق جرس صغير بالشريط أيضاً، وبعد أن صعد الجميع إلى العربة، واتخذن مواقعهن فيها، أشارت عزيزة بيدها إلى فرقة الموسيقى السماوية، التى جلبتها لتعزف لحن الصعود السماوي، وهو اللحن ذاته الذى انطبع فى ذاكرتها بعد أن سمعته يوماً فى زمنها الماضى، تعزفه فرقة من فرق الجيش الموسيقية، يوم عيد الجلاء، فى كشك الموسيقى بحدائق أنطونيادس الجميلة، التى ما عاد أحد يعزف فيها أو فى غيرها شيئاً، ربما لأن الزمان، الذى كان الناس فيه يتذكرون عيد الجلاء، مضى، وقد عزفت الفرقة السماوية عزفاً جميلاً، رائعاً، اهتزت له مشاعر عزيزة.

وبعد أن انتهت من مراسم الصعود السماوى المهيبة، التى كانت مسبوقة بعشاء فاخر أكثر من كل عشاءات الفنادق ذات النجوم الخمسة فما فوق، وحفل راقص، تخلله رقص رائع، طالما رقصته عزيزة مع الحبيب الأزلى فى قاعات الأندية الليلية الفاخرة بالمدينة، أيام أعياد الميلاد، وليالى رأس السنة، وبعد أن انتهت من إلقاء نظرة مودعة عميقة، لم تخل من احتقار لكل عالم السجن الرهيب، بمبناه، وإدارته، وسجاناته وطعامه، ونومه، وملبسه، وعالمه اللا إنسانى، أعطت شارة البدء فى الإنطلاق، بعد أن أحكمت قفل الأبواب، فبدأت الأفراس البيضاء الجميلة القوية تفرد أجنحتها الذهبية الرائعة، وكأنها أشرعة لسفن أسطورية سوف تمخر عباب البحر.

لكنها، وبدون أن تعرف كيف جرى ذلك على وجه التحديد، فوجئت بمأمور السجن، والسجانات، اللواتى طالما كرهتهن، يظهرون أمام العربة، فيعترضونها، ويوقفونها، محاولين الركوب فيها.

عندئذ، ارتفع ضغط دم عزيزة، وكانت وحيدة فى زنزانتها، ارتفاعاً كبيراً حتى تجلط الدم جلطات متتالية: مرة، ومرتين، وثلاثة، فى مخها الذى ما كف لحظة قبل توقفه الأخير، عن التفكير، فى العمر الذى مضى، والحياة التى تسربت فى دروب الأقدار وما عاشته من سنوات فرح وسنوات حزن.

فلما دخلت فى غيبوبتها الأخيرة، وبدأت تنازع نزع الموت، الذى ما شهدته نجمة سماوية واحدة، رأت مختاراتها من نساء السجن، يهبطن بسرعة من العربة الذهبية مرة أخرى، ويشتبكن مع هؤلاء الذين يودون اقتحامها، والصعود فيها، حتى نجحن فى ردهم خائبين، بعد أن اسقطنهم تحت أرجل الأفراس البيضاء، ذات الأجنحة الذهبية، التى أخذت ترفرف بأجنحتها لتنطلق إلى السماء بعد أن رفعت عزيزة يدها بصعوبة، مكررة شارة الصعود، ولم تتوقف دقات قلبها، التى كانت قد

أخذت تخبو شيئاً فشيئاً، لينتهى دبيب الحياة فيها، إلا بعد أن تيقنت من إحكام إغلاق نوافذها وأبوابها على كل اللواتى كن قد عدن إليها من صفوة نساء السجن، وأن الأفراس البيضاء رفعت أقدامها عن الأرض، وطارت بأجنحتها الذهبيةإلى السماء.

صدر للكاتبة

- زينات فى جنازة الرئيس (قصص قصيرة) - القاهرة / ١٩٨٦
- مقام عطية (رواية قصيرة وقصص) - دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع القاهرة / ١٩٨٦
- عن الروح التى سرقت تدريجياً (قصص قصيرة) - مصرية للنشر والتوزيع القاهرة / ١٩٨٩



مدينة العاشر من رمضان المنطقة الصناعية A1
تليفون ٣٦٢٨٨١-٠١٥

رقم الإيداع : ١٦٤١ / ١٩٩١

العربة الذهبية لا تصعد إلى السماء

في هذه الرواية، تحاول الكاتبة أن
تغوص بعيداً داخل حياتنا الاجتماعية
وتقتحمها بجرأة وشجاعة، مستندة إلى ما تملكه
من قدرة على كشف جانب منسي من العلاقات
الاجتماعية، له خصوصيته، لكنه قابل في
معظمه للانسحاب على المجتمع الأكبر
والأوسع، وهي تقوم بذلك بأسلوب
سهل جذاب، ومرونة في القص مستندة
إلى الروح الشعبية الدافقة بالسخرية.



